

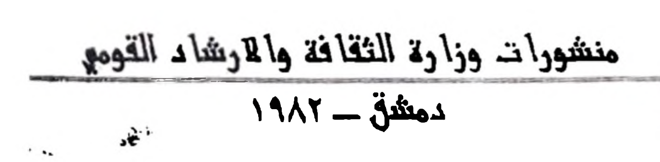
الدكتور
معروف عزيز نايف رزوق
تاريخ شيزر
عبر
منذ القدم وأخبار من مرّ بها من البشر
مدونة ابو عبدو

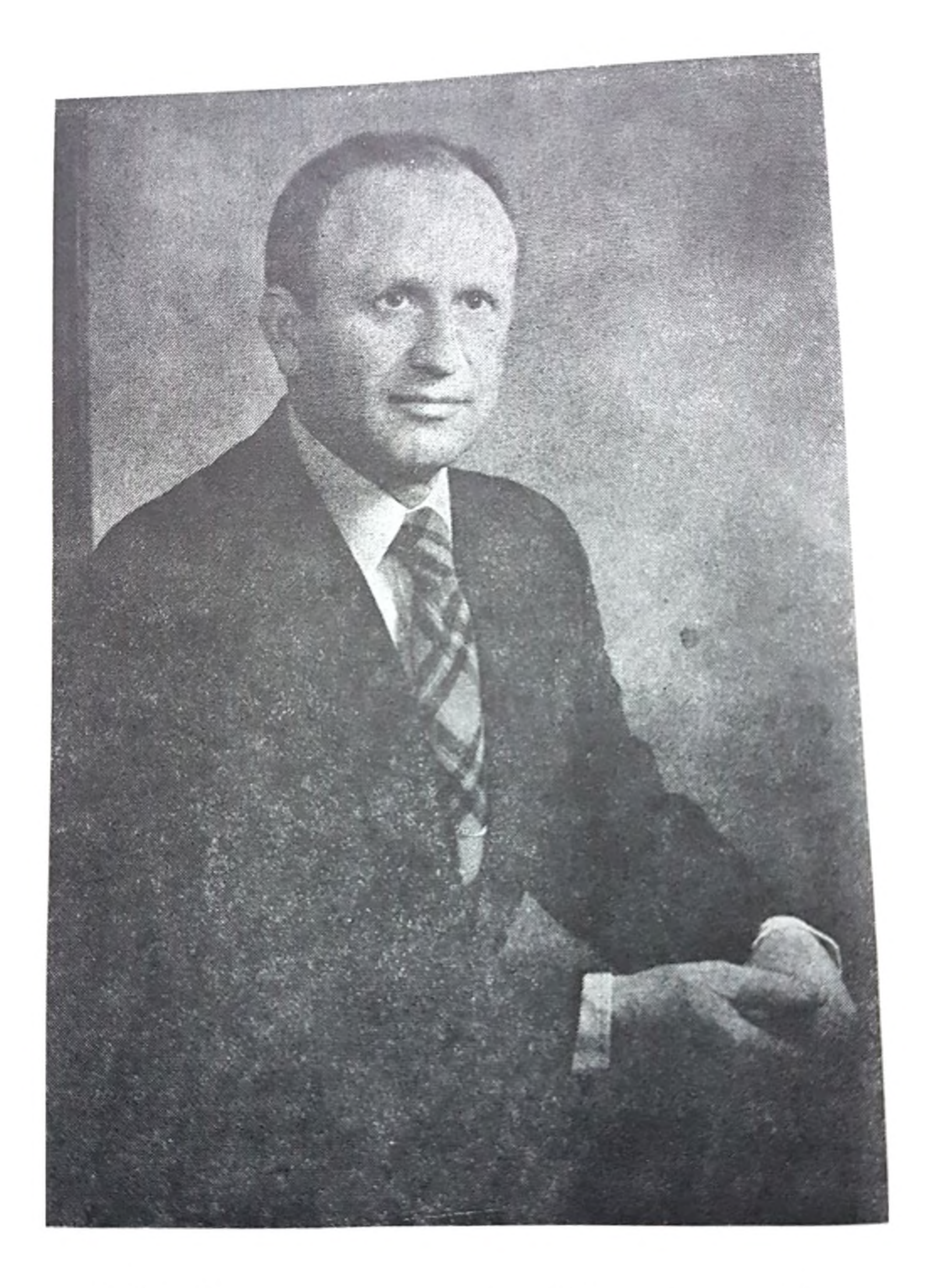
الدكتور
معروف عزيز نايف رزوق



منذ القدم وأخبار من مر بها من البشر




منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي
دمشق ـ ١٩٨٢



الدكتور معروف عزيز نايف رزوق ، السقيلبية – حماه ؛ استاذ في جراحة القلب والأوعية الدموية والصدر في جامعة تكساس ومركز بيلور الطبي ، دالاس – تكساس

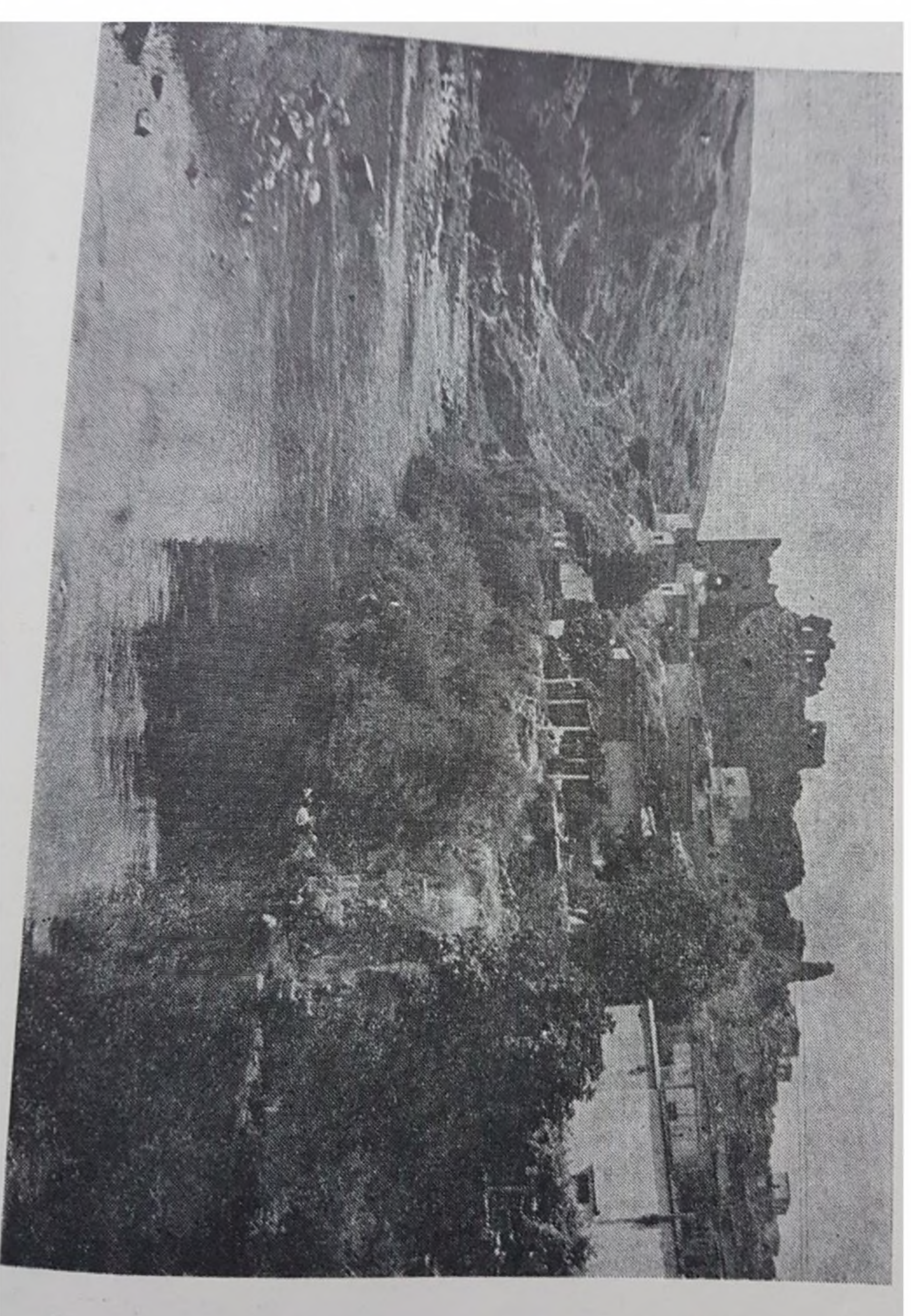


(صورة ١) الوهدة السحيقة التي تنحدر إلى العاصي على الجانب الشرقي من قلعة شيزر .

كلمة الكاتب

عزيزي القارىء ، أنا لست بمؤرخ ،ولهذا قد تتساءل عن الدوافع التي حذت بي كي أنحرف عن مساقٍ ثقافي كطبيب وأن ألهج بالتاريخ لأقدم هذه الصفحات التي اقتطفت محتوياتها من تاريخ سورية منذ حوالي سنة ٣٥٠٠ ق . م إلى ضحى الجلاء والاستقلال في ١٧ نيسان سنة ١٩٤٦ م .

فمرآي المتوالي لشيزر وترددي على أفاميا منذ الحداثة ولّد في نفسي ميلاً لتعشق التاريخ وحباً لتقصي أخبار الأولين والإلمام بمآثرهم ومآسيهم التي تعكس ماضيهم على حاضرنا . ولأجل إرواء شغفي هذا ، لم أجد سبيلاً إلا الإبحار في أعمق تاريخ سوريا ، فكانت انطلاقتي من شيزر . وعلى متن هذه الصفحات خططت مقتطفاً لتاريخ سوريا بشكل عام وتاريخ شيزر بشكل خاص . ولعل في ذلك ذكرى لمآثر مجيدة وإضاءة نيِّرة إلى مآس طوال وحافز للتعلقِ بالأماني القومية والقيم الوطنية . مُثُلُ الشعوب للحفاظ على كيانها وإبقاء عزتها واستمرار وجودها .



(صورة ٢) مخاضة العاصي ، وهي تقع على جانبي الجسر ، ويمكن عبورها سيراً ، على الأقدام . الصورة تشير إلى قسم المخاضة الواقع شرقي الجسر .

مقدمة

إن الحيَّ شغوفٌ بذكرى من ذهب ، مولعٌ بآثاره ، تواقٌ للتنقيب عنها حريصٌ على تخليدها على تراخي الحقب وامتداد العصور. ولكن عاديات الزمن قلّما تُبقي عما يُفصح عن معالم من مضوا إلا اليسير من أصواتٍ تنبعثُ من صخورٍ مبعثرةٍ في العراء تحكي عن أرزاء* الدهر وفجائعه وتشيرُ إلى ولعِ الأولين بحب الدنيا ودأبهم في عصرهم لحفاظ كيانهم وتخليد ذكراهم . وإن كان هنالك من حاضرة في الدنيا قد فُجعت بأهلها ، إنما هي شيزر ، وذلك لما أصابها من سهام هذه المصائب الفتّاكة . فهي الآن ومن على أكمتها العالية تنظر إلى الغادي والصادي بكآبة وجلال ، وكأنها تردّدُ أبيات المتنبي :

رماني الدهر بالأرزاء حتى
فؤادي في غشاءٍ من نبال

فصرتُ إذا أصابتني سهامٌ
تكسرتِ النصالُ على النصالِ

وهانَ فما أبالي بالرزايا
لأني ما انتفعت بأن أباليَ

(*) الأرزاء : المصائب .

وما أحدٌ يُخلّد في البرايا
بل الدنيا تأول إلى زوالِ (١)

فتلك الأطلالُ المدمرة كما تبدو عليه الآن . تشير إلى مامرّ على شيزر من حالات الزمن من نعيم وبؤسٍ وصفوٍ وكدرٍ وهي على حال ٍ من الرصانة والصبر . فشيزر وما كان لها من مجدٍ غابرٍ وما إنتابها من أهوالٍ ودمار ، لاشك أنها جديرة بالقول :

أسائل عنك بعدكِ كلّ مجدٍ
وما عهدي بمجدٍ عنكِ خالِ

يمرُّ « بقربكِ » العافي فيبكي
ويشغله البكاء عن السؤالِ

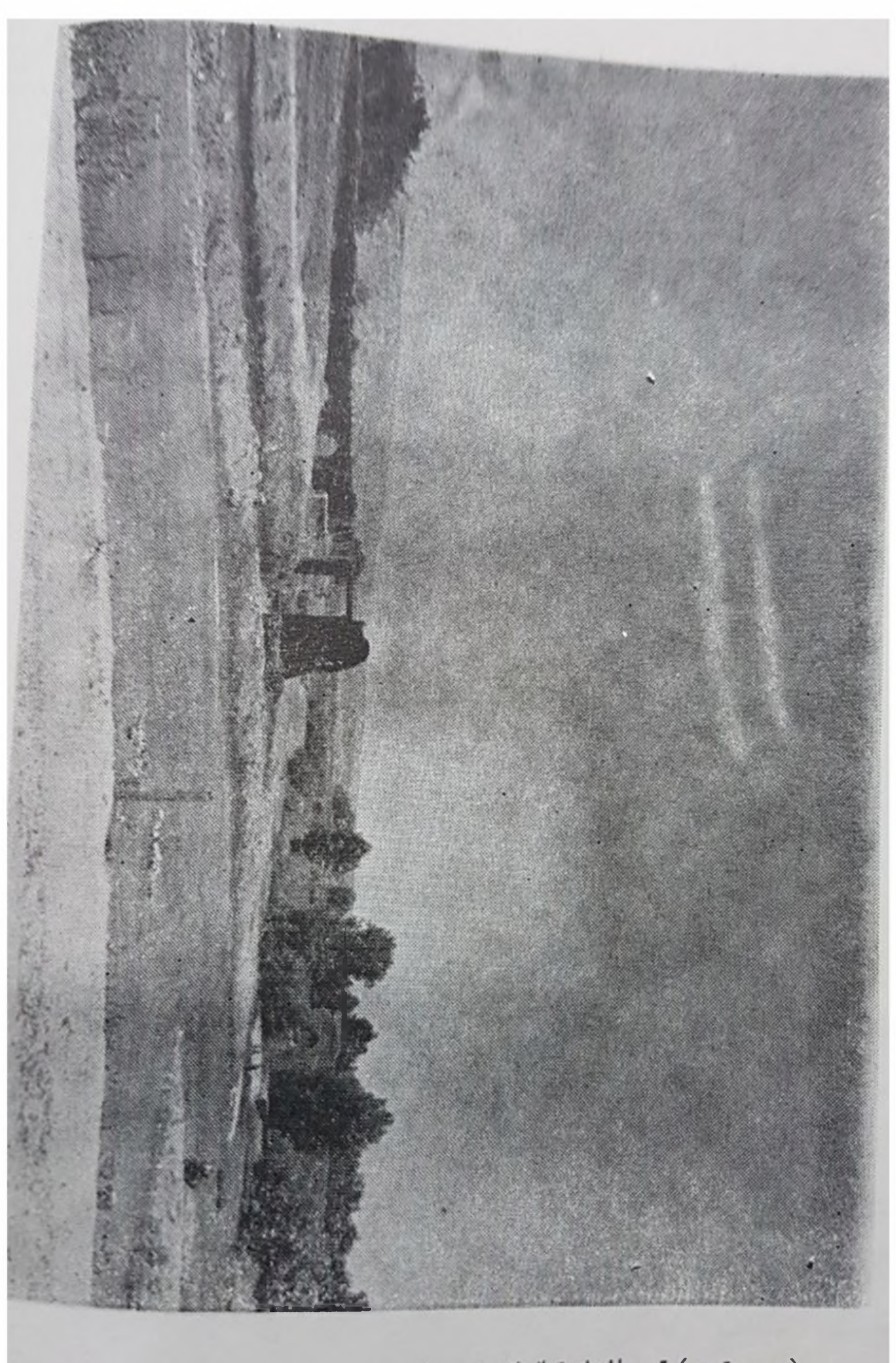
« وأنت » تُعلّمي الناس التعزي
وخوضَ الموتِ في الحرب السجالِ

وحالاتُ الزمانِ « عليكِ » شتّى
وحالُكِ واحدٌ في كل حالِ (١)

ولكن شيزر ليست فريدة في مأساتها . فربوع الوطن السوري مليئة بأطلال حواضر مجيدة ، دمّرها الغزاة الفاتحون كما أذاقوا أهلها ضروب الذل والهوان وأشبعوا تربتها بدم أبنائها الأبرار . فهذه التربة التي جُبلت برفاة الأولين يجب أن لاتطأها الأقدام بدون مبالاة واكتراث . فأحداثها جمعاء ينبغي أن تُنقش عل صفحاتِ التاريخ بدون شائبة كي يتنى للاّحقين الإحاطة والإلمام بأخبار السابقين لتجنب أخطائهم وتحاشي عثراتهم بغية الحفاظ على مقومات الأمة

وترابط صفوفها في وجه الطامعين . فكل أمة تجاهل أبناؤها تاريخ ماضيها وتغاضوا عن إحياء عزتها بعد العثرات كان مآلها للزوال والإندثار. فأين السومريون والأكاديون والإبلاويون والعموريون والكنعانيون والآراميون والفينيقيون وغيرهم من الأمم الغابرة التي ضاعت في غياهب التاريخ ، فانتُسيَ ذكرها واندثرت معالمها وذاب كيانها ولم يبق لها من وجود ! فتجاهل تلك الشعوب لكيانهم القومي وإهمالهم لواجبهم الوطني وتغاضيهم عن الفساد ووضعهم مصلحة الفرد فوق مصلحة الأمة ، كان في ذلك سبيل انزلاقهم في الهاوية وضياعهم في أعماقها المظلمة السحيقة .

* * *



(صورة ٣) قسم المخاضة الواقع غربي الجسر .

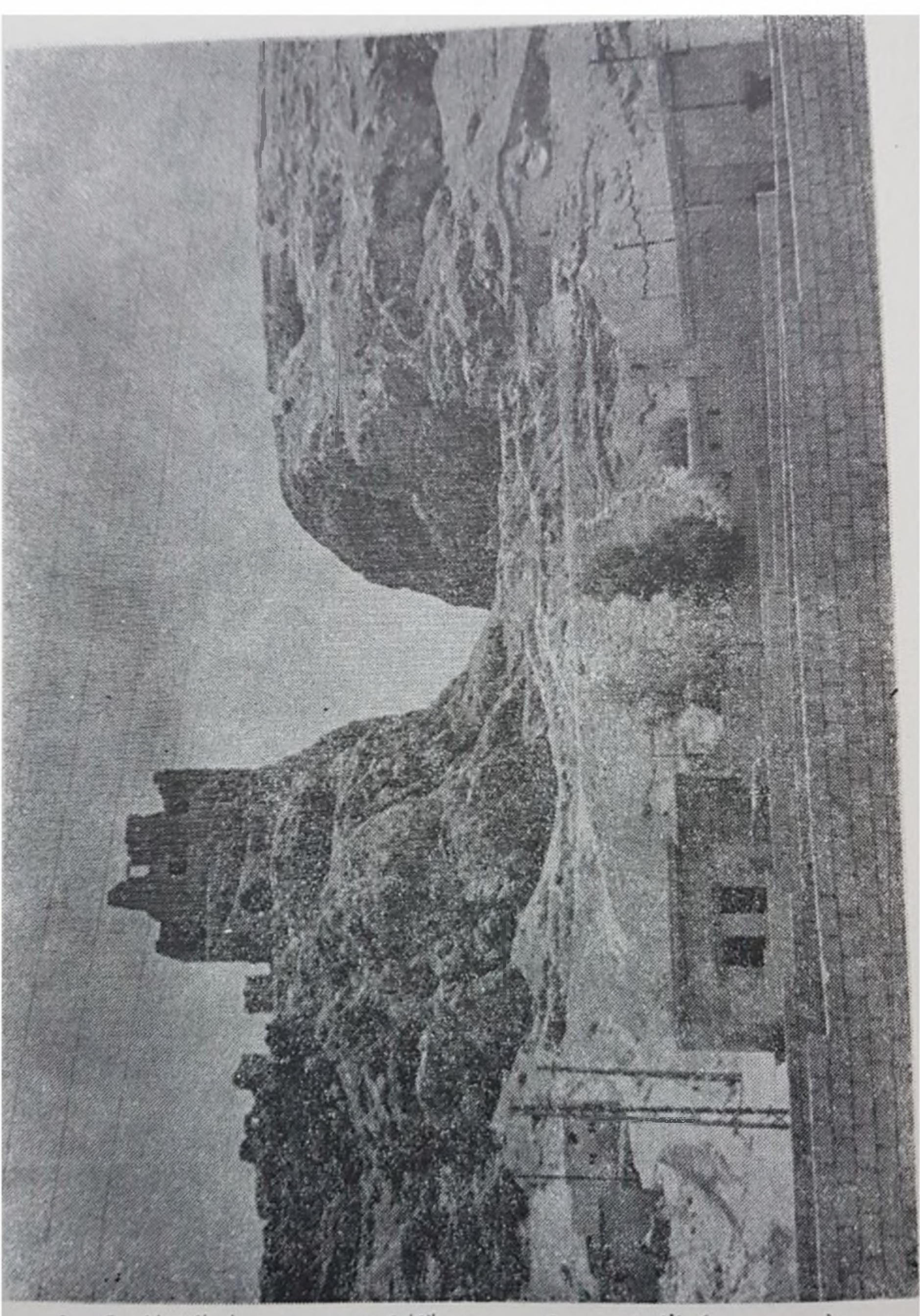
موقع شيزر

تقع شيزر في أواسط سورية ، على مايقرب من مسافة ٢٨ كم شمال غربي حماه ، على الطريق الدولي الذي يبدأ في دلتا النيل ويتجه شمالاً نحو سورية حيث يتفرع إلى ثلاثة فروع : غربي ويبقى محاذياً للساحل ؛ وشرقي إذ يمر في دمشق وتدمر ثم ينعكف إلى بابل ؛ ومتوسط ، ويبدأ في دمشق فيعبر أواسط سورية على طول نهر العاصي ماراً غربي شيزر حيث يعبر « مخاضتها » متجهاً شمالاً إلى أن يصل البحر الأبيض المتوسط بطريق البوابات السورية في اللواء السوري ؛ لواء اسكندرون ، اللواء الخصيب السليب (٢) .

لقد أحسن الأقدمون إنتقاء موقع شيزربالقرب من هذا الطريق الستراتيجي وبناء قلعتها على أكمة منيعة حصنتها الطبيعة بمرتفعات صخرية عالية صعبة التسلق ؛ تشرف من الغرب على سهل فسيح خصيب يترامى على ضفاف العاصي ؛ وفي الشرق تنحدر جوانبها نحو وهدة سحيقة يجري فيها العاصي (صورة ١) ، الذي ينعطف غرباً عند أقصاها من الشمال لينحدر في مجرى قليل العمق ، حيث يشكل بذلك « مخاضة » رقيقة المياه يسهل عبورها سيراً على الأقدام (صورة ٢ ، ٣). وفي الماضي الغابر عبرت أرباض هذه المخاضة جيوش الفراعنة كأمنحوتب الثاني ورعمسيس الثاني ، وجيوش

تغلات فلصر الثالث الآشوري مع بني إسرائيل أثناء سبيهم . وجيوش الفتح العربي بقيادة أبي عبيدة بن الجراح ، وجيوش الأباطرة البيزنطيين كنقفور وباسيل ويوحنا كومنينس ؛ وجيوش الصليبيين . كما خاضها إمرؤ القيس الشاعر الكندي مع صحبه جابر بن حُنيّ وعمرو ابن قميئة في طريقه إلى القسطنطينية لطلب النجدة ليثأر لمقتل أبيه . وفي الجنوب فُصلت الأكمة عما جاورها من مرتفعات وسهول بخندق عريض وعميق حُفر في عهد مجهول لتحصين القلعة وتعزيز دفاعها (صورة ٤) . ويُروى أنه في وقت الحصار كانت المياه تتدفق من هذا الخندق وذلك بعد إغلاق نوافذ سد كان قد أقيم في مجرى العاصي في نهاية الوهدة من الشمال . ولعلّ أن يكون هذا السد هو سكر الحرطلة (صورة ٥) الذي نوّه عنه أبو الفداء (٣) . وحتّى إذا ماطغت المياه على السهل المقعر والمحاذي لسفح الأكمة من الغرب (صورة ٦) ؛ أصبحت شيزر أشبه بجزيرة منعزلة ؛ محاطة بالمياه من جميع جهاتها ، مما عسّر على العدو حصارها والإقتراب منها (٤) .

• • •



(صورة ٤) الخندق ، ويقع جنوبي القلعة ، وهو من عمل الإنسان وقد حفر لتعزيز الدفاع عن شيزر .



(صورة ٥) منظر أخذ من مدخل قلعة شيزر من الشمال . وفي الأسفل يرى بقايا سد قد تكون ماتبقى من السد القديم !



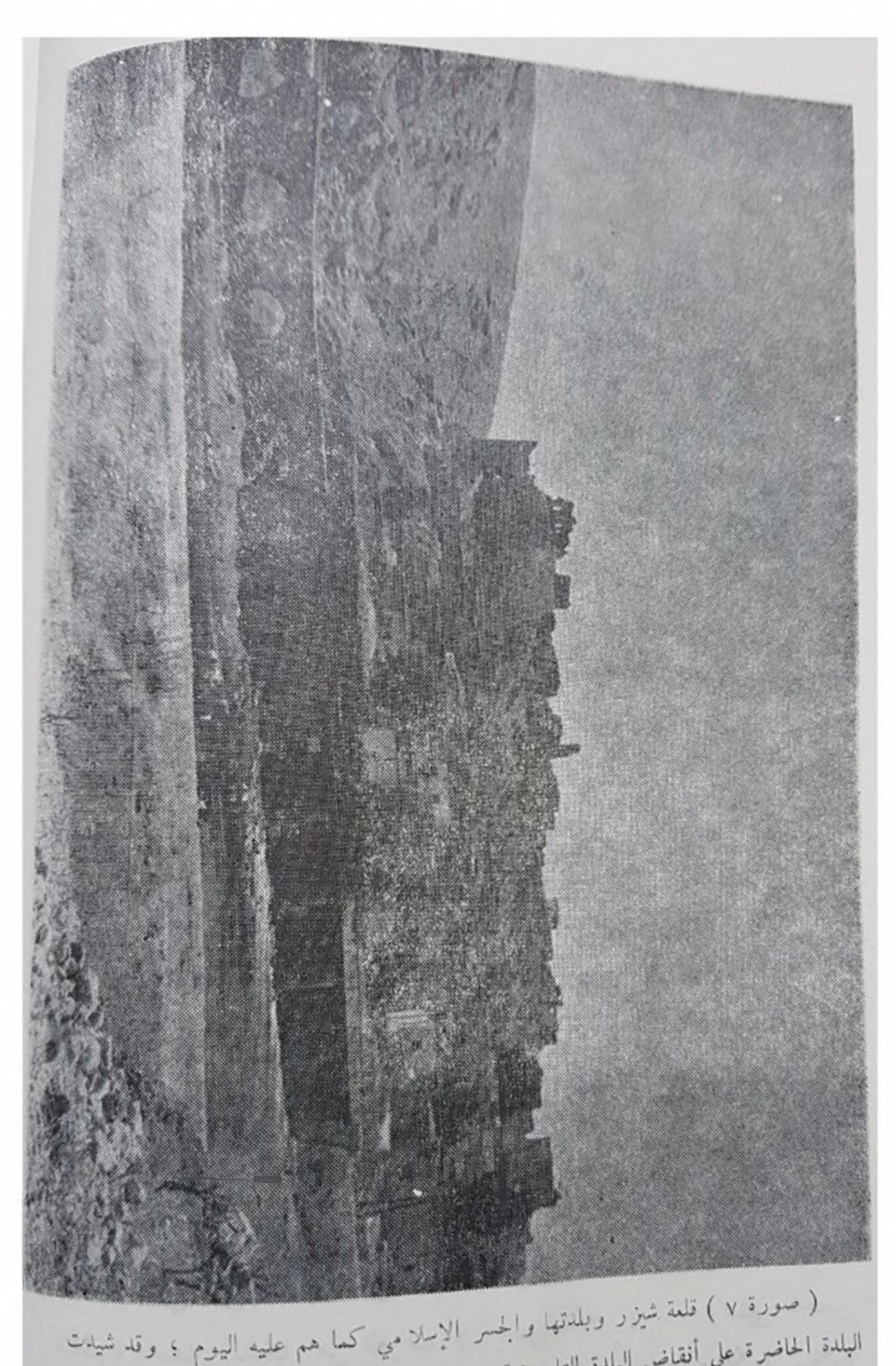
(صورة ٦) - السهل المقعر المحاذي لسفح القلعة من الغرب ويجتازه الطريق الدولي . وكان إذا غمرته المياه يجعل العمليات الحربية ضد شيزر متعذرة .

وصف شيزر

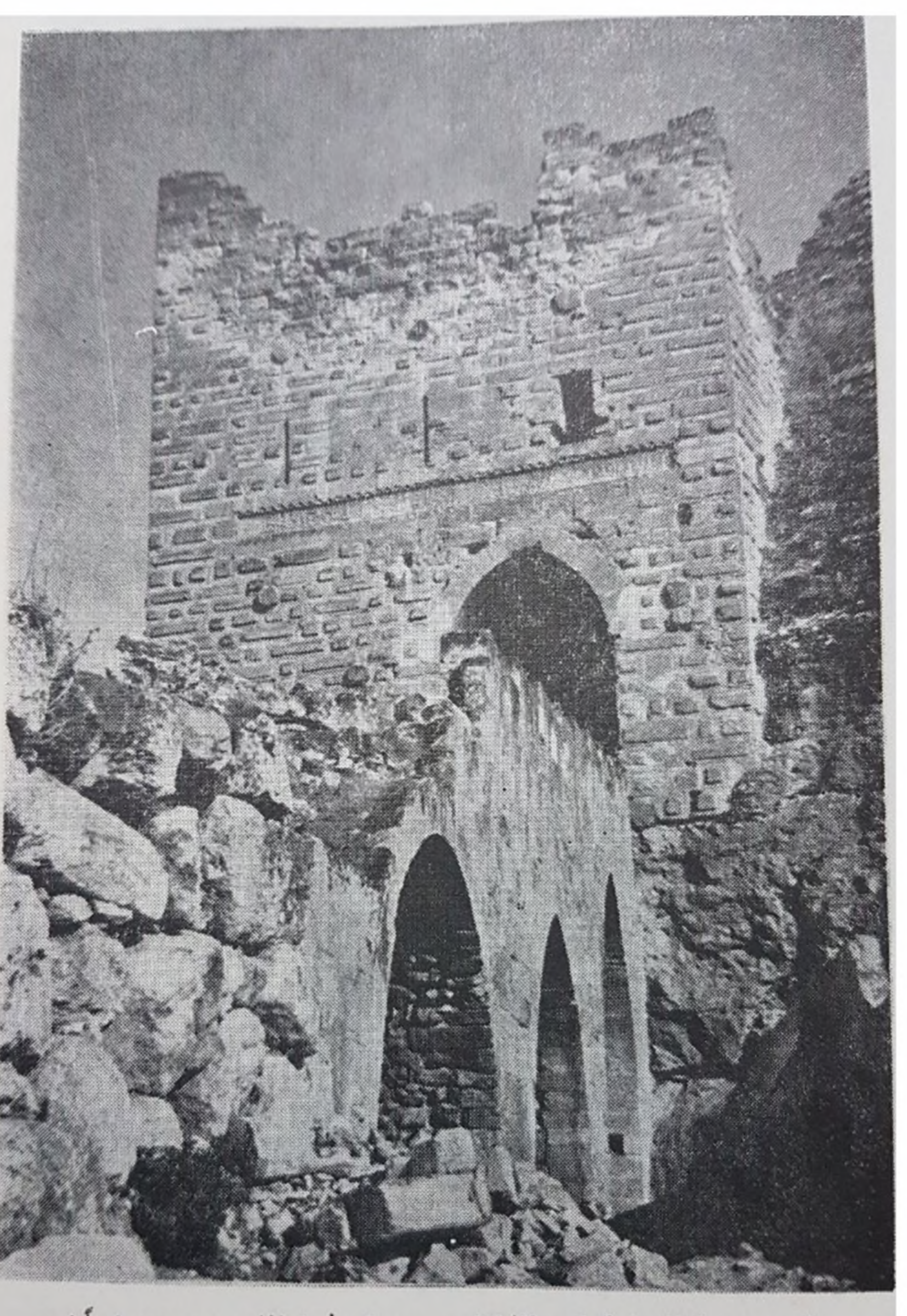
كانت شيزر في سابق عهدها كغيرها من الحواضر المأهولة ، لها بلدة يقطنها العامة من الناس وقلعة حصينة يسكنها الأمراء وخاصتهم ونفر من الجند .

فالبلدة كانت في أسفل القلعة من الغرب وكان يحيط بها سور ذو أبواب ثلاث .وكانت تشرف على منتزهات وبساتين ترويها نواعير أُقيمت على ضفاف العاصي .ولكن عوادي الزمان عفت رسوم هذه البلدة فلم يبق منها إلا قواعد بعض الجدران التي بُني على أنقاضها قرية شيزر الحالية (صورة ٧) .

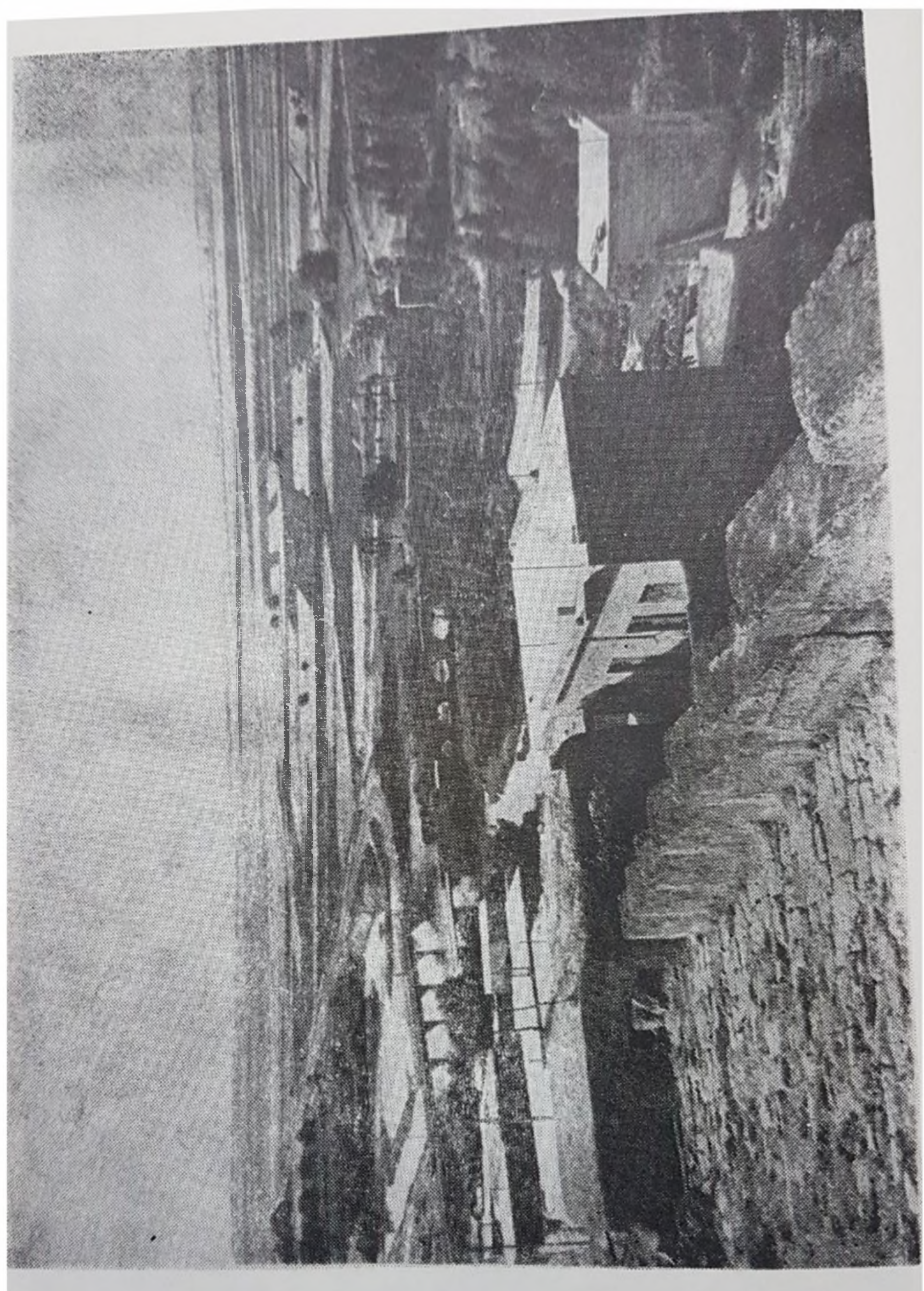
وأما القلعة التي كانت تربض شامخة البنيان فوق أكمتها العالية ، هي الآن خراب في الجملة لم يتبق منها سالماً سوى بعض الأبراج وأجزاء من سورها الذي كان يتخذ شكلاً مستطيلاً يترامى من الشمال إلى الجنوب بطول يبلغ ٤٢٥ متراً وعرض يقرب من ٥٠ متراً . وللقلعة مدخل يتجه نحو الغرب ولا يزال قائماً في شمالها مع جسر حجري بُني على طبقتين من القناطر فوق واد ضيق وعميق يلتصق مباشرة بأسفل المدخل من الغرب (صورة ٨) وممشى الجسر هذا صُمم بشكل مدرج أحيط جانباه بجدارين منخفضين لأجل سلامة



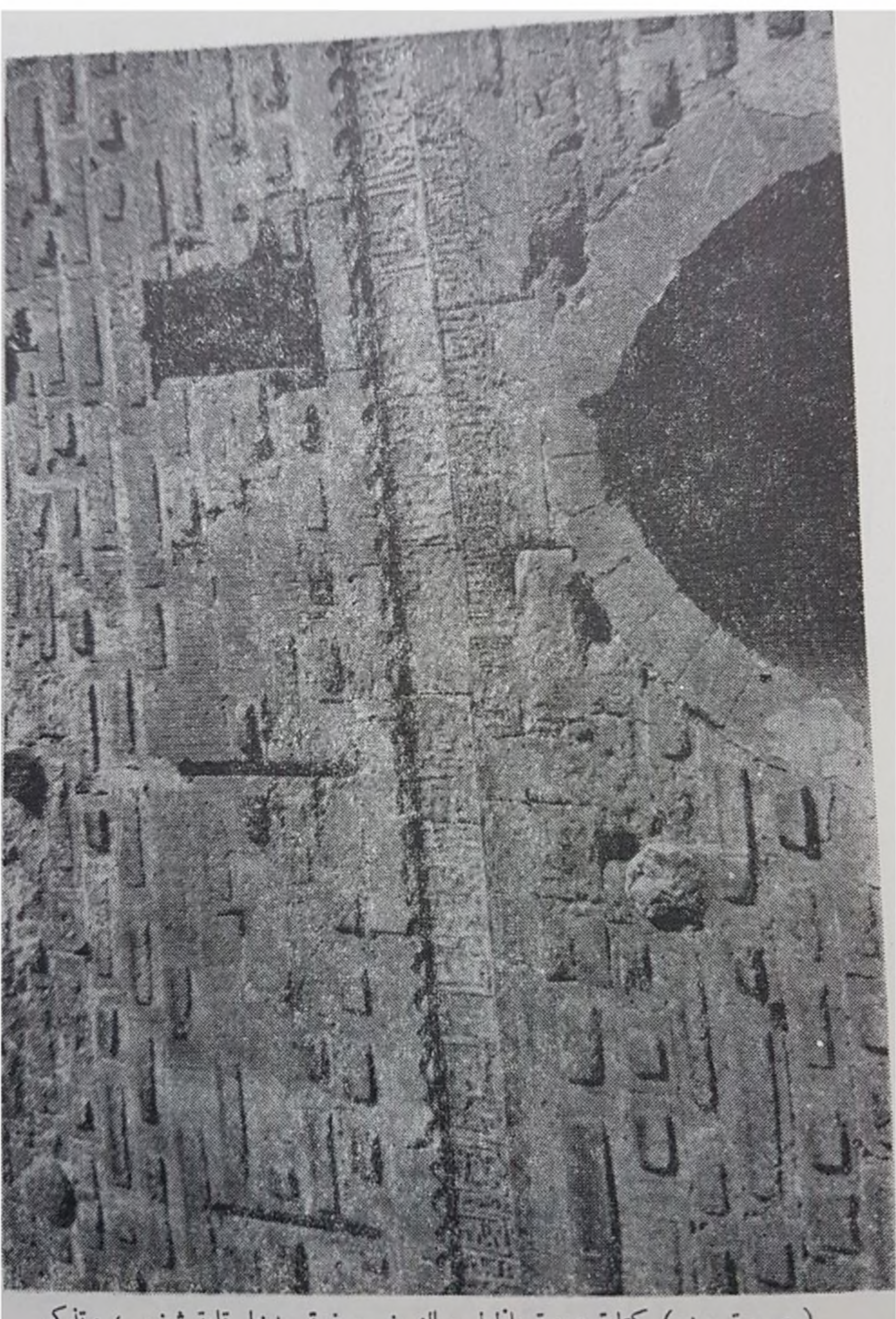
(صورة ٧) قلعة شيزر وبلدتها والجسر الإسلامي كما هم عليه اليوم ؛ وقد شيدت
البلدة الحاضرة على أنقاض البلدة التاريخية ، وهي تقع بسفح أكمة القلعة من الغرب .
وبالقرب من الجسر تظهر بقايا الطاحونة القديمة التي وجد على بابها حجر ذكر عليه
اسم الصقلبية .



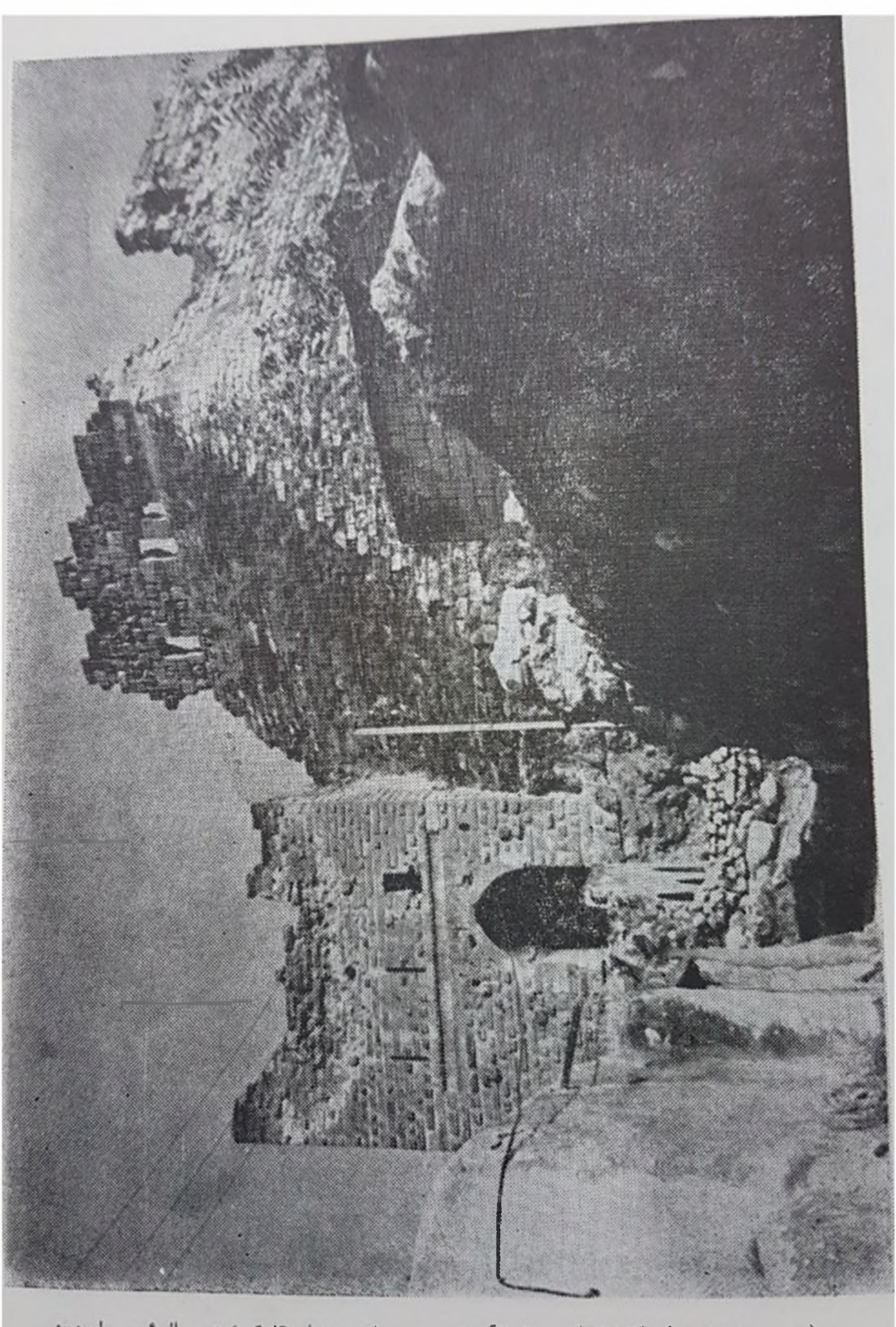
(صورة ٨) المدخل الرئيسي لقلعة شيزر ، ويقع في شمالها ، وهو يتجه غرباً نحو الجسر الذي شيد فوق قناطر حجرية معقودة .



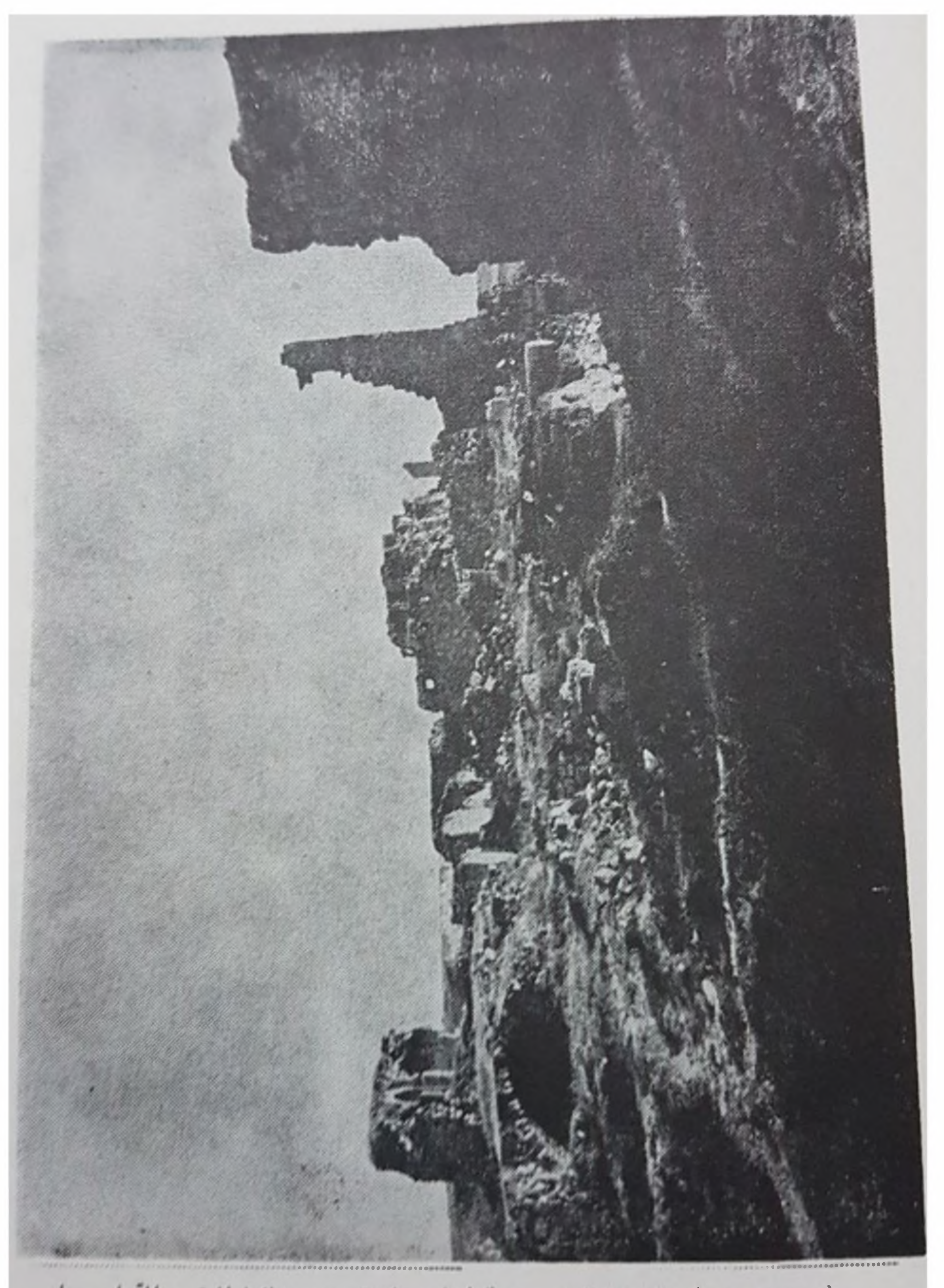
(صورة ٩) ممشى الجسر وإحدى جانبيه الحجرية من الشمال . وفي الأسفل يبدو الجسر الإسلامي وغربيه الجسر الحديث الذي بني في السبعينات الميلادية . ويبدو ماراً تحت الجسور نهر العاصي الذي يجتاز سهولا كثيرة الخصوبة .



(صورة ١٠) كتابة عربية بالخط « النسخي » فوق مدخل قلعة شيزر ، وتذكر باسم الملك المنصور قلاوون ، وتشير إلى بناء ربما كان لترميم بسيط أجرى في القلعة .



(صورة ١١) القلعة الهرمية التي تشرف على مدخل قلعة شيزر الرئيسي لتعزيز الدفاع عنه ودفع النقابين .



(صورة ١٢) فناء قلعة شيزر من الداخل وما تبقى من بنيانها المعقود المتراص على جانبي الطريق الضيق الذي يجتازها من الشمال إلى أقصى الجنوب .

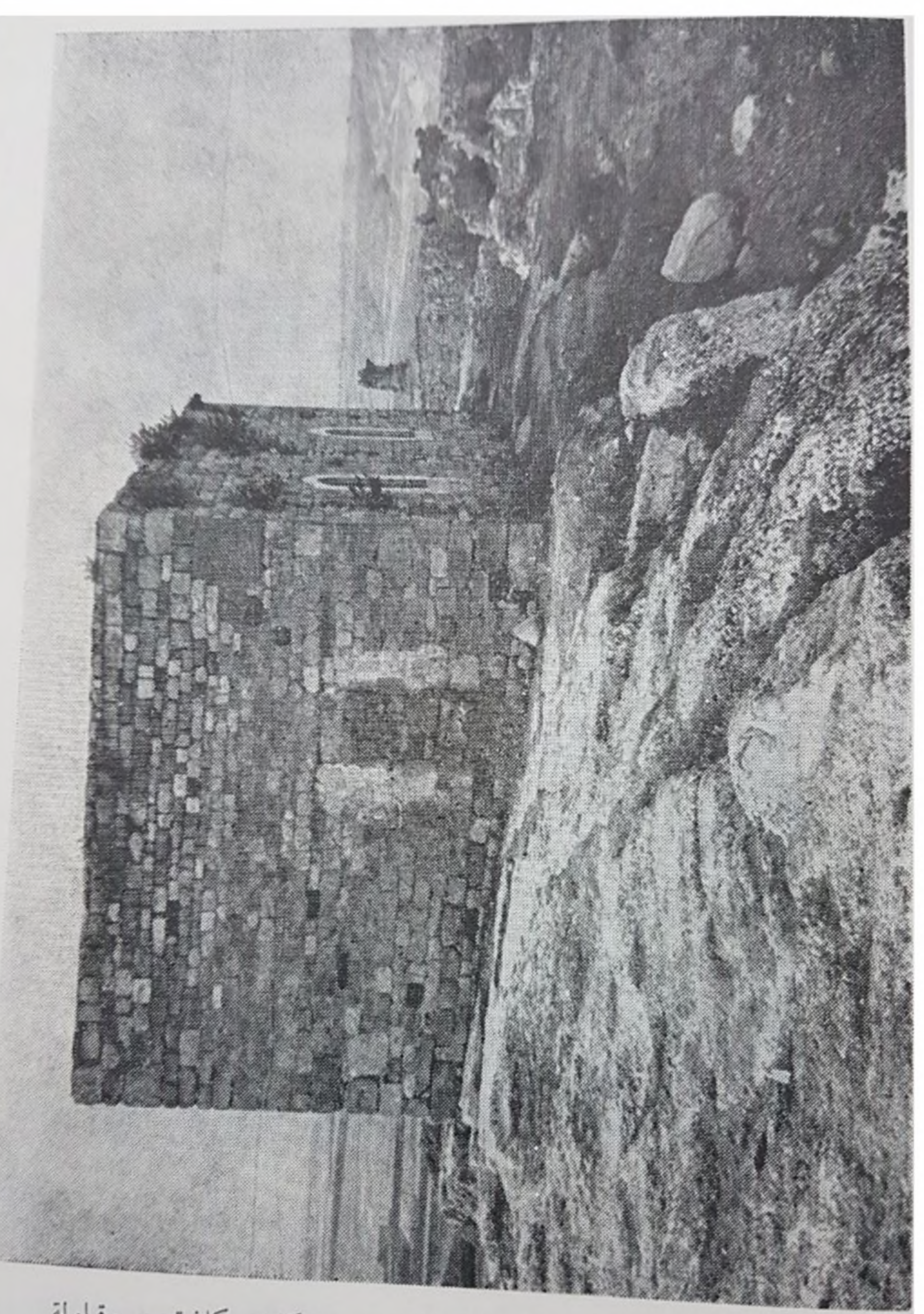


(صورة ١٣) القناطر المعقودة المستعملة في معظم بناء قلعة شيزر . (في الصورة من اليمين إلى اليسار : سعيد الحج طاهر ، مروان عزيز (الكاتب) ، عزيز النايف ، وحمدان رزوق . أخذت هذه الصورة أثناء زيارة لأرباض قلعة شيزر في تموز سنة ١٩٧٨ .

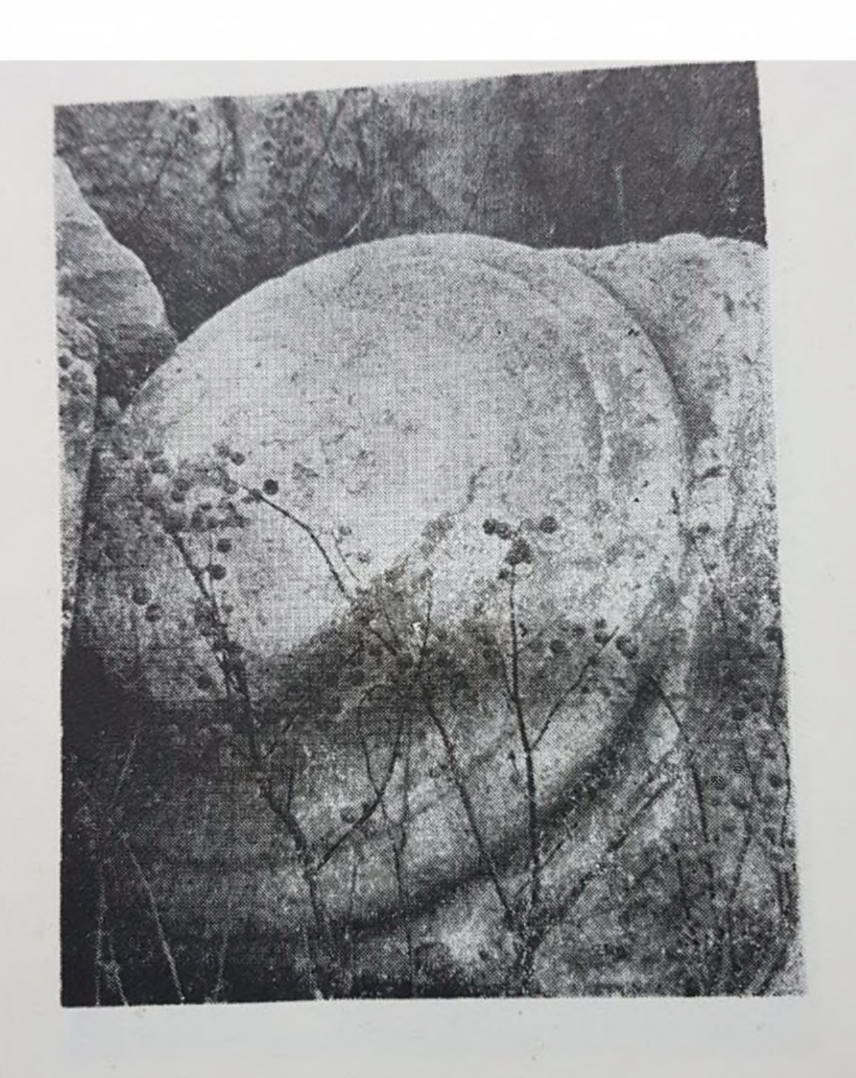
المارة (صورة ٩) ولهذا كان هذا الجسر في العصور الوسطى نقالاً مصنوعاً من الخشب يرفع عند اللزوم لمنع الوصول إلى باب القلعة(٤) . والمدخل مبني في داخل باشورة مربعة . وفوق قوسه المنكسر زبرت كتابة عربية تذكر اسم الملك المنصور قلاوون الصالحي (٤) (صورة ١٠) . وعلى يمين الباشورة تنتصب قلة هرمية تلتصق بالمدخل من الجنوب وتشرف على واجهته من الغرب (صورة ١١) . وقد صمم بناؤها على هذا الشكل كي يتمكن المدافعون دفع شر الرماة والنقابين (٤) . وفي الداخل تتصل هذه القلة بفسحة المدخل التي تؤدي إلى طريق ضيق تراصت على جانبيه أقبية متنطرة (صورة ١٢ ، ١٣) بينها آبار عميقة (صورة ١٤) وسراديب معقودة متداعية كانت تؤدي من القلعة إلى العاصي . وبين بيوت القلعة هنالك ساحة صخرية لاشك أنها كانت مكان تجمع وقيلولة للسكان (صورة ١٥) . كما يوجد بين الحجارة المبعثرة بقايا أعمدة كورنثية ونقوش تعود للعصر اليوناني أو البيزنطي (صورة ١٦) . وربما إذا أجريت حفريات بناءة وعلمية في الأقبية السفلى قد يُحتمل أنها ستكشف النقاب عن فجر تاريخ القلعة وأوائل الشعوب الغابرة التي وضعت حجارة الركن فيها . وفي أقصى القلعة من الجنوب وعلى حافة الخندق هنالك برج لاتزال أكثر أجزائه متكاملة ويدعى بقصر البرديل (صورة ١٧) . ولا يُعلم من هو هذا البردويل ؛ ولكن قد يجوز أن هذه التسمية أتت نتيجة الإشارة في حديث العامة من الناس إلى نزول بلدوين الثاني الصليبي ملك القدس في ذاك القصر . والذي كان العرب يلفظون مثل اسمه بالبردويل (١) . وعند قدوم بلدوين إلى شيزر سنة ١١٢٤م وإقامته بها ، بالغ أميرها سلطان بن منقذ في الحفاوة والإكرام .



(صورة ١٤) إحدى الآبار في داخل قلعة شيزر ، وربما كان يستعمل كصهريج لجمع المياه .

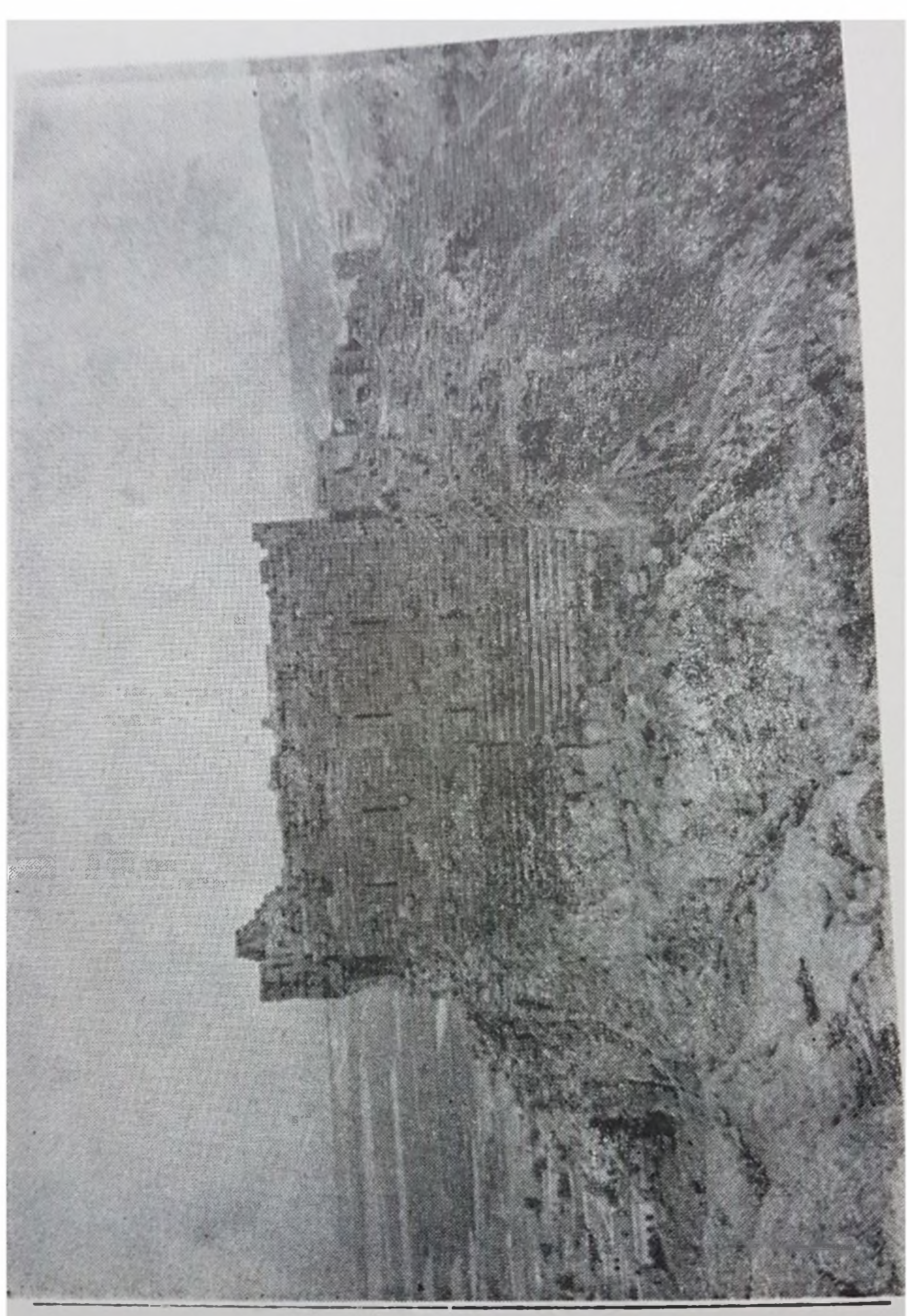


(صورة ١٥) الساحة الصخرية داخل القلعة ، ربما كانت مكان تجمع وقيلولة للسكان . والبيت الظاهر ، إنما هو بناء حديث كما يبدو من نمط بنائه ومختلف الحجارة المستعملة فيه .

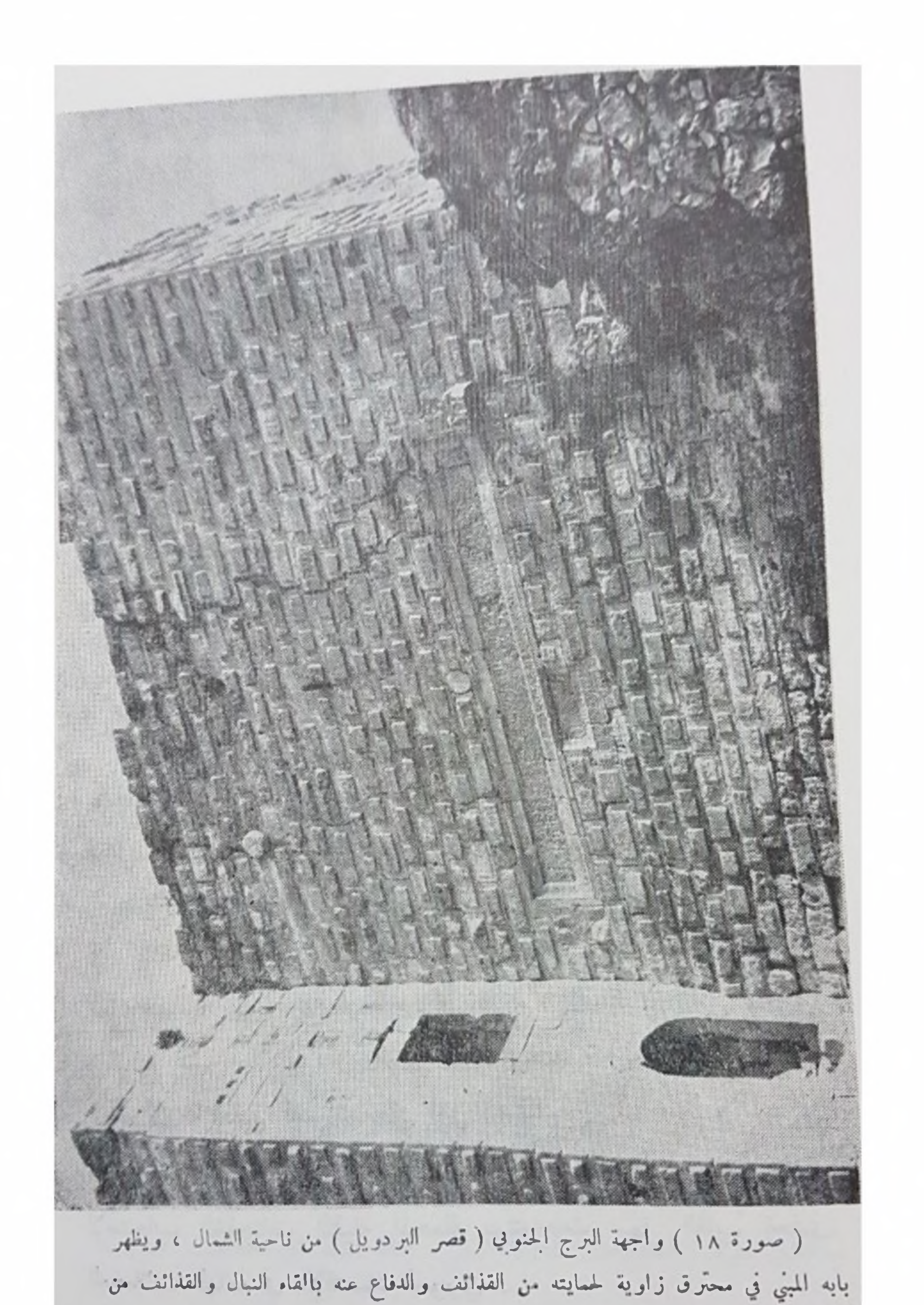


(صورة ١٦) قواعد وتيجان أعمدة كورونثية داخل قلعة شيزر ، وتعود للعهد البيزنطي أعيد استعمالها في القلعة .





(صورة ١٧) البرج الجنوبي (قصر البردويل) ويقع على حافة الخندق الاصطناعي الواقع في جنوب قلعة شيزر .



(صورة ١٨) واجهة البرج الجنوبي (قصر البردويل) من ناحية الشمال ، ويظهر بابه المبني في محترق زاوية لحمايته من القذائف والدفاع عنه بالقاء النبال والقذائف من الطابق الأعلى . ويظهر على الجدار كتابة عربية بالخط النسخي تذكر اسم الملك العزيز محمد صاحب حلب عندما فتح شيزر سنة ١٢٣٥ م .

رداً على فضل بلدوين لإعفائه شيزر من جزية كانت تؤديها لصاحب أنطاكية من قبل خمس سنوات . وكان بلدوين قد أتى شيزر تحت الأمان لاستلام الرهائن ومنها صغرى بناته التي كانت جزءاً من فدية باهظة أشترطت مقابل إخلائه من الأسر في قلعة حران . وقصر البردويل هذا مؤلف من طابقين أشيدا فوق أقبية معقودة كانت تستعمل كصهاريج مياه أو مخازن مؤن (٤) . وأما مدخله فقد بُني في منحرف زاوية لحمايته من القذائف والنبال وفي الوقت ذاته لتمكين الدفاع عنه بالقاء القذائف من الطابق الأعلى (٤) (صورة ١٨) . والمدخل يرتفع عن مستوى الطريق بدرج يؤدي إلى الطابق الأول الذي يتألف من غرفتين كبيرتين تتصلان مع الطابق العلوي بدرج آخر . وعلى جدار القصر من الخارج من ناحية الشمال زُبرت كتابة عربية باسم الملك العزيز محمد صاحب حلب سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٢ م) (٤) .

وبالقرب من شيزر وفوق مخاضتها هنالك جسر قديم ذو قناطر عديدة رُمِّمَ مراراً في الماضي ، كما بُني قسمه الجنوبي سنة ١٩٣٠ م. وعلى حافة الجسر من الغرب طاحونة هُدِّمت أثناء إحدى فيضانات العاصي الشتوية في أواخر الأربعينات ويذكر أحمد وصفي زكريا في كتابه جولة أثرية (٤) أنه كان على يمين باب الطاحونة حجرة ضائع نصفها زبر عليها مرسوم بالعربية يعود إلى القرن الثامن هجري (الرابع عشر ميلادي) (عصر المماليك) فُهم منه بعد الجهد مايلي : « أنه لإزالة بعض الضرائب عن أهل الصقيلبيه . . . » . وفي غربي هذا الجسر القديم أُكمل مجدداً بين ١٩٧٤ – ١٩٧٥ م جسرٌ جديدٌ لإستيعاب الشاحنات الثقيلة المحملة بمنتوجات سهل الغاب إحدى العضلات الهامة في الإقتصاد السوري .

شيزر خلال العصور

كي يتسنى تقدمة متسلسل للأحداث التاريخية التي شهدتها شيزر ، وإبداء الأدلة الشاهدة على أهميتها الغابرة ، كان لابد من النظر إلى هذه الأحداث خلال الأدوار السياسية التي مرّت بها سورية عبر التاريخ وتلخص هذه الأدوار كما يلي :

١ — الدور السامي . بدأ بالعموريين حوالي سنة ٢٥٠٠ ق . م وانتهى بسقوط الإمبراطورية البابلية الجديدة أو (الكلدانية) سنة ٥٣٨ ق . م حيث تبعتها سيادة الفُرْس .

٢ — العصر اليوناني — الروماني — البيزنطي بدأ بفتوحات الإسكندر المكدوني سنة ٣٣٣ ق . م . وانتهى بالفتوحات العربية الإسلامية سنة ٦٣٣ — ٦٤٠ م .

٣ — العصر العربي الإسلامي وقد استمر حتى الإستيلاء العثماني سنة ١٥١٦ م .

٤ — الدور العثماني . وقد انتهى بنهاية الحرب العظمى سنة ١٩١٨ م . (٢) .

شيزر في الدور السامي

بغية إستيعاب وتفهم أحداث هذه الفترة ، وجب عرضها ضمن فترات نفوذ الجماعات المختلفة التي استقطنت أو حكمت سورية

وخاصة الشعوب السامية منها . وذلك لما كان لهذه الشعوب من الأثر في تركيب النسيج العرقي واللهج اللغوي والتراث الحضاري في المجتمع السوري .

وتيمناً بالعرف ، فالأسطورة تنسب الساميين إلى سام الإبن الأكبر لنوح . ويعتقد ان أفراد هذه الجماعة كانوا قد انطلقوا من الجزيرة العربية باتجاه الهلال الخصيب في هجرات متفرقة تباعدت إحداها عن الأخرى بألف عام .

الأكاديون

في حوالي سنة ٣٥٠٠ ق . م قامت أولى هذه الهجرات السامية ، وهي هجرة الأكاديين ؛ الذين عُرفوا فيما بعد بالبابليين ، فوزعت أفرادها بين السومريين .

والسومريون هم شعب غير سامي أبدع حضارة وادي الفرات التي أصبحت جزءاً من تراث سورية وذلك بواسطة البابليين والآشوريين . فقصص بلاد الرافدين المتعلقة بآلهتهم ، ومنها قصة الخليقة والطوفان دخلت في آداب الديانتين اليهودية والمسيحية . كما استعارت سورية عدداً من الكلمات السومرية والأكادية ، ومنها : هيكل وسمسم . ونجار ولوح (٢) . عرَف السومريون المركبات الحربية واستخدموها في القتال إلى جانب التنظيم العسكري بشكل كتائب . ففي عهد لوكال زاكيزي وصلو جيوشهم غرباً عبر سورية إلى البحر الأبيض المتوسط(٢)

كان الوجود الأكادي في سومر يقوى مع الزمن ؛ فبرز إلى حيّز الوجود سنة ٢٣٦٠ ق . م ؛ ثم وصل أوجه حوالي سنة ٢٢٥٠ ق . م في عهد سرغون ، الذي سار جنوباً من عاصمته أكاد فاجتاح

سومر وعزل لوكال زاكيزي حاكم أرك . ثم تابع فتوحاته فاستولى على سورية وشواطئها (٢) . استمر النفوذ الأكادي في سورية في عهد نارام سين حفيد سرغون . الذي بعد أن قهر العيلاميين في شرقي الدجلة عبر الفرات إلى سورية فتغلب على « إبلا » وبعدها تابع توغله في سورية إلى أن وصل حدودها الشمالية في جبال طوروس(٢)

وإبلا هذه كان قد ورد ذكرها بصورة غامضة في الحولايات الآشورية والأكادية (٣) . ولكن حفريات تل مرديخ الواقع (٦٠ كم) جنوبي مدينة حلب كشفت النقاب عن حضارة هامة تعود إلى أوائل الألف الثالث قبل الميلاد . فالرقم المكتشفة سنة ١٩٦٨ م والمدونة بالأحرف المسمارية ، تشير إلى أن تل مرديخ كان موقع مدينة إبلا التي كانت حاضرة مملكة لهج أهلها باللغة الكنعانية القديمة التي عاصرت الأكادية واختلفت عن العمورية وسبقت كل من العبرية والفينيقية بألف عام . وتشير الرقم إلى قوة إبلا السياسية والعسكرية وتوسعها التجاري وإلى امتداد نفوذها في شمالي سورية وبلاد مابين النهرين وآسيا الصغرى وتغلبها على مدينة ماري في الألف الثالث قبل الميلاد . إن القوة السورية الإبلاوية عاصرت وتحدت القوة الأكادية في عهد سرغون ، واستمر الأمر كذلك إلى أن دمّرها نارام سين في الربع الأخير من الألف الثالث قبل الميلاد (٤ ، ٥) ومن المحتمل بعد دراسة المزيد من الرقم المكتشفة في تل مرديخ ، أن توضح علاقة إبلا مع حواضر أواسط سورية ربما بما فيها شيزر فيما إذا كان لها من وجود وكيان في الألف الثالث قبل الميلاد .

انتهت الفترة الأكادية القديمة (السرغونية) سنة ٢١٨٠ ق . م في عهد شارغاليشاري بن نارام سين ، وذلك بعد ١٨٠ عاماً من

وقد أتى هذا الإنهيار على يد الكاشيين نشوئها سنة ٢٣٦٠ ق . م
الذين هبطوا على آكاد من جبال زغروس شمال شرقي الدجلة الأعلى (٢).
استمرت السيطرة الكاشية على آكاد وسومر إلى سنة ٢٠٧٠ ق . م
حيث بدأ البعث السومري (Noo – Summeium) على يد غوديا
حاكم لاغاش ، ثم أورنامو الذي أسس سلالة أور الثالثة وذلك بتسمية
نفسه ملك سومر وآكاد ولكن في سنة ١٩٦٠ ق . م إنهالت المصائب
على السومريين ، إذ هاجمهم العيلاميون من الشرق وأخذوا مَلِكَهُم
أبي سين أسيراً ، كما هاجمهم العموريون من الغرب ، وقد كان
من قادتهم نابلانوم وإشبي عيرا صاحب مدينة ماري الواقعة في
شرقي سوريا غربي الفرات (٢) .

العموريون

وهم من الشعوب السامية التي انطلقت من الجزيرة العربية حوالي
٢٥٠٠ ق . م ، وذلك بعد هجرة الأكاديين بنحو ألف عام حيث
وزعوا أنفسهم في شمالي سورية . وقد شملت هذه الهجرة أيضاً
الكنعانيين ، وهم جماعة سامية احتلوا السهل الساحلي فيما بعد
ولعبوا دوراً هاماً في تاريخ سورية (٢) . وبين أن الإعتقاد السائد
هو أن العموريين كانوا أول شعب سامي بحث عن موطن له في
البلاد السورية ، حيث تظهر الإشارة إليهم في عهد سرغون حوالي
سنة ٢٢٥٠ ق . م (٢) ، قد يجوز أن رقم إبلا ، بعد دراستها ستضفي
معلومات تاريخية هامة على تاريخ سوريا . ومن الجائز أن تُظهر
الإبلاويين ، الذي يحتمل أنهم كانوا كنعانيين ، كانوا قد سبقوا
العموريين بانشاء دولة في شمالي سوريا ، ذات سيادة تحدت يومئذ

الأكاديين إبان سطوتهم في الفترة الأكادية . السرغونية القديمة في الألف الثالث قبل الميلاد كما تقدم سابقاً .

أخذ العموريون . بعد دخولهم شمالي سورية يظهرون بالتاريخ في سورية الوسطى ولبنان وحتى فلسطين . يتجولون وراء قطعانهم كبدو رحل . وآنذاك أصبحت سورية سامية لأول مرة . باستثناء بعض المناطق التي سكنها الحوريون وآخرون غير ساميين . والحوريون أقوام أتوا سورية من المرتفعات الواقعة شمال شرقي الهلال الخصيب . وفي خلال القرن العشرين قبل الميلاد وطد الغزاة العموريون أنفسهم فوق مجتمع سابق متمدن في شمال شرقي سورية واتخذوا عاصمة لهم مدينة ماري . التي كانت قبل أن يجتاحها سرغون الأكادي قاعدة لإحدى السلالات السومرية (٢) لم يقتصر العموريون على تأسيس دولة في منطقة الفرات الأوسط واجتياح سورية بل إنهم اجتاحوا بلاد مابين الرافدين وحكموها . وكان من بين القادة الذين هاجموا سومر نابلانوم واشبي عيرا صاحب مدينة ماري كما تقدم (٢) . أسس العموريون بين سنة ٢١٠٠ و ١٨٠٠ ق . م عدة سلالات حاكمة في بلاد الرافدين من آشور في الشمال إلى لارسا في الجنوب (٢) .

ففي سنة ١٨٣٠ ق . م قام رجل يحمل إسماً عمورياً يدعى سومو آبو بتأسيس مملكة صغيرة في آكاد جعل عاصمتها مدينة باب إيلو أو بابل . وبهذا بدأت الفترة البابلية القديمة التي استمرت حتى سنة ١٥٥٠ ق . م بلغت هذه الفترة عصرها الذهبي في عهد حمورابي (١٧٢٨ ـ ١٦٨٦ ق . م) ، الملك السادس للسلالة البابلية القديمة

الأولى (٢ . ٢) . قام حمورابي بتوسيع ممتلكاته ، فاحتل ماتبقى
من آكاد ثم تقدم نحو سومر ، إذ كان العلاميون قد أسسوا سلالة
حاكمة في لارسا وكان يحكمها آن ذاك ريم سن . الذي اندحر
مع حلفائه أمام عبقرية حمورابي العسكرية (٢) . اتجه حمورابي
شمالاً في بلاد الرافدين فتغلب على الآشوريين في عهد شمشي عاداد
الأول (٢) . والآشوريون هم من الشعوب السامية التي استقطنت
الزاوية الشمالية الشرقية من بلاد الهلال الخصيب . وكان من أهم
مدنهم : آشور وآربيلا ونينوى . وحتى سنة ١٣٠٠ ق . م
كانت بلادهم في عهود مختلفة تحت سيطرة السومريين ، والأكاديين .
والعيلاميين والعموريين (٨) . وبعد بسط نفوذه على بلاد مابين
الرافدين ، عبر حمورابي الفرات في سنة الاثنتين والثلاثين من حكمه
فهاجم مدينة ماري ، وكان ملكها زمري ليم وهو عموري أيضاً ،
فقهرها وهدمها جزئياً ، ثم أعاد الكرة عليها ثانية بعد بضع سنين
فخربها كلياً (٢ ، ٢ ، ٦) .

أدى تدمير مدينة ماري على يد حمورابي إلى القضاء عليها وإدخالها في عالم النسيان، إذ بقيت نسيه منسية حتى مطلع هذا القرن إلى أن أجريت الحفريات في سنة ١٩٣٣ م من قبل متحف اللوفر في تل الحريري الواقع غربي الفرات على مسافة ١٠ كم شمالي أبو كمال واتضح من الآثار المكتشفة أن هذا التل هو ركام مدينة ماري (٢ ،٢) وتشير الألواح المكتشفة هنالك في قصر زمري ليم إلى أن المركبات التي تجرها الخيل كانت معروفة في العصور القديمة ، كما أن الإشارات النارية كانت تستعمل آنذاك كتدبير دفاعي أو كوسيلة سريعة لنقل

الأنباء . والحضارة العمورية كما تعكسها اللغة التي كتبوها . كانت مزيجاً من عناصر عمورية وحورية وبابلية . وفي هذه الألواح تبدو حلبو (حلب) كعاصمة يمخاض وكان ملكها يريم ليم وهو اسم عموري (٢ ، ٧) . وجبلة (جبيل) . وقطنة (المشرفة) وحرانو (حران) كمراكز سلالات عمورية أو تحكم من قبل أمراء عموريين (٢) . وفي الفترة التي تلت حمورابي مباشرة . رأت سوريا غزاة جدداً أتوها من الشمال وهم الحثيون (٩) .

الحثيون : وهم أقوام غير سامية ولا من الهنود الأوربيين وكانوا يقطنون في الشمال الشرقي من آسيا الصغرى في سهول كبودوكية المرتفعة حول نهرها ليس الذي يصب في البحر الأسود . ولغتهم دخيلة تبنوها من أقوام غزاة من الهنود الأوربيين . وفي بدء نشأتهم كانت بلادهم تنقسم إلى إمارات متعددة أخضعها أنيتاس ملك كوسارا ووضعها تحت سيطرته . والملوك الذين تلوا أنيتاس كانوا يرغبون الاقتران مع أحد ملوكهم القدماء لاباى‌ناس (لبرناش) وليس مع انيتاس الذي كان قد هدم حاتوساس (بوغازكوي اليوم) التي أصبحت فيما بعد عاصمة ملكهم . ولهذا يبدأ تاريخ الحثيين السياسي بـ لبرناش ، الذي يعتبر مؤسس المملكة القديمة التي ابتدأت جذورها سنة ١٧٤٠ ق . م في عهد تودهالياس الأول واستمرت إلى سنة ١٤٦٠ ق . م إذ بدأت فترة الإمبراطورية في عهد مؤسسها تودهالياس الثاني . خلف لبرناش الأول ابنه لبرناش الثاني الذي نقل عاصمة ملكه من كوسارا إلى حاتوساس (حاتوشاه) ثم تبنى اسم خاتوسيليس (حاتوسيل) الأول الذي حكم بين سنة

١٦٥٠ ١٦٢٠ ق . م (٩) قاد حاتوسيل جيوشه مجتازاً ممرات طوروس إلى سورية فاستولى على الالاخ (تل العطشانة) ثم اتجه إلى حلب عاصمة مملكة يمحاض فدُحر منهزماً تلاحقه الجيوش السورية إلى أن دخل الأناضول (٥) . ولكن في عهد مورسيليس (مورسيل) الأول (١٦٢٠ ـ ١٥٩٠ ق . م) عاد الحثيون ثانية إلى حلب ففتحوها عنوة وهدموها انتقاماً لدم حاتوسيل وسبوا أهلها وأموالها وحملوهم إلى عاصمتهم حاتوشاه (٥ ، ١٥) . وبعد الاستيلاء على شمالي سورية عبر مورسيل الفرات فهاجم مملكة بابل العمورية فاستولى على عاصمتها وهدمها وقضى على آخر ملوك السلالة الأولى للمملكة البابلية القديمة وبعد تخريب البلاد ونهبها وسبيها غادرها تاركاً إياها فريسة للكاشيين . وهؤلاء من الشعوب الهندية الأوربية الذين انقضوا على بابل من جبال زغروس فأسسوا فيها سلالة حاكمة حكمتها لمدة خمسمائة سنة (٦ . ٩)

ولكن التوسع الحثي لم يستمر طويلاً وذلك بسبب مكائد القصر والتنازع على السلطة . فمورسيل بعد عودته من بابل أغتيل من قبل حانتيليس (حانتيل) الأول (١٥٩٠ ـ ١٥٦٠ ق . م) ، الذي رأت بلاده في عهده وعهد مجموعة من خلفائه الكثير من المصائب الخارجية . فالحوريون الذين كانوا يقطنون الجبال الواقعة حول بحيرة وان، هاجموهم من الشرق وأحرقوا بعض مدنهم . وفي الغرب فقدوا أرزاوا وفي الجنوب فقدوا كيزوواتنا وسورية . وقد استقرت الأحوال الداخلية والعلاقات الخارجية في عهد تلبينوس (١٥٢٥ - ١٥٠٠ ق . م) ، فقد أجبر الحوريين على التراجع شرقاً إلى حدود آمنة ، واعترف بفقدان البلدان المحتلة ، كما أقام معاهدة مع كيزوواتنا

(٩) ، التي كانت تقع في جنوب آسيا الصغرى شمالي لواء اسكندرون (١١) وخلال فترة الضعف الحثي هذه ظهرت قوة جديدة على المسرح السياسي يتزعمها الحوريون الذين احتلوا شمال سورية .

الحوريون : وهم شعب مجهول الأصل كان يقطن المرتفعات الواقعة شمال شرقي الهلال الخصيب بين بحرة أورمية وجبال زغروس وفي أواخر القرن الثامن عشر غزوا شمالي بلاد الرافدين وسكنوها ومنها اتجهوا إلى سورية الشمالية حيث أسسوا إحدى الممالك القوية في الشرق الأوسط وهي مملكة ميتاني (٢) . نجح الحوريون في تأسيس مملكتهم حوالي ١٥٠٠ ق . م التي بلغ من قوتها أن امتد حكمها من البحر المتوسط إلى مرتفعات ميديا وتضم بلاد آشور . وكانت عاصمتها واشوكاني ويظن أن موقعها هو الفخارية على الخابور شرقي تل حلف وحران . وكان المصريون يعرفون ميتاني باسم نهارين . ويبدو أن ميتاني هي نفس البلاد التي تشير إليها ألواح تل العمارنة باسم سوبارتو أو بلاد السوباريين . والسوباريون هم شعب آخر غير سامي كانوا غالباً بين سكان البلاد قبل وصول الحوريين . وكان الحوريون في ميتاني يشكلون أكثرية السكان (٢) .

ونتيجة لسيطرة الحوريين على شمالي سورية تحول مركز الثقل بها من شماليها إلى أواسطها وكان العموريون لايزالون يلعبون الدور الرئيسي .وفي هذه الفترة بدأت شيزر تظهر على المسرح السياسي الذي تصارع عليه المصريون والحثيون والميتانيون والكاشيون من أجل السيطرة على ماتبقى من سوريا .

ففي حوالي سنة ١٤٥٧ ق . م أتت السيطرة الحورية في سوريا إلى نهاية وذلك على يد فراعنة مصر .

الفراعنة : في غضون هذه الفترة كانت تحكم مصر الأسرة الثامنة عشرة التي طردت الهكسوس وأسست المملكة الحديثة .

ولابد من إعطاء لمحة عن الهكسوس في هذا المجال ، إذ أنهم حكموا أجزاء من سوريا بما فيها سوريا الوسطى (١٢) . وقد أتى حكمهم مباشرة في للفترة التي سبقت ظهور شيزر على المسرح السياسي . والهكسوس كانوا جماعة ميالة للحرب تفننت بصناعة الأسلحة منها السيف الحديدي المنحني ، كما تطوروا بفن التحصينات الدفاعية كبناء الأسوار المرتفعة ذات الجدار المنحدر . وتظهر آثار هذا الفن المعماري في قطنة (المشرفة) التي كانت على الغالب عاصمتهم ؛ وقادش (تل النبي مندو) ، وكركميش (٢) . فمن يدري فيما إذا لم تكن شيزر من صنعهم ! ! فلعلّ ثمة تنقيبات في المستقبل في الطبقات السفلى من التل الواقع غربي قلعة شيزر ، حيث يتوقع وجود بلدة شيزر القديمة ، قد تكشف لنا أسرار هذه البلدة في العهود التي سبقت عصر العمارنة حيث تظهر أول إشارة إليها .

كان الهكسوس بالأصل حشداً من البشر لاتسمية له ، أتى إلى مصر من منطقة شرقي البحر الأبيض المتوسط وقد أطلق هذا الاسم على هذه المجموعة في عصر متأخر وهو يعني الملوك الرعاة . وكانت حركة الهكسوس تضم ساميين وحوريين وحثيين وميتانيين . وكان تشكل هذه الحركة هو السبب في قدوم عدد كبير من الحثيين والحوريين وربما اليبوسيين والغرزيين ، وهم من غير الساميين ، جنوباً إلى فلسطين . والعنصر الرئيسي في حركة الهكسوس كان كنعانياً أو عمورياً كما يستدل من أسماء حكامهم الأولين (٢) .

تسلل الهكسوس إلى مصر بصورة تدريجية حيث ظهر أثرهم منذ سنة ١٩٠٠ ق . م في أواسط السلالة الثانية عشر . ولكنهم لم يستولوا على السلطة حتى سنة ١٧٣٠ ق . م خلال عهد السلالة الرابعة عشرة . وقد اتخذوا عاصمة لهم مدينة أفاريس في الدلتا ومنها بسطوا حكمهم في مصر الوسطى . وقد حكمت أول سلسلة من الملوك السوريين هنالك قبل السلالة الخامسة عشرة ، وكانت أسماؤهم كنعانية وعمورية . وكان ملوك السلالتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة من الهكسوس ، وأعظمهم سلطة في السلالة الخامسة عشرة هو خيان الذي نجح في توحيد سورية رمصر في امبراطورية واسعة (٢) . وقد استمر حكم الهكسوس في سورية ، بما فيها المنطقة الوسطى حيث تقع شيزر ، طيلة عهد السلالتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة (١٢) . ولقد استمر حكمهم حتى السلالة السابعة عشرة . إذ انتهى سنة ١٥٨٠ ق . م على يد أحمس أمير طيبة مؤسس السلالة الثامنة عشرة التي بدأت المملكة الحديثة (٢ ، ٦) ، والتي كان من ملوكها تحوتمس الثالث الذي افتتح شيزر في إحدى حملاته على سوريا . ولكي تكون شيزر بلدة يستحق ذكرها مع جملة المدن التي افتتحها امنحوتب لابد أنها كانت حاضرة عامرة ولها من الشأن مالم يكن وليد ساعته بل أتى خلال سنين طوال قد تعود إلى عهود ملوك يمخاض أو إبلا أو من عاصرهم أو سبقهم من الشعوب الأخرى التي استقطنت سورية أو أتتها فاتحة كما تقدم ذكره سابقاً .

بعد طرد الهكسوس من مصر ، بدأت السلالة الثامنة عشرة بالتوسع في آسيا لبناء امبراطورية . وفيما يلي شجرة هذه السلالة

(٦ ، ٢ ، ١٣)، التي نقدمها هنا وذلك لتكرار ذكر شيزر في عهد عدد من ملوكها :

١ ـ أحموس	١٥٧٥ ـ ١٥٥٠	ق . م
٢ ـ أمنحوتب الأول	١٥٥٠ ـ ١٥٢٨	ق . م
٣ ـ تحوتمس الأول	١٥٢٨ ـ ١٥١٠	ق . م
٤ ـ تحوتمس الثاني	١٥١٠ ـ ١٤٩٠	ق . م
٥ ـ حتشبسوت * (٢)	١٤٩٠ ـ ١٤٦٨	ق . م
٨ ـ أمنحوتب الثاني	١٤٣٦ ـ ١٤١٣	ق . م
٩ ـ تحوتمس الرابع	١٤١٣ ـ ١٤٠٥	ق . م
١٠ـ أمنحوتب الثالث	١٤٠٥ ـ ١٣٦٧	ق . م
١١ـ أمنحوتب الرابع (أخناتون)	١٣٦٧ ـ ١٣٥٠	ق . م
١٢ـ سمنخ قارع	١٣٥٠ ـ ١٣٤٧	ق . م
١٣ـ توت عنخ آمون	١٣٤٧ ـ ١٣٣٩	ق . م
١٤ـ آي	١٣٣٩ ـ ١٣٣٥	ق . م
١٥ـ حور مَحَب	١٣٣٥ ـ ١٣٠٨	ق . م

ففي عهد تحوتمس الأول (١٥٢٨ ـ ١٤١٠ ق . م) جعلت مصر قسماً كبيراً من سورية تحت سيطرتها . ولكن السيادة المصرية لم تتوطد في سورية إلا في عهد تحوتمس الثالث (١٤٩٠ ـ ١٤٣٦ ق . م)

(*) حتشبسوت ابنة تحوتمس الأول من زوجته الأولى . وكان لايحق لها أن تحكم ، ولكن يمكنها أن تعطي الملك لزوجها تحوتمس الثاني الذي كان أخاها من أبيها لإحدى زوجاته الثانويات . ولما لم يأتهما وريثاً أوصى بالعرش لتحوتمس الثالث ابن تحوتمس الثاني من إحدى خليلاته . ولما مات تحوتمس الثاني كان تحوتمس الثالث صغيراً فأعلنت حاتشبست نفسها ملكة (٢) .

بعد معركة مجدو (في فلسطين) سنة ١٤٦٨ ق . م . التي هزم بها حلفاً مؤلفاً من العموريين والهكسوس والكنعانيين (٢ . ٢ . ١٤) وفي سنة ١٤٦٠ ق . م قام بحملة أخرى على سورية فاحتل مدينة قادش (تل النبي مندو جنوبي بحرة قطينة) . وفي حملته الثامنة . تقدم في وادي نهر العاصي فاحتل شيزر عام ١٤٥٧ ق . م في طريقه إلى نهارين (مملكة ميتاني) (١٤) . وهنا تظهر أول إشارة إلى شيزر وذلك بالرسوم الهيروغليفية التي وُجدت في مقبرة طيبة على جدار مدفن أضمحاب أحد قادة تحوتمس الثالث حيث يصف مغامراته في الحملات التي اشترك بها . يبتدىء أمنمحاب وصفه بالقول : « لقد كنت المُخلِص المطيع لجلالة الملك تحوتمس ملك مصر العليا ومصر السفلى . لقد تبعت سيدي في حملاته في الشمال والجنوب حيث كانت رغبته أن أكون مرافقاً له في إنتصاراته على ساحة المعركة التي كانت شجاعته فيها مبعث الطمأنينة في القلوب . . . »(١٤) وبعد وصفه لمعارك النجف ونهارين ووان وكركميش التي كما يَعْتَقِد « برستد » (١٤) تلت الحملة على شيزر . التي وردت بصيغة « سنزار » ، يصف معركة شيزر ، إذ يقول : شهدت انتصارات الملك منخبر (تحوتمس) مُعطى الحياة ، في ديار سنزار حيث قام بمجزرة عظيمة بأهلها . لقد حاربت جنباً إلى جنب مع الملك وحصلت على الغنائم ، فمنحني هدية من الذهب و « عطايا أخرى » وخاتمين من الفضة (١٤) ومن شيزر تقدم تحوتمس الثالث إلى نهارين (ميتاني) واحتلها ونهبها بعد عدة معارك وبهذا أتى حكم الحوريين في سوريا إلى نهايته وضم مملكتهم إلى إمبراطوريته (٢ ، ٩ ، ١٤) .

بعد تحوتمس الثالث قامت الثورات في سوريا للتحرر من السيادة المصرية . وكان قد اعتلى العرش من بعده إبنه امنحوتب الثاني (١٤٣٦-١٤١٣ق.م) الذي كان محارباً قوي الشكيمة ، حيث قام بحملة إلى شمال سورية ليقضي على الفتنة هنالك . ويظهر وصف هذه الحملة في الكتابات الهيروغليفية المنقوشة على جدران الكرنك . إذ يرد ذكر شيزر ، بصفة « سيزر » ، بين المدن السورية التي إفتتحها امنحوتب . وهذه الكتابات تتلو أن أمنحوتب الثاني بعد إنتصاره في معركة شمس عادوم في شمالي فلسطين تابع سيره شمالاً في سورية فعبر مخاضة العاصي ، ولا شك أنها مخاضة شيزر ، في طريقه إلى « نيا » (١٤) ولعلها تل قلعة المضيق حيث تمت مؤخراً اكتشافات أثرية تثبت وجود بلدة ترقى لنفس الفترة . وقد وردت الإشارة إلى هذه المخاضة أيضاً في وصف حملة رعمسيس الثاني على قادش (١٤) . ومخاضة شيزر هي النقطة الوحيدة التي يتسنى لجيش جرار مع حشوده وخيله وعرباته عبور العاصي بدون الحاجة لجسور . وبين الكتابات المذكورة نُحتت صوراً رمزية يظهر صورٌ فيها أمنحوتب الثاني يتقدم سبعين أسيراً آسيوياً يقودهم إلى الإله آمون . والكتابات تتلو : « لائحة أسماء البلاد التي أغرقها جلالته في الدماء تيمناً له بأن يحصل على الخلود » . ومن الأسرى أربعة وعشرون يحملون أسماء البلاد التي أتوا منها وقد ذكرت شيزر من بينها ومنها : « رتنو العليا ، ورتنو السفلى ، وقادش ، وحلب ، ونيا ، وسيزر ، وثنيو ، وقطنة » (١٤) . فذكر شيزر في لائحة المدن التي احتلها امنحوتب تعني ولا شك أنه قد مرّ بها وعبر مخاضها في طريقه إلى شمالي سورية . تلى أمنحوتب الثاني إبنه تحوتمس الرابع (١٤١٣-

من الحملات . كما أن الأمراء السوريين إلتزموا الولاء واستمروا في دفع الجزية (٢) .

بعد تحوتمس الرابع اعتلى عرش مصر إبنه امنحوتب الثالث (١٤٠٥ – ١٣٦٧ ق . م) وكان يدعى بالفاخر .وقد وصلت الإمبراطورية عظمتها في عهده . فشملت على سورية وبلاد مابين النهرين وآشور (١٥) . وفي ذلك الأثناء كان هنالك في الشمال دولة الحثيين التي عادت للظهور وقد كانت قوية ومنافسة لمصر (٢) .

فترة الامبراطورية الحثية : وقد بدأ ظهورها هذا خلال فترة مملكة ميتاني الذي أتى نتيجة تغلب تحوتمس الثالث عليها سنة ١٤٧١ ق . م وبذلك بدأ عصر الإمبراطورية الحثية (١٤٦٠ – ١٢١٥ ق . م) (٩) . وكان من ملوك الحثيين الذين حكموا في هذه الفترة :

١ – تود أليجه (تودهالياس) الثاني	١٤٦٠ – ١٤٤٠	ق . م
٢ – أرنوندا (أرنوونداس) الأول	١٤٤٠ – ١٤٢٠	ق . م
٣ – حاتوسيل الثاني	١٤٢٠ – ١٤٠٠	ق . م
٤ – تود أليجه الثالث	١٤٠٠ – ١٣٨٠	ق . م
٥ – شوبيلوليوما (سابيلوليوماس) (الأول)	١٣٨٠ – ١٣٤٦	ق . م
٦ – أرنوندا الثاني	١٣٤٦ – ١٣١٥	ق . م
٧ – مورسيل الثاني	١٣٤٥ – ١٣١٥	ق . م
٨ – موتلي (مرواتاليس)	١٣١٥ – ١٢٩٦	ق . م
٩ – مورسيل الثالث	١٢٩٦ – ١٢٨٩	ق . م
١٠ – حاتوسيل الثالث	١٢٨٩ – ١٢٦٥	ق . م

١١ـ تود أليجه الرابع	١٢٦٥ ـ ١٢٣٥	ق . م
١٢ـ أرنوندا الثالث	١٢٣٥ ١٢١٥	ق . م
١٣ـ شوبيلوليوما الثاني	١٢١٥ ـ ؟	ق . م

وقد بدأ التوسع الحثي الجديد في عهد تود أليجة الثاني (١٤٦٠ ـ ١٤٤٠ ق . م) الذي هاجم حلب وخرب قسماً منها إنتقاماً لإنضمامها للحوريين في السابق (٩) . وكان نتيجة لهذا التوسع أن تحالف الميتاليون مع أمنحوتب الثاني مما أدى إلى إختلال القوى في المنطقة لغير صالح الحثيين . وهذا بدوره أدى إلى قيام المقاطعات المحتلة بمهاجمة الحثيين والتخلص من سيطرتهم . ولكن في عهد شوبيلوليوما الأول (١٣٨٠ ـ ١٣٤٦ ق . م) قام الحثيون ثانية بتوسيع ممتلكاتهم بمهاجمة ميتاني التي استسلم ملكها توشراتا بدون قتال ، ومنها تقدم في شمال سورية فاحتل حلب وألالاخ ثم تابع سيره في داخلها فأحرق قطنة واستولى على قادش مملكة نوهاسي (النحاسة بين قادش وتدمر) (٥ ، ٩)

ففي هذه الفترة التي تعاصر فيها امنحوتب الثالث (١٤٠٥ ـ ١٣٦٧ ق . م) وشوبيلوليوما الأول (١٣٨٠ ـ ١٣٤٦ ق . م) ، انحصرت بين دولتيهما القويتين دولة أو دول العموريين في سورية الوسطى والتي كانت تشمل في ذروتها ، حسب رقم تل العمارنة ؛ قسماً من شمالي لبنان وساحله وسورية المجوفة منطقة البقاع (١٦) ولبنان الشرقي ومنطقة دمشق (٢) . ولكن سورية لم تخلد إلى السكينة لا بل قامت فيها ثورات متعددة ضد السيادة المصرية مما حمل الفراعنة للقيام بحملات متكررة لتثبيت نفوذهم . وهذا بدوره أدى إلى إضعاف مصر إقتصادياً وجعلها عاجزة عن الدفاع عن نفسها ضد جراتها من

الدول الناشئة في الشمال (٢) . ففي أواخر عهد أمنحوتب الثالث بدأ التصدع يظهر في الإمبراطورية المصرية . كما أنها بدأت تفقد تدريجياً مستعمراتها في سوريا . وتشير إلى أحداث هذه الفترة رسائل تل العمارنة والتي قد ذُكرت فيها شيزر .

رسائل تل العمارنة : وهي مجموعة من الرقم المسمارية أكتشفت سنة ١٨٨٧ م . في قسم السجلات من قصر أخناتون في مدينته المسماة « سماء آتون » ، وهي اليوم تل العمارنة الواقع شرقي النيل على بعد ٢٤٠ كيلو متراً جنوبي القاهرة (٧ ، ١٧) ، وهذه الرقم هي رسائل من بعض الملوك المعاصرين وأمراء المستعمرات المصرية ، وأغلبها من سورية كانت قد بُعثت إلى أمنحوتبَ الثالث ثم من بعده إلى ابنه امنحوتب الرابع (أخناتون) (صورة ٢٢) (١٣٦٧ – ١٣٥٠ ق . م) تُنذر وتُحذر من الخطر الحثي (١٥ . ١٨ ، ١٩ ، ٢٠) . ومن القوى المعاصرة في هذه الفترة كانت ميتاني التي ربطتها مع مصر علاقات زواج دبلوماسي والتي نتيجة لإستسلام‌ملكها توشراتا للحثيين قامت إحدى الأجنحة الملكيه المعادية له بالتعاون مع آشور أباليت ملك آشور الذي كان يدفع الجزية لميتاني ، واغتالت توشراتا واعترفت باستقلال آشور . كان لهذا الحدث أهمية كبرى ، إذ أن استقلال آشور أدى إلى إضعاف ميتاني واحتلالها فيما بعد وزوالها كلياً حوالي سنة ١٣٠٠ ق . م (٨ ، ٩). وكان ضعف ميتاني مما سهل للحثيين الإستيلاء على سورية .

خلال فترة العمارنة هذه كانت الممالك السورية منقسمة الميول ، بعضها موالٍ للحثيين وبعضها الآخر موالٍ لمصر وميتاني (٩) . وعلى

الإجمال كان الجو السياسي في سورية مضطربا ومتقلقلا . وممالكها ضعيفة غير مترابطة . ورسائل تل العمارنة تشير إلى تلك الأحداث العصيبة التي مرت بها سورية .

فالرسائل تشير إلى أن الحثيين كانوا قد احتلوا منطقة عمقي (العمق) في شمال غربي سوريا ، بمساعدة عبد عشرتا العموري الذي كان متملكاً في منطقة العاصي العليا . وكان عبد عشرتا يسعى لتوسيع ممتلكاته عن طريق المخادعة . إذ كان يتظاهر بالتعاون مع الحثيين وفي الوقت ذاته كان يدعي الولاء لمصر . ويظهر سلوكه هذا في إحدى رسائله إلى أمنحوتب الثالث : « إلى الملك الشمس . سيدي ، هكذا يقول عبد عشرتا عبدك وغبار قدميك . عند قدمي الملك سيدي سبع مرات وسبع مرات أخرى أجثو . أنظر إنني خادم الملك وكلب بيته وجميع بلاد عمورد أحرسها للملك سيدي » . فعن طريق هذا التحايل أحتل عبد عشرتا الكثير من المدن المجاورة لممتلكاته (٢) . تابع أولاد عبد عشرتا أعمال والدهم التوسعية وبالأخص إبنه عزيرو الذي حاول التحرر من السيادة المصرية . ويظهر ذلك من رسائل بعث بها عكيزي صاحب قطنة (المشرفة) إلى أخناتون (٢٠) . ويرد ذكر شيزر في إحدى هذه الرسائل بصيغة زنزار ، ويظهر أنها كانت موالية للفراعنة في تلك الآونة . ففي الرسالة الأولى يطلب عكيزي من فرعون مدّه بالجنود لإستعادة نوهاسي (النحاسة) لإيقاف هجمات الحثيين وعزيرو على قطنة (١٥ - ١٨) . وفي الرسالة الثانية يحذر عكيزي أخناتون من قيام حلف بين الحثيين وبعض دويلات العاصي . الذي سيشكل خطراً على قطنة ودمشق : « إلى الملك أنوموريا إبن

الشمس ، سيدي هكذا ينحني [illegible] خادمك [illegible]
قدمي سيدي انحني طاعة [illegible] » (١٨) . وبعد ذلك [illegible]
الحثيين وحليفهم ملك قادش [illegible] اقاما الذي كان قد [illegible]
سبي لوليوما ثم أعاده إلى ملكه (٢٠) . ويذكر تعدياته [illegible]
قطنة : « . . . سيدي إن تياتي من مدينة ابانا (اللبوة) وأرزويا من
مدينته روهيزي (؟ رعيتّش في البقاع) قد تحالفوا مع عدا قاما
وأخذوا يحرقون ممتلكات قطنة التي هي من ممتلكاتك . سيدي .
إنني على جانبك وكذلك ملك نوهاسي (النحاسي) وملك نيا وملك
زنزار (شيزر) وملك كنعان (في البقاع) . كل هؤلاء الملوك تحت
حكمك خدم لك . كما قلت . دع الملك . سيدي يعيش وتصبح
له العظمة وهكذا أيها الملك سيدي . هل لك أن تتفضل وترسل لنا
الجنود وتطرد المعتدين عنا . كما قلت ياسيدي . إن هؤلاء الملوك
المعادين يهددون الرجال العظام الخاضعين لك . ومن يدري ماسوف
يفعل بنا هؤلاء الملوك ! فدع الملك يُشتتهم . إن بلادنا ، ياسيدي
من كل قلبها تذعن لسيدي الملك . أسرع إلينا بالجنود ، فياسيدي
إن أرزويا من روهاسي وتياتي من لبانا وداسرو من آما (حماه)
على إتفاق وكلهم يخضعون لعدا قاما والحثيين . فهم أيضاً يهددون
مدينة تيمشقي (دمشق) فياسيدي، بحضور رسولي سوف تقرر مصيرنا.
فاذكر ياسيدي إنني كنت سابقاً قد ساعدت جيوشك » (١٨) .
ولكن هذه الإستغاثات لم تحرك أخناتون الذي كان قد ولّى جُلّ
إهتمامه إلى النواحي الدينية والشؤون الداخلية بينما كان قد أهمل
الأمور العسكرية وتغاضى عن المستعمرات مما زاد في تصدع الإمبراطورية
والإضطرابات السياسية فيها وبالتالي إستيلاء الحثيين على سوريا وبهذا

[illegible]
زادت شبيرز عزاو [illegible]
في شمال سورية وأواسطها
[illegible]
تمركز الحثيون في سورية بالرغم من بعض محاولات [illegible]
الأسرة التاسعة عشرة كسيتي الأول ورعمسيس الثاني . فقد انهزم
رعمسيس أمام موتلي الحثي سنة ١٣٠٠ ق . م في معركة قادش .
وبعدها تقدم الملك الحثي إلى منطقة أبينا في جوار دمشق (٩) . وفي
عهد حاتوسيل الثالث (١٢٨٩ — ١٢٦٥ ق . م) مرّت على الإمبراطورية
الحثية فترة سلام ونعيم . فالكاشيون في بابل كانوا له حلفاء في عهد
ملكهم قاداشمان تركو . وبسبب إزدياد القوة الآشورية في الشرق
بدأ التقارب بين كلا الإمبراطوريتين الحثية والمصرية ، وكان يحكم
الأخيرة رعمسيس الثالث الذي عاصر حاتوسيل الثالث . وقد أبرمت
معاهدة بين الملكين ، كانت خاتمة الحروب بين دولتيهما (٦ ، ٩)
ولكن في عهد تود أليجة الرابع (١٢٦٥ — ١٢٣٥ ق . م) ، بدأ
الضعف والتقهقر يتفشيان بالإمبراطورية الحثية . وفي عهد أرنواندا
الثالث (١٢٣٥ — ١٢١٥ ق . م) قامت الثورات في أرجاء الإمبراطورية ،
كما هاجمتها مجموعة من الشعوب تعرف بشعوب البحر الأبيض
المتوسط . وتذكر حوليات رعمسيس الثالث أن هذه الشعوب هاجمت
المدن الحثية في آسيا الصغرى وعلى الساحل السوري في الشمال والجنوب
مما أدى إلى ارتياع الحثيين وهزيمتهم ولجوئهم إلى داخل سورية .
وكان أحد هذه الشعوب هم الفلسطينيون الذين استوطنوا على الساحل
من أرض كنعان ، ونسبة لهم حملت المنطقة إسم فلسطين (٦ ، ٩ ، ٢١)
وفي حوالي ١٢٠٠ق.م. وذلك في عهد سبي لوليوما الثاني (١٢١٥ —؟ق م)

احرقت العاصمة حاتوساس وتعوضت السلطة الحثية في آسيا الصغرى بالسلطة الفريجية (٩ . ٢١) . وبالرغم من إنهيار إمبراطورية الحثيين وتلاشي نفوذهم . إلا أن حضارتهم استمرت في سورية لمدة خمسة قرون بعد زوالهم كما أن بعض مناطق سورية لمنطقة طوروس أشار إليها الآشوريون في حولياتهم بأرض « خاتي » أي بلاد الحثيين (٩) . وذات التسمية أي « هتاي » أطلقتها تركيا على لواء اسكندرون بقصد التضليل وذلك لسلب تلك الأرض من الوطن الأم سورية . فقبل الإحتلال الحثي لمنطقة اللواء كانت تزدهر فيه مملكة الموكيش التي كانت عاصمتها الألاخ المسيطرة على العمق وجوار إنطاكية والساحل السوري الشمالي والتي أصبحت فيما بعد خاضعة لمملكة يمحاض وعاصمتها حلب (٥) . وبعد الإنهيار الحثي وتقلصه في سورية يظهر أن أقواماً أتت من إحدى المقاطعات الحثية ، وقد تكون مقاطعة كيزوواتنا الواقعة فيما وراء طوروس واجتاحت سورية وهذا بدوره أدى إلى ظهور مجموعة من الممالك المستقلة ذات طابع حثي وكانت تستعمل الهيروغليفية الحثية . ومن هذه الممالك : ملاتيا وكركميش ومراش وأرباد وشمأل ويأديا والعمق وحلب وحماه وغيرها (٩) . وكانت هذه الممالك ضعيفة ، وهذا ماشجع الآشوريين في عهد تفلات فلصر الأول (١١١٤ — ١٠٧٦ ق . م) لغزوها والتوغل في سورية غرباً حتى البحر الأبيض المتوسط (٢ ، ٣ ، ٩). وبعد تفلات فلصر تقاعدت الجيوش الآشورية عن نشاطها الحربي ، وبقيت هكذا على حال من الركود داخل حدودها ولن تعبر الفرات ثانية حتى أيام آشور ناصر بال (٨٨٣ — ٨٥٩ ق . م) ، وذلك بعد

مرور قرنين من الضعف الآشوري (٢ ، ٩) وخلال فترة هذا الضعف الآشوري بدأ الآراميون يظهرون على المسرح السياسي في سورية (٩) .

الآراميون

وهم بالأصل عرب رُحّل نزحوا من الجزيرة العربية حوالي سنة ١٥٠٠ ق . م باتجاه أواسط الفرات في شمال شرقي سورية . وهنالك تطور مفهومهم القومي وتبلورت لغتهم ثم بالتدريج انتشروا شرقاً في بلاد الرافدين وغرباً في سوريا . ولما حطّم الحثيون مملكة ميتاني سنة ١٤٥٠ ق . م ملأ الآراميون الفراغ الناتج وتمركزوا في شمال شرقي سورية حول حرّان وفي شماليها بالقرب من كركميش . وخلال القرن الثالث عشر قبل الميلاد طغى الآراميون بالتدريج على بقايا العموريين والحوريين والحثيين في وادي العاصي (٢ ، ٢٢) . ولاشك أن شيزر إبان ذلك أصبحت آرامية كغيرها من حواضر العاصي فوقف الانتشار الآرامي في هذه الفترة عند جبال لبنان ، إذ استمرت الجاليات العمورية والحثية بالإزدهار فيها ، بينما احتفظت المواطن الكنعانية باستقلالها في السهول الساحلية (٢ ، ٢٢) .

رافق الهجرة الآرامية هجرة العبرانيين الذين استقروا في كنعان إذ هكذا كانت تسمى سورية الجنوبية حينذاك (فلسطين اليوم) . ويظن المؤرخون أن دخول العبرانيين إلى كنعان حصل نتيجة ثلاثة هجرات : الأولى ، بدأت من بلاد الرافدين في القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، وقد عاصرت الموجة التي نشرت الهكسوس والحوريين على ساحل البحر الأبيض المتوسط . ولعل قصة إبراهيم الخليل عليه السلام ، وخروجه من مدينة أور في سومر (جنوبي العراق) وقدومه

إلى كنعان تعكس هذه الهجرة . والهجرة الثانية اتصلت بالآراميين في القرن الرابع عشر في عصر العمارنة . وأما الهجرة الثالثة فقد أتت من مصر بقيادة موسى ويشوع في أواخر القرن الثالث عشر (٢ ، ٢٢) وليس هنالك من إثباتات تاريخية تربط عرقيا أقوام هذه الهجرة مع أقوام الهجرتين الأوليين . لكن هذا الربط أتى نتيجة إعتياد أكثر المؤرخين ومنهم الباحثون العرب ، أن يعتبروا هجرة إبراهيم الخليل من سومر (العراق) وهجرة موسى من مصر كأنهما لجماعة واحدة بالرغم من تباعدهما بستة قرون . كذلك إنهم ربطوا بداية تاريخ اليهود بهجرة إبراهيم الخليل من سومر . ويقول الدكتور أحمد نسيم سوسه (٥٠) ، أن هذا الربط لايتفق مع الحقائق التاريخية ، فتسلسل الأحداث يُبيّن أن ليس هنالك من صلة بين إبراهيم الخليل واليهود ، الذي اشتق اسمهم من مملكة يهوذا بعد نشوئها سنة ٩٢٢ ق . م ، لامن حيث العصر ولا من حيث المبدأ أو العقيدة ولا من حيث اللغة . وأن بداية تاريخهم لايمكن أن تحدد بغير زمن الخروج حين ظهر أتباع موسى على مسرح الأحداث في القرن الثالث عشر قبل الميلاد . وعلى رأي الباحثين ، إن موسى كان مصرياً تربى في البلاط الفرعوني وكان قائداً مصرياً ، كما كان على دين التوحيد الذي اعتنقه أخناتون (١٣٦٧ — ١٣٥٠ ق . م) ؛ وإن حملته على أرض كنعان (فلسطين) التي أطلق عليها كتبة التوراة « خروج بني إسرائيل » إن هي إلا حملة مصرية مؤلفة من جماعة من الجنود المصريين ومعهم فلول من بقايا الهكسوس الذين كانوا يدينون بدين التوحيد ، وقد ورثوه عن أخناتون . فاضطروا إلى الهرب من مصر من وجه اضطهاد السلطة الحاكمة وضغط السكان الوثنيين بعد موت أخناتون ، وقد جاؤوا

بقيادة موسى ليحتلوا بقعة من الأرض المعمورة في كنعان يأوون إليها.
وهؤلاء هم قوم موسى الذين جاؤوا إلى كنعان وهم غرباء عنها يتكلمون اللغة المصرية ولم تكن لهم أية صلة ببني إسرائيل أحفادإبراهيم الخليل الذين كانوا قد جاؤوا إلى مصر في عهد يوسف قبل عصرموسى بما يقرب من ستة قرون والذين انصهروا واندمجوا بشعب مصر وبيئته نهائياً (٥٠) . ولكن كتبة اليهود الذين كتبوا التوراة في وقت متأخر اتخذوا من يعقوب (اسرائيل) النسب ، ومن أبرام (إبراهيم الخليل) الصلة الروحية واعتبروه جدهم الأكبر مما يجعلهم أهلاً ليكونوا الشعب المختار، لأن هذه الشخصيات كانت تتمتع بقدسيتها الموروثة وسموّ مسلكها الكهنوتي في بلاد كنعان بل في الشرق الأدنى كله . هذا وقد اتخذوا من كنعان (فلسطين) عقيدة الوطن الموعود الذي يفيض « لبناً وعسلاً » وعزوا كل ذلك إلى الإله « يهوه » . كما سموا أنفسهم بالشعب العبراني (٥٠) .

والمرويات الأسطورية اليهودية تقول إن إبراهيم كان جدهم الأكبر وقد أتى من مدينة أور من بلاد الرافدين بطريق حران وأقام في بلاد كنعان . وسُميت هذه الفترة بعهد البطاركة . ومن بعده ترك وريثه اسحاق إبناً اسمه يعقوب ، الذي أقام في فدان آرام (بين الفرات والخابور) عدة سنوات وقد وقع عليه الإختيار ليكون صاحب الشأن تفضيلاً له على أخيه عيسو وتغير اسمه فأصبح اسرائيل . وحصل عيسو على اسم آخر وهو أدوم (أي أحمر) . الذي حل ورثته فيما بعد محل سكان منطقة جبل سعير جنوب شرقي البحر الميت . وعُرفوا باسم الأدوميين . وهكذا أزيل عيسو من حياة اليهود وتفكيرهم

كما أزيل قبلاً اسماعيل بن إبراهيم من جاريته هاجر ، وفضل عليه اسحاق . ومن بين أولاد يعقوب الاثني عشر كان يوسف فألقاه إخوته في الجب فالتقطه بعض السيارة الذين باعوه لجماعة من مصر وفيما بعد أصبح ذا شأن في الدولة المصرية . وبعد أن أقام ورثة يوسف وإخوته أجيالاً عديدة في مصر عادوا إلى كنعان تحت قياده موسى . وهذا ماوضعه كتّابٌ عاشوا ؛ بعد وقوع هذه الحوادث بمئات السنين استناداً على ماسمعوه من سلسلة طويلة من المرويات الشفهية . وبعد الخروج من مصر قضى الموسويون عدة سنوات في سيناء . وفي حوالي سنة ١٢٥٠ ق . م دخلوا بادية شرقي الأردن وأخذوا يهاجمون ممالك شرق الأردن فتغلبوا على سيحون ملك العموريين ثم على عوج ملك باشان ثم تقدموا في فلسطين يحتلون مدنها . وكان سقوط أريحا من أروع الحوادث ؛ إذ أحرقها يشوع بالنار « بأمر يهوه وكل مابها ! » ولم تسقط المدن الأخرى المهمة مثل بيت شان وأورشليم (القدس) حتى حوالي ١٠٠٠ ق . م (٢) وهذا يشابه ماقام به أحفادهم في عصرنا هذا من إحتلال فلسطين وسيناء والجولان من الأراضي العربية وتغيير المعالم الحضارية وتهديم المدن كالقنيطرة وغيرها . وبعد أن سيطر العبرانيون على المرتفعات الوسطى من كنعان استولى الفلسطينيون على المناطق الساحلية . والفلسطينيون هؤلاء ليسوا هم بفلسطينيين عصرنا هذا من الشعب العربي ، بل كانوا من قبائل آسيا الصغرى والبلاد الإيجية التي أدت حركة غامضة في أواخر القرن الثالث عشر إلى تفرق قبائلها والبحث عن موطن لها في مناطق أقل اضطراباً . فقد توافدت جماعات من المهاجرين بينهم قبائل الفلسطينيين بطريق

البر والبحر نحو سورية وبعد تقويضها بعض المدن ومنها أوغاريت وصلت الساحل المصري . وهنالك هزمها رعمسيس الثالث في معركة بحرية وبرية حوالي سنة ١١٩١ ق . م . ولكنه سمح لها أن تبقى بصورة دائمة في ساحل سورية الجنوبية وذلك من غزة إلى جبل الكرمل الذي كان الحد الفاصل بين بلادهم الساحلية وبلاد الفينيقيين في الشمال وصارت المنطقة تسمى « فلسطيا » (٢) . ومما يُساعد في الدلالة على أن الفلسطينين كانوا أوربيين هي الرسوم التي وُجدت على البناء التذكاري الذي أقامه رعمسيس الثالث . والنماذج الخزفية التي أدخلوها تدل على قدومهم من جزر اليونان وخاصة كريت (٢) .

فدخول العبرانيين إلى كنعان واستيطانهم سُمي عهد القضاة . وقد جرت حروب كثيرة بينهم وبين الكنعانيين والفلسطينيين . وقد نُصب أول ملك عليهم سنة ١٠٢٠ ق . م ، وكان اسمه شاول وقد قتله الفلسطينيون . ولكن المؤسس الحقيقي للملكة هو داوود (١٠٠٤ — ٩٦٣ ق . م) وقد بدأ حكمه تحت سيادة الفلسطينيين ، ولكنه نجح في النهاية باحتلال القدس وجعلها عاصمة ملكه وتوسيع حدود المملكة إلى أبعد ما بلغته في أي وقت آخر (٢ ، ٢ ، ٢٢) .

أشرنا في مطلع هذا الفصل أن الآراميين كانوا قد تمركزوا في سورية الشمالية والوسطى ثم تقدموا نحو دمشق . وفي نهاية القرن الثالث عشر توطدت حركتهم وكذلك الحركة العبرانية ، فاستقر كلا الشعبين وأصبح يجاور أحدهما الآخر في موطنهما الجديد (٢) .

ظهرت الدول الآرامية الأولى في منطقة الفرات الأوسط وهي الممر بين بلاد الرافدين وسورية . وقد سميت إحداها آرام النهرين

بين الفرات والخابور . والأخرى فدان آرام وكانت مجاورة لآرام النهرين وكانت عاصمتها مدينة حران . وقامت ممالك أخرى في شمال سورية وأواسطها . وكان أهم هذه الدول تلك التي كان مركزها أولاً صوبة (عنجر الحديثة جنوبي زحلة في البقاع) ثم دمشق . وقد تأسست مملكة دمشق في أواخر القرن الحادي عشر فكانت معاصرة لتأسيس المملكة العبرانية وتطورت فأصبحت مملكة كبرى تمتد من اليرموك إلى الفرات . وكانت سورية الداخلية شرقي جبل لبنان وسوريا الشمالية وباشان في منطقة اليرموك تحت سلطتها في حوالي ١٠٠٠ ق . م وقد كان هؤلاء الآراميون خلال قرنين ألد أعداء العبرانيين . عندما كانت صوبة عاصمة المملكة قامت الإصطدامات بين ملوكها ومنافسيهم العبرانيين في عهد شاول (٢) وقد انتصر العبرانيون في عهد داوود على حددعزر ملك صوبة وحليفه ملك دمشق التي وضع حاميه بها . وعلى أثر ذلك أرسل ملك حماه توى المعادي لحدد عزر ابنه حاضورام يهنىء داوود بالنصر (٧) . وهذا النصر هيأ لداوود وإبنه سليمان أن يمتد نفوذ ملكهم على حد زعم مؤرخيهم كما ورد في العهد القديم من الفرات إلى غزة (٨ ، ٢٣) . وحسب هذا الإدعاء فان مملكة حماة ، والتي يغلب أن شيزر كانت تابعة لها في العصر الآرامي قد خضعت لنفوذ العبرانيين في أيام داوود وسليمان . ولكن فيما بعد انتقلت السيادة من صوبة إلى دمشق . وعندما انقسمت المملكة العبرانية سنة ٩٢٢ ق . م إلى قسمين اسرائيل ويهوذا وذلك في عهد رحبعام بن سليمان كان ذلك من مصلحة ملوك دمشق الذين كانوا يقيمون المملكة الواحدة ضد الأخرى . وقد أخذ بنحدد الأول ملك دمشق (٨٧٩ — ٨٤٣ ق . م) كنوزاً ثمينة من ملك يهوذا

كما هاجم اسرائيل وجعل جلعاد في شرقي الأردن تحت السيطرة الآرامية والواقع أن مملكة اسرائيل كانت تابعة اسمياً لآرام منذ أواخر أيام ملكها عمرى . وعندما رفض آخاب بن عمري دفع الجزية أو الإنضمام إلى التحالف ضد الهجوم الآشوري الذي كان وشيك الوقوع ظهر بنحدد بغتة أمام عاصمته السامرة ليجبره على الطاعة (٢ : ٥) .

الآشوريون : إبان هذه الفترة أخذت القوة الآشورية تظهر الى حيز الوجود بعد قرنين من الضعف والإنزواء الذي انتابها بعد تفلات فلصّر الأول . وكان باعث قوتها الجديدة آشور ناصر بال الثاني (٨٨٣ — ٨٥٩ ق . م) الذي خلق جيشاً ذا قوة قتالية مخيفة ألقت الرعب في قلوب العدو . وقد خلف آشور ناصر بال مجموعة من الملوك كان بعضهم على غاية من القوة إذ قادوا جيوشهم في حملات متعددة على سورية . وفيما يلي لائحة بأسماء هؤلاء الملوك :

١ — آشور ناصر بال بال الثاني	٨٨٣ — ٨٥٩ ق . م
٢ — شلمنصّر الثالث	٨٥٨ — ٨٢٤ ق م
٣ — شمشي عداد الخامس وزوجته الملكة سمير أميس	٨٢٣ — ٨١١ ق . م
٤ — عداد نيراري الثالث	٨١٠ — ٧٨٣ ق . م
٥ — شلمنصّر الرابع	٧٨٢ — ٧٧٣ ق . م
٦ — عاشودان الثالث	٧٧٢ — ٧٥٥ ق . م
٧ — عاشور نيراري الخامس	٧٥٤ — ٧٤٥ ق . م
٨ — تفلات فلصّر الثالث	٧٤٤ — ٧٢٧ ق . م

تتمة لائحة الملوك الآشوريون :

٩ ـ شلمنصر الخامس	٧٢٦ ـ ٧٢٢ ق . م
١٠ ـ سرغون الثاني	٧٢١ ـ ٧٠٥ ق . م
١١ ـ سنحريب	٧٠٤ ـ ٦٨١ ق . م
١٢ ـ أسرحادون	٦٨٠ ـ ٦٦٩ ق . م
١٣ ـ آشور باني بال	٦٦٨ ـ ٦٦٣ ق . م
١٤ ـ آشور إتيل إيلاني	
١٥ ـ سين شوم ليشير	٦٣٣ ـ ٦١٢ ق . م
١٦ ـ سين شار إشكون	(سقوط المملكة)
١٧ ـ آشور أو باليت الثاني	٦١١ ـ ٦٠٨ ق . م (٢)

بدأ آشور ناصر بال سياسة التوسع فوصلت جيوشه إلى شمالي سورية والمدن الفينيقية الساحلية . وقد تابع ابنه شلمنصر الثالث (٨٥٨ ـ ٨٢٤ ق . م) الحملات المتواصلة على سورية . وفي سنة ٨٥٣ عبر الفرات إلى سورية واحتل عدة مدن من مملكة حماه ومنها مدينة قرقر (٣) (القرقور اليوم في منتهى غاب حماه من الشمال وبالقرب من جسر الشغور) . وبالقرب من قرقر اشتبك شلمنصر في معركة طاحنة مع حلف من الملوك السوريين بقيادة بنحدد ملك آرام دمشق ومن بينهم أخاب ملك اسرائيل وأرهوليني ملك حماه التي كانت شيزر جزءاً من مملكته والتي لاشك أنها انضوت في جيشه الذي خاض رحى تلك المعركة والجيوش التي قدمت من الجنوب والساحل عبرت فوق مخاضة شيزر . وقد يعزو أنها تجمعت في فرناكة (أفاميا فيما بعد) قبل بدء المعركة (١٠) . وبالرغم مما تصفه الحوليات الآشورية عن انتصار شلمنصر (٣) ، إلا أن المعركة انتهت بنون

نتيجة حاسمة ، وكان على الآشوريين أن ينتظروا سنيناً كثيرة قبل أن يتمكنوا من إخضاع دمشق (٢) .

وفي عهد حزائيل وريث بنحدد (حوالي ٨٠٥ ق . م) الذي كان أعظم محارب في التاريخ الآرامي ، صمدت آرام في وجه هجمات الآشوريين ، كما توسعت جنوباً في أراضي إسرائيل التي وقعت تحت رحمة حزائيل الذي توسع في فتوحاته حتى سهل فلسطين الساحلي . ولكن في عهد خلفاء حزائيل فقدت آرام مافتحته من الأراضي في الجنوب (٢) . وفي سنة ٧٣٤ ق . م حين هدّد آحاز ملك يهوذا من قبل فقح ملك إسرائيل ورصين ملك دمشق تدخّل الآشوريون بطلب من آحاز ، فاستجاب تغلات فلصر الثالث (٧٤٥ – ٧٢٧ ق . م) (صورة) فاستولى على إسرائيل وسبى الكثير من أهلها (٢ ، ٣ ، ٢٣) وفي طريق عودته إلى آشور ، مرّ بجيشه ومن معه من سبايا إسرائيل فوق مخاضة شيزر (٢٣) . وفي سنة ٧٣٢ ق . م عاد تغلات فلصر فاحتل دمشق وتوابعها ، وكان قبل ذلك قد استولى على مملكة حماه التي امتدت غرباً إلى البحر الأبيض المتوسط (٣ ، ٢٣) وبالاستيلاء على آرام دمشق وحماه انتهت بذلك السيادة الآرامية في سورية إلى الأبد(٢) . وبهذا رأت شيزر غزاة آخرين جدداً ، وهم الآشوريين الذين بسطوا نفوذهم على سورية بأكملها(٢٣) . وفي عهد شلمنصر الخامس (٧٢٦– ٧٢٢ ق . م) وريث تغلات فلصر الثالث رفض هوشع ملك اسرائيل متابعة دفع الجزية له ، فقامت الجيوش الآشورية بمحاصرة العاصمة مدينة السامرة التي سقطت بين سنة ٧٢٢ و ٧٢١ ق . م بعد ثلاثة سنين من حصارها وذلك في عهد سرغون الثاني (٧٢١ -- ٧٠٥ ق . م)

الذي سبي الكثير من الإسرائيليين وقضى على مملكتهم نهائياً (٢ ، ٢٣) وأما السبايا بما فيها سبايا تفلات فلصر فقد وزعت في أعلى منطقة الخابور وحول نينوى ومدن ميديا في جبال زغروس التي كان استولى عليها الآشوريون مجدداً (٢٣) . وقد جلب الآشوريون قبائل من بابل وعيلام وسوريا وبلاد العرب لتحل محل الاسرائيليين المسبيين واسكنوها في السامرة ومنطقتها . فامتزج المستوطنون الجدد ببني اسرائيل ليشكلوا السامريين ، فاتحدت معتقداتهم الدينية بعبادة يهوه . ولكن الإنشقاق النهائي بين السامريين واليهود حصل حوالي سنة ٤٣٢ ق . م بعد عودة عزرا ونحميا من السبي حيث دافعا عن فكرة النقاوة العنصرية . فازداد العداء بين الفريقين . وقد بقيت الطائفة السامرية منعزلة مع العصور حتى وقتنا هذا حيث يمثلها مايقرب من مائتي شخص يعيشون في مدينة نابلس (٢) .

أصبحت يهوذا أكثر تعرضاً لهجمات الآشوريين بعد زوال مملكة إسرائيل وصارت تدفع لهم الجزية . ولكن ملكها حزقيا (٧٢١ — ٦٩٣ ق . م) اتبع سياسة التحدي ضد آشور بتحريض من مصر ، بالرغم من تحذير النبي اشعيا له . وهذا التحدي حمل سرغون وخلفه سنحريب (٧٠٤ — ٦٨١ ق . م) بحملات انتقامية ضد فينيقية والمدن الفلسطينية ويهوذا . وقد بلغت هذه الحملات ذروتها سنة ٧٠١ ق . م في حصار أورشليم . حصل ذلك بعد أن احتل سنحريب الساحل الفلسطيني جنوباً حتى حدود مصر . ولما علم بتقدم الجيوش المصرية نحوه أرسل فرقة لحصار أورشليم . وهنا يذكر سفر الملوك الثاني : « خرج ملاك الرب وضرب في تلك الليلة مائة ألف وخمسة

وثمانين ألفاً من جيش آشور (١١) . وربما كان ذلك هو الطاعون الذي أصاب جيش نابليون بونابارت في تلك المنطقة سنة ١٧٩٩ م (٢) لم تسقط أورشليم ولكن خُرِّبت مناطق الريف ، وهذا ماأدى إلى إضعاف يهوذا وتقلص رقعتها وإجبارها على دفع الجزية بانتظام إلى آشور (٢ ، ٢٣) التي بلغت أوج مجدها في عهد أسرحادون (٦٨٠ — ٦٦٩ ق . م) ثم عهد ابنه آشور باني بال (٦٦٨ — ٦٣٣ ق . م) حيث بسطت نفوذها على الهلال الخصيب بأكمله ، كما امتدت حدودها شرقاً إلى عيلام وجنوباً إلى مصر العليا (٢٣) . وبالرغم من وصول السيادة الآشورية أعلى مجدها جغرافياً في عهد آشور باني بال ، إلا أن الأوضاع السياسية في أرجاء الإمبراطورية كانت مكفهرة ، وهذا ما أدى بدوره إلى إنهيار الدولة الآشورية وزوالها كلياً بسرعة مذهلة في عهد خلفاء آشور باني بال . فالفوضى قامت على حدود المملكة في الشمال ، والميديون اتحدوا في الشرق ونجحوا بتأسيس مملكة قوية ، وفي الجنوب بدأت بابل تصعد نحو القوة على أيدي الكلدانيين (١٥) بعد سقوطها على يد مورسيل الأول الحثي في القرن السادس عشر قبل الميلاد واستيلاء الكاشيين عليها (٦ ، ٩) . وفي القرن الثالث عشر قبل الميلاد سيطر الآشوريون على بابل لمدة قصيرة . وفي القرن الثامن قبل الميلاد ، في عهد تفلات فلصر الثالث ، ضُمت بابل إلى الإمبراطورية الآشورية مع المحافظة على إستقلال ذاتي . ولكن بسبب سقوط المدينة بيد أوكين زر الكلداني هاجمها تفلات فلصر ثانية وتوج نفسه ملكاً عليها . وفي عهد سرغون الثاني (٧٢١ — ٧٠٥ ق . م) استولى الكلدانيون ثانية على بابل وأعلنوا مرداخ بالادان ملكاً عليها . وعندما انتهى

سرغون من حروبه مع السوريين والعيلاميين زحف نحو بابل فدخلها بدون مقاومة فطلب بالادان منه الأمان ، فسمح له أن يتابع حكمه عليها ولكن تحت السيطرة الآشورية . وفي عهد سنحريب ثار الكلدانيون ثانية فزحفت عليهم الجيوش الآشورية فاستولت على بابل ونصبت عليها ملكاً من أهلها يدعى بعل إبني . ولكن استمرار المقاومة البابلية أثار غضب سنحريب الذي سار إليها فنهبها ونصب إبنه اسرحادون حاكماً عليها . ولما اعتلى اسرحادون العرش أوصى بعرش آشور الى ابنه آشور باني بال وعرش بابل إلى ابنه شمش شم أوكن . ازدادت مشاكل الإمبراطورية بقيام إضطرابات في الشمال ، ودخول قبائل الإيرانيين الذين عُرفوا فيما بعد بالفرس ، عيلام ، وتمرد بابل ثانية ، وهذا دفع آشور باني بال لمهاجمة بابل مما إضطر أخوه على الإنتحار وتولية عامل مكانه . ولكن بعد موت آشور باني بال سنة ٦٢٦ ق . م قام كلداني يدعى نابوبولصر فأعلن نفسه ملكاً على بابل وأقام حلفاً مع الميديين (٦) . ويُعتبر نابوبولصر (٦٢٥ — ٦٠٥ ق . م) مؤسس الدولة البابلية الجديدة التي عرفت أيضاً بدولة الكلدان (٢ ، ٦) .

الكلدانيون : تابع نابوبولصر مناوشاته للآشوريين ، وكان يعتلي العرش آشور إتيل إيلاني ، الذي تلاه سين شوم ليشير ثم سين شار إشكون وقد دام حكمهم من ٦٣٣ إلى ٦١٢ ق . م . وفي سنة ٦١٤ ق . م سقطت مدينة آشور بيد الميديين بمساعدة البابليين . وفي سنة ٦١٢ ق . م سقطت نينوى العظيمة بيد نابوبولصر بمساعدة « كي اخسار » الميدي وكان يحكمها آنذاك سين شار إشكون . ولكن القوات البابلية لاحقت فلول الجيش الآشوري الذي إلتجأ آخر ملوكه آشور أباليت الثاني

(٦١١ ــ ٦٠٨ ق . م) إلى مدينة حران التي سقطت أيضاً بيد العدو (٢ . ٦ ؛ ١٠) . وبهذا زالت الدولة الآشورية من الوجود حيث قام أعدائها باقتسامها ؛ فالميديون أخذوا المناطق الواقعة في شرقي وشمالي الدجلة ، بينما أخذ البابليون المناطق الواقعة في الغرب منه وجنوبه وقد ختمت هذه الإتفاقية بين الميديين والبابليين بزواج أميتيس ابنة أستياجيس إبن كي اخسار إلى نبوخذنصر الثاني ابن نابوبولصر (٢) .
نتيجة سقوط نينوى تشجعت مصر على توسيع حدود إمبراطوريتها فاتجهت أنظارها ثانية نحو سورية ولذلك سار فرعون نخو على رأس جيش باتجاه الشمال فتصدى له يوشيا ملك يهوذا إذا كان يعتبر نفسه تابعاً لبابل ولكنه جرح بسهم في معركة مجدو (٦٠٩ ق . م) وقد كان جرحه مميتاً . ومن ثم تابع تقدمه شمالاً إلى كركميش عن طريق حماه لمساعدة آشور أوباليت لاستعادة حران . ولكن البابليين تصدوا له بقيادة نبوخذ نصر ، الذي كان لايزال قائداً لجيش والده نابوبولصر ، فانهزم أمامهم إلى ماوراء الفرات الذي أصبح الحد الفاصل بين بابل ومصر . وبالرغم من فشل نخو في هذه المعركة إلا أن نفوذه في سوريا وفلسطين استمر لعدة سنين . وعندما اعتلى نبوخذنصر العرش (٦٠٥ ــ ٥٦١ ق . م) وصلت المملكة البابلية الجديدة مجدها في عهده فورثت معظم دولة آشور كما بسطت نفوذها على سورية وفلسطين وبهذا امتدت حدودها في الشرق والشمال إلى دولة الميديين وفي الجنوب إلى مصر (٢٣) .

كانت مصر منافسة لبابل ، وكانت يهوذا تتردد بين سياسة الخضوع لها وبين سياسة التحالف مع مصر . وهذا مما جعل نبوخذنصر

يهاجمها مراراً حتى حدث أن صدقيا بن يوشيا (٥٩٧ ـ ٥٨٦ ق . م) الذي كان نبوخذنصر قد عينه ملكاً على قومه تمرد على بابل بايعاز من مصر مما حدا بنبوخذنصر أن يحاصر أورشليم إذ سقطت بيده سنة ٥٨٧ ق . م فخربها مع هيكلها كما هدّم كل مدينة مهمة في يهوذا ثم سبى أهلها وحملهم إلى بابل . وفي سنة ٥٨٢ ق . م أتم نبوخذ نصر السيطرة على جيران يهوذا باستثناء صور التي قاومت حتى سنة ٥٧٢ ق .م إذ استسلمت له . وهكذا أصبحت سورية كلها مستقرة في أيدي الكلدانيين (٢ ، ٢٣) . وبذلك رأت شيزر حكاماً جدداً آخرين .

ولكن المملكة البابلية الجديدة كُتب لها أن تلاقي حتفها أيضاً . فبعد موت نبوخذنصر سنة ٥٦١ ق . م تبعه على العرش إبنه اميل مرداخ (٥٦١ ـ ٥٦٠ ق . م) الذي اغتيل من قبل صهره نركال شاروسور (٥٥٩ ـ ٥٥٦ ق . م) الذين تبع ابنه لباشي مرداخ الذي أغتيل أيضاً بعد بضعة شهور من قبل نابونيدس (٥٥٦ ـ ٥٣٨ ق . م) الذي أشرك معه في الحكم ابنه بلشاصر . وفي سنة ٥٣٨ ق . م انهارت السلطة البابلية وسقطت عاصمتها بابل بيد كورش (لمسايروس) الفارسي (٢ ، ٢ ، ٦ ، ٢٣) . وبهذا انقضت أيام الإمبراطوريات السامية ومختلف ملوكهم وجيوشهم اللائي رأت شيزر الكثير منهم في مختلف العصور . وقد تلا الساميين في سورية غزاة جدد والذي بهم بدأ العصر الهندي ـ الأوربي الذي استولى حتى الفتح العربي وذلك بعد ألف عام من بدئه .

الفرس : وهم من الشعوب الآرية ، وقد أتوا إلى مرتفعات زغروس نحو عام ١٥٠٠ ق . م . وكان أهم هذه القبائل الميديون

والفرس الذين أتوا من منطقة بارسو الواقعة غربي بحيرة أرميه .
فالميديون استقروا في الشمال والشمال الشرقي من جبال زغروس واتخذوا عاصمة لهم اكبتانا (همذان) وقد أسسها ديوسيس الذي تلاه إبنه كي إخسار الذي اشترك مع نابوبولصر بالقضاء على دولة آشور . . بينما استقر الفرس شرقي وشمال شرقي الخليج العربي .
وحوالي ٧٠٠ق . م كانت زعامة الفرس لأخمينيس . وفي سنة ٦٤٠ ق . م أصبح تأسيس ملك الفرس الذين سموا المنطقة التي سكنوها فارسوماش . وقد وسع تأسيس ممتلكاته على حساب العيلاميين .
وفيما بعد قسم مملكته بين ولديه أرياراضا وكورش الأول (٦٤٠ – ٦٠٠ ق . م) وفي عهد قمبيز الأول (٦٠٠ – ٥٥٩ ق . م) توسع الفرس الأخمينيون إذ احتلوا المزيد من عيلام . وأرض عيلام قد رأت مجموعة من الممالك أغلبها كان خاضعاً لحكام من بلاد مابين الرافدين وذلك من سرغون إلى الكاشيين ، والتي في عهد الكاشيين سقطت بيد نبوخذنصر الأول .

وكان الفرس يخضعون للميديين حتى عهد قمبيز الذي تزوج ماندان إبنة استياج ملك ميديا . وكورش الثاني العظيم كان ابن قمبيز وماندان ، وقد أتى إلى العرش الفارسي سنة ٥٥٩ ق . م . ولكن استياج توقع ثورة الفرس ضد نفوذه ، فقرر الزحف عليهم ولكن جيشه عصاه ، وهذا مامكن كورش من دخول عاصمة الميديين .
وكانت نتيجة هذا الحدث أن تغيّر الوضع السياسي في شرقي دولة بابل إذ تبلور تصنيف القوى السياسية بشكل وضع الفرس في الطليعة وميديا في المرتبة الثانية وعيلام في المرتبة الثالثة . وبعد ذلك توسع

كورش في آسيا الصغرى إذ قهر ليديا في الجزء الغربي مما هو تركيا اليوم (٢) . وفي سنة ٥٣٩ تغلب على بابل وبهذا أصبح الفرس القوة الرئيسية في الشرق الأوسط (٢) . وجد كورش في مدينة بابل جالية يهودية يعود أصلها إلى سبي نبوخذنصر . وقد يُحتمل بأن أفراد هذه الجالية كانوا قد ساعدوه على إحتلال المدينة . وفيما بعد أصدر كورش مرسوماً يخوّل اليهود الرجوع إلى فلسطين . وقد يعزو أن الملك الفارسي قد تصور أن وجود طائفة يهودية في فلسطين تدين وجودها لإحسانه قد تشكل توازناً فعالاً تجاه الحزب الموالي للمصريين . وبما أن سياسة كورش هذه تعاكس سياسة نفي الشعوب التي اتبعها الآشوريون والكلدانيون ، فإن أنبياء اليهود اعتبروه كمخلص أرسله الله (٢ ، ١٢) . وفي سنة ٥٣٧ ق . م عاد من سبايا اليهود إلى يهوذا مايقرب من ٤٢,٠٠٠ شخصاً (٢ ، ٣ ، ١٤ ، ٢٣) . ولكن أغنياء المسبيين فضلوا البقاء . وكانت أهم مراكزهم على الخابور . وقد قاوم هؤلاء الإندماج بالسكان المحليين . وكانوا أول من عُرفوا بالدياسبورا أي اليهود المقيمين خارج فلسطين . وكلمة يهودي تعني بالأصل أحد أفراد قبيلة أو مملكة يهوذا ؛ وقد أطلقت بعد ذلك على أي فرد من اليهود الذين رجعوا من السبي ، كما شملت أخيراً كل أفراد هذا الشعب في العالم . أما كلمة اسرائيلي فتشير إلى أي فرد من نسل اسرائيل أي يعقوب ولاتزال كلمة عبراني أشمل تعبيراً وتضم كل الاسرائيليين (٢) . وبعد مقتل كورش في إحدى حملاته العسكرية اعتلى العرش إبنه قمبيز (٥٢٩ — ٥٢٢ ق . م) ، الذي حارب المصريين وأخضعهم لنفوذه ؛ وبهذا أصبح للفرس أكبر إمبراطورية عرفها

الشرق القديم : إذ وصلت حدودها شرقاً إلى الهند وغرباً إلى اليونان وجنوباً إلى مصر وليبيا وقد شملت بذلك سورية (٢، ٢٣). وبهذا أضيف إلى لائحة الغزاة الذين رأتهم شيز رغزاة" آخرون. أصيب قمبيز بالجنون. فانتحر على أثر ذلك وهذا ماحدا بملوك البلاد المحتلة للقيام بمحاولات انفصالية. ولكن الإمبراطورية أنقذت على يد داريوس الأول (٥٢٢—٤٨٥ق.م). وهو أحد أمراء العائلات الأخميدية (٢). قام داريوس بتنظيم الإمبراطورية إدارياً، فقسمها إلى ثلاثة وعشرين مقاطعة تسمى كل منها مرزبانة. ثم جعل عاصمة ملكه كل من سوزا وبابل ثم أضاف عاصمة ثالثة هي برسبوليس (٢). كان داريوس أول من بدأ النزاع مع بلاد اليونان. ومن بعده تابع ابنه احشويرش (٤٨٥ — ٤٦٥) هذا النزاع. واحشويرش هذا تزوج إلى عشتار اليهودية التي كشفت مؤامرة ضده وضد شعبها في مدينة سوزا (٢٤). تلا احشويرش ارتحشستا الأول (٤٦٥ — ٤٢٤ ق. م)، الذي حذا حذو كورش فسمح بعودة فريقين متتاليين من اليهود المسبيين إلى فلسطين. وقد تمتع هؤلاء بعد عودتهم بالحكم الذاتي. وفي هذه الفترة، وذلك في عهد نحميا الذي ترأس أحد فرق السبايا العائدة لم تعد اللغة العبرية تستعمل كلغة دارجة، وإنما حلت محلها اللغة الآرامية، بينما صارت العبرية تستخدم كلغة دينية (٢). تلى أرتحشستا على العرش الفارسي داريوس الثاني (٤٢٣ — ٤٠٥ ق. م) وأرتحشستا الثاني منيمون (٤٠٤ — ٣٥٩ ق. م)، وأرتحشستا الثالث أوكاس (٣٥٨ — ٣٣٨ ق. م)، وأرسيس (٣٣٧ — ٣٣٦ ق. م) وداريوس الثالث (٣٣٥ — ٣٣١ ق. م) الذي لاقت الإمبراطورية الفارسية حتفها في عهده على يد اسكندر المكدوني (٢)

الذي جلب اليونان إلى سورية إذ أنشؤوا بها دولة قوية زاهرة دامت حتى العصر الروماني .

شيزر في العصر اليوناني

زحف اليونانيون بقيادة إسكندر المكدوني في ربيع عام ٣٣٤ ق .م فعبروا الهلسبونت في مضيق الدردنيل وانساحوا في آسيا الصغرى وهي جزء من الإمبراطورية الفارسية آنئذ ، وما كادوا يخرجون من مضائق كيليكيا حتى اشتبكوا مع الجيش الفارسي بقيادة داريوس الثالث (٣٣٦ – ٣٣٠ ق . م) في معركة إيسوس سنة ٣٣٣ ق م شمالي مدينة اسكندرون بالقرب من ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وكان النصر فيها للمكدونيين . وتخليداً لهذا الإنتصار أسس الإسكندر مدينة الإسكندرونة (٢) . التي لاتزال تحمل اسمه حتى الآن ، وهي من المدن الساحلية الجميلة في لواء اسكندرون السليب . لم يتابع اسكندر عدوه الهارب . بل اندفع باتجاه الجنوب على طول الساحل ، بينما أنفذ قائده بارمينو مع مفرزة على طول وادي العاصي لاحتلال دمشق ، مقر قيادة الفرس في سورية (٢) . ولا شك بأن بارمنيو قد احتل شيزر . بعد السيطرة على الساحل السوري دخل الإسكندر مصر وأخضعها لنفوذه ، ثم عاد ثانية إلى سورية في ربيع ٣٣١ ق . م . وكانت الطريق التي سلكها تمر عبر سورية المجوفة (وادي البقاع) ووادي العاصي وسار شمالاً حتى بلغ الفرات عند ثاباكُس . وقد أمر أن تشيد بجوارها مدينة يرجح أن قائده سلوقس نيقاتور قد أكمل بناءها وأطلق عليها نيقفوريوم وهي الرقة اليوم . وبعد أن إجتاز بلاد الرافدين اشتبك

مع الفرس وهزمهم ثانية في السهل الواقع بين نينوى وأربيلا شرقي نهر الدجلة . وبعد تقدم نحو العواصم الثلاث التي اتخذها أباطرة الفرس مقراً لهم وهي بابل وسوزا وبرسابوليس فدخلها ونهب كنوزها كما أحرق قصر داريوس انتقاماً لتدمير احشويرش المعابد اليونانية في أثينا .من برسابوليس توجه الإسكندر سنة ٣٣٠ق.م إلى اكتبانا (همذان) عاصمة ميديا وقد كان بها داريوس الذي فرَّ منها هارباً حيث أغتيل من قبل بعض المتآمرين . سُمح للإسكندر الحصول على الجثة فأرسلها إلى برسابوليس لتدفن باحتفال ملكي . اعتبر الإسكندر الآن نفسه الوارث الشرعي لآخر ملك فارسي . بعد ذلك اتجه الفاتح اليوناني إلى بلاد الهند حيث بدأ التذمر بين ضباطه وجنوده المنهوكين ، فعاد راجعاً إلى بابل حيث توفي في الحمى في قصر نبوخذنصر في حزيران سنة ٣٢٣ ق . م قبل أن يتم الثالثة والثلاثين من العمر تاركاً وراءه سجلاً فريداً من الإقدام والحيوية (٢) . ويبدو ذكره في القرآن كأنه مكلف برسالة إلهية كما تتلو سورة الكهف : « ويسألونك عن ذي القرنين قُل سأتلو عليكم منه ذكراً — إنّا مكّنّا له في الأرض وأتينه من كل شيءٍ سبباً . . . قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يُردُّ إلى ربه فيعذبه عذاباً نُكراً ، وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحُسنى وسنقول له من أمرنا يُسراً » (١٥) . لقد أتاح الإسكندر الفرصة لإمتزاج الأفكار والمؤسسات اليونانية والشرقية ، كما أنه حاول وذلك على عكس إحشويروش الفارسي ، أن يصل أوربا وآسيا

ليس بالروابط الجامدة بل بروابط الحب الشريف والزواج الطاهر والنسل المشترك . ولتحقيق سياسته المدروسة بقصد تقارب وثيق بين الشرق والغرب ، قام بوضع منهاج إنشاء المدن لتشكيل مراكز لسُكنى المحاربين المُسَرحين وزرع نقاط استراتيجية على خطوط المواصلات ، وخلق مراكز لنشر التأثير الهيليني . بعد موت الإسكندر تمزقت الإمبراطورية المكدونية المترامية الأطراف بين قواده الذين تسابقوا للفوز بأحسن أقسامها . وقد أدّى هذا التسابق إلى حروب طويلة ودامية برز منها أربعة قواد على رأس أربع دول ، وهم : بطليموس في مصر ، وسلوقس نيقاتور في مرزبانة بابل ، وأنتيغونس في آسيا الصغرى وأنتيباتر في مكدونيا (٢) . وقد ذُكرت هذه الأحداث في التوراة بشكل نبوءة للنبي دانيال الذي عاش في أيام الملك الكلداني بيلشاصر (٥٥٦ – ٥٣٨ ق . م) والنبوءة تقول عن لسان دانيال : « ورأيت في الرؤية وأنا عند نهر أولادي ، فرفعت عيني ورأيت وإذا بكبش واقف عند النهر وله قرنان (وهو ملك فارس) . . . ورأيت الكبش ينطح غرباً وشمالاً وجنوباً فلم يقف حيوان قدامه . . وبينما كنت متأملاً إذا بتيس من المعز جاء من المغرب على وجه الأرض . . وللتيس قرن معتبر بين عينيه (وهو الإسكندر) . . وجاء إلى الكبش . . . فاستشاط عليه وضربه فكسر قرنيه ، فلم تكن للكبش قوة على الوقوف أمامه على الأرض وداسه ولم يكن للكبش منقذ . . . فتعظم تيس المعز جداً ولما أعزّ انكسر القرن العظيم وطلع عوضاً عنه أربعة قرون . . . (١٦) . وهذه القرون تمثل قواد الإسكندر الأربعة . ويعتبر سفر دانيال من القسم الثالث من التوراة التي بدأت

أحداثه بسبي اليهود إلى بابل في القرن السادس قبل الميلاد . وقد دوّن كتبة اليهود هذا الجزء من التوراة بأسلوب يمجد قادتهم ويجعلهم صفوة الأقوام البشرية (٥٠) .

كان سلوقس نيقاتور (٣١٢ ــ ٢٨٠ ق . م) أقدر هؤلاء القادة الأربعة . لم تكن سورية وفلسطين في حوزته لدى إقتسام الإمبراطورية لأنهما ألحقتا بآسيا الصغرى . ولكن بطليموس تغلب في عام ٣١٢ ق . م بمساعدة سلوقس على أنتيفونس في غزة وضم فلسطين إلى مقاطعته المصرية . وفي السنة ذاتها استرجع سلوقس بابل بعد أن كان قد خسرها . وفي سنة ٣٠١ ق . م أحرز سلوقس نصراً آخر على أنتيغونس في ايبسوس في فريجيا الكبرى في غربي آسيا الصغرى . ونتيجة ذلك حصل على القسم الشرقي كله من آسيا الصغرى بالإضافة إلى سورية من الفرات حتى البحر الأبيض المتوسط . وأصبحت أنطاكية التي بناها على العاصي وسماها باسم والده انطيوخس . مقر حكومة سورية . وتعتبر سنة ٣١٢ ق . م بدء الدولة السلوقية في سورية التي وسع سلوقس حدودها في الشرق فشملت فارس حتى نهر جيحون في الشمال والسند في الجنوب . وتوسع غرباً في آسيا الصغرى ثم عبر الهلسبونت في أواخر سنة ٢٨١ق.م لضم مكدونيا . التي أصبح عرشها شاغراً بعد موت ليسيماخوس . غير أن سلوقس قتل هناك ، وقد نقل جثمانه إلى سورية إذ دُفن في سلوقية (السويدية اليوم) الواقعة غربي أنطاكية على البحر المتوسط . والتي أصبحت من ثم مدفن السلالة (٢) .

كان سلوقس قد اتبع سياسة نشر الهيلينية التي وضعها الإسكندر . فشيّد مالا يقل عن ست عشرة مدينة تحمل اسم والده انطيوخس وتسع

مدن تحمل اسمه وخمسة تحمل اسم أمه لاو ديسا وإحداها اللاذقية وثلاثة باسم زوجته الباكترية آباما (٢) . وإحداها أفاميا . وقد كانت أفاميا مركزاً عظيماً في المملكة السورية فقد كان فيها الجيش والخزينة الحربية واصطبلات تضم مايزيد على ٣٠.٠٠٠ فرس و ٣٠٠ حصان كما كانت تُربى وتُدرب فيها الفيلة الحربية (٢) . ولكن الحروب المتتالية والزلازل المتكررة أحالتها إلى خرائب مبعثرة (صورة) ولم يبق منها قائماً سوى قلعتها الإسلامية التي تُعرف اليوم بقلعة المضيق وهي لاتزال مأهولة بالسكان (صورة) ومن المدن الأخرى التي أشادها السلوقيون أريثوزه (الرستن) على العاصي ودورا — أوروبس (الصالحية) على الفرات وقد أشادها سلوقس الأول حوالي ٣٠٠ق.م(٢). لم يقتصر السلوقيون على إنشاء المدن بل غيّروا بعض أسماء المدن الأخرى من سامية إلى هلنستية ؛ فحماه سُمّيت أبيغانيا وذلك على شرف أنطيوخس الرابع أبيغانس . كما بُدّل اسم شيزر إلى لاريسا نسبة لإحدى المدن في مقاطعة تساليا في اليونان . وقد استوطن شيزر مهاجرون من تساليا . كانت هذه هي الحال في مختلف مدن المستعمرات التي أصبحت يونانية لغة وحكومة . وقد حصل بعض المهاجرين على زوجات من بين السكان الوطنيين (٢) .

قسّم السلوقيون دولتهم إلى وحدات إدارية سُميت بالاسم الفارسي مرزبانة . فسوريا قُسّمت إلى ثماني مرزبانات . أربع في الجنوب وأربع في الشمال . وقد تجمعت الولايات الشمالية حول أربع مدن . وهن : أنطاكية ، وسلوقية وأفاميا . واللاذقية . وقد قُسّمت كل مرزبانة إلى مقاطعات إدارية . فشيزر كانت تابعة إلى

أفاميا ، وذلك لأنه سُمح للمدن المرموقة بنوع خاص أن تسيطر على المقاطعات المجاورة (٢(. وكمقاطعة ، فقد كان لشيزر أهمية سياسية ، ففي سنة ١٤٢ ق . م قام تريفون المغتصب بالإعتماد على لاريسا (شيزر (وبعض المراكز المجاورة باعلان نفسه ملكاً على أفاميا وما جاورها (٢٥(.

تناوب على العرش السلوقي في سورية ما يقرب من سبعة وعشرين ملكاً ، استمر حكمهم من سنة ٣١٢ – ٦٤ ق . م . شهدت سورية خلال هذه الفترة وحدة تامة على كلا الصعيدين الجغرافي والسياسي وليس هنالك ما يضاهي هذه الفترة في التاريخ السوري ويمتاز عنها سوى العصر الأموي ، الذي يعتبر العصر الذهبي لسورية ، وقد شهد العرش السلوقي فترات من العظمة وأخريات مليئات بالدسائس ، ومن هؤلاء الملوك :

١– سلوقس الأول نيقاتور	٣١٢ – ٢٨٠ ق.م
٢– أنطيوخس الأول سوتر	٢٨٠ – ٢٦١ ق.م
٣– أنطيوخس الثاني تيوس	٢٦١ – ٢٤٦ ق.م
٤– سلوقس الثاني كالينيكوس	٢٤٦ – ٢٢٦ ق.م
٥– سلوقس الثالث كرونوس (ابن سلوقس الثاني (	٢٢٦ – ٢٢٣ ق.م
٦– أنطيوخس الثالث الكبير (ابن سلوقس الثاني (	٢٢٣ – ١٨٧ ق.م
٧– سلوقس الرابع فيلوباتر (ابن أنطوخس الثالث (	١٨٧ – ١٧٥ ق.م

٨ ـ انطيوخس الرابع ابيفانس (ابن انطيوخس الثالث)	١٧٥ ـ ١٦٤ ق . م
٩ ـ انطيوخس الخامس يوباتر (ابن انطيوخس الرابع)	١٦٤ ـ ١٦٢ ق . م
١٠ ـ ديمتريوس الأول سوتر (ابن سلوقس الرابع)	١٦٢ ـ ١٥٠ ق .م
١١ ـ اسكندر الأول بالاس (ابن انطيوفس الخامس)	١٥٠ ـ ١٤٦ ق . م
١٢ ـ ديمتريوس الثاني نيقاتور (ابن ديمتريوس الأول)	١٤٦ ـ ١٣٨ و ١٢٨- ١٢٥ ق . م
١٣ ـ انطيوخس السادس تيوس (ابن اسكندر الأول)	١٤٤ ـ ١٤٢ ق . م
١٤ ـ تريفون (المغتصب)	١٤٢ ـ ١٣٧ ق . م
١٥ ـ انطيوخس السابع سيد تيس (ابن ديمتريوس الأول)	١٣٧ ـ ١٢٨ ق . م
١٦ ـ اسكندر الثاني زابيناس (ابن تاجر)	١٢٨ ـ ١٢٢ ق . م
١٧ ـ سلوقس الخامس (ابن ديمتريوس الثاني)	١٢٥
١٨ ـ انطيوخس الثامن غريبوس (ابن ديمتريوس الثاني)	١٢٥ ـ ٩٦ ق . م
١٩ ـ انطيوخس التاسع سيزيكينوس (ابن انطيوخس السابع)	١١٢ ـ ٩٦ ق . م

٢٠ ـ سلوقس السادس ابيفانس (ابن انطوخس الثامن) — ٩٦ ـ ٩٣ ق . م

٢١ ـ أنطيوخس العاشر يوسيبوس (ابن انطيوخس التاسع) — ٩٤ـ٩٢ق.م(في انطاكية)

٢٢ ـ انطيوخس الحادي عشر ابيغانوس (ابن غريبوس) — ٩٥ ـ ٩٤ ق.م

٢٣ ـ فيليب الأول فيلادلفوس (ابن غريبوس) — ٩٢ ـ ٨٣ ق . م

٢٤ ـ ديمتريوس الثالث تيوس (ابن غريبوس) — ٩٥ ـ ٨٨ ق . م

٢٥ ـ أنطيوخس الثاني عشر ديونيسوس (ابن غريبوس) — ٨٨ ـ ٨٤ ق . م

٢٦ ـ أنطيوخس الثالث عشر الآسيوي (ابن يوسيبوس) — ٦٩ ـ ٦٥ ق . م

٢٧ ـ فيليب الثاني (ابن فيليب الأول) — ٦٨ ـ ٦٤ ق .م(٢ ؛ ٢)

بعد سلوقس الأول كادت الإمبراطورية أن تنهار في عهد الأوائل فمن تلاه من الملوك ؛ فبطليموس أورجيتس ملك مصر هاجم أنطاكية واحتلها ، ولكن الإضطرابات الداخلية في مصر أوجبت عودته ، كما قام الفرتيون في الجنوب الشرقي من بحر الخزر بمحاولة التخلص من المملكة السورية فتغلب ملكهم أرشاق بعد سنة ٢٤٠ ق . م على سلوقس الثاني (٢٤٦ ـ ٢٢٦ ق . م) وعندما اعتلى أنطيوخس الثالث العرش (٢٢٣ ـ ١٨٧ ق . م) استعاد مافقدته الإمبراطورية السلوقية من

المقاطعات في عهد أسلافه ولهذا لُقّبَ بالكبير (٢٠٢) وفي فترة حكمه قدم إلى بلاطه وفد من روما يحذره من التعرض لمصر إذ كان قد هزم في سنة ١٩٨ ق . م القوات المصرية في الجولان في بانياس التي وردت في الإنجيل باسم قيصرية فيليبي . وبانياس كانت قد شُيّدت في منطقة مقدسة مكرسة لعبادة الإله اليوناني بان (٢) . وفي هذا الوقت بالذات التجأ هانيبال إلى سورية يحرّض انطيوخس على مهاجمة روما . تجرأ انطيوخس لدخول حرب ضد الرومان حيث كانوا يتوسعون في الأراضي اليونانية ، ولكنه أصيب بهزيمتين الأولى سنة ١٩١ ق . م والثانية سنة ١٨٨ ق . م ونتيجة ذلك اضطر للتخلي عن ممتلكاته فيما وراء جبال طوروس نهائياً ودفع غرامة حربية ضخمة لروما (٢) . وبالرغم من الجزية الثقيلة عادت سورية لاتباع خطة الهجوم ، حيث هاجم انطيوخس الرابع (١٧٥ — ١٦٤ ق . م) مصر وأسر ملكها بطايموس فيلوميتر الذي كان ينوي الإستيلاء على البقاع . ولكن أنطيوخس اضطر بضغط من روما للإنسحاب من مصر (٢) .

تابع انطيوخس الرابع نشر الهيلينية ، ولكنه ذهب أبعد مما يجب : إذ بلغ منه أن أعلن نفسه إلهاً أو الإله الظاهر (تيوس أبيغانس) . وبما أن آلهة السوريين لم تكن غيورة فقد منحت أتباعها امتياز عبادة الملك ، ولكن الأمر كان يختلف بالنسبة لإله اليهود . فبالرغم من تجاوب الارستقراطية اليهودية الإيجابي للهلينية، إلا أن المتمسكين بأصول الديانة النموميين بين اليهود كانوا متحدين في معارضتهم الهلينية وتلويث المعبد . الذي كان أنطوخس قد أقام به مذبحاً للإله

رفس وبتمسكهم بالتوحيد . وفي سنة ١٦٨ ق . م نشبت الثورة المكابية بقيادة يهوذا بن ماتاتياس إلهاً سموي . قام المكابيون بحرب عصابات وقد تمكنوا من احتلال أورشليم ومعبدها وإعادة الذبائح اليومية . ولتخليد هذه الذكرى أقيم عيد هنوكة (التكريس) ، الذي لايزال يحتفل به سنوياً منذ ذلك الحين (٢ ، ٢٢) . وقد تطورت الحركة المكابية من دينية إلى سياسة إذ أجبرت الملك السلوقي ديمتريوس الثاني نيقانور (١٤٦ - ١٣٨ ق . م) إلى منح اليهود الاستقلال تحت حكم سمعان شقيق يهوذا ، وهكذا ولدت جمهورية يهودية دامت حتى مجيء الرومان بعد ثمانين سنة (٢) .

لم يكن اليهود وحدهم الذين كانوا يضغطون على المراكز التي تنهار فيها السلطة السلوقية ، بل أخذت فريتا وبكتريا والبلاد البعيدة في الشرق تستعيد استقلالها . كما أن بعض القبائل العربية المجاورة كالأنباط تغتنم مناسبة الضعف السلوقي لتقوي وجودها . وفي سنة ١٣٠ ق . م قامت بعض السلالات العربية بجعل شيوخها حكام دول صغيرة ، ففي الرها قامت إحداها بتأسيس مملكة يتسمى ملوكها باسم أبجر ، كما قامت أخريات في حمص وتدمر . كذلك توطدت دولة وطنية أخرى من الايتوريين في البقاع واتخذت كالسيس (عنجر) عاصمة لها (٢ ، ٢٢) . والايتوريون ينسبون إلى يطور ، وهو من أحفاد إبراهيم الخليل من ابنه اسماعيل كما ورد في التوراة في سفر أخبار الأيام (١٧) كان خلفاء أنطيوخس الرابع عاجزين عن المحافظة على الإمبراطورية وذلك لكثرة الثورات والإنشقاق الداخلي والنزاع العائلي ، وهذا ماأدى إلى اضمحلالها وتقلص رقعتها إلى دولة محلية في شمالي سوريا (٢) . وخلال الضعف السلوقي أصبح الأنباط العرب

قوة هامة . فكانوا قد طردوا بقايا الأدوميين من منطقة البتراء في الأردن قبل ٣١٢ ق . م . ثم انتزعوا سوريا المجوفة حوالي ٨٥ ق . م من السلوقيين . كما وضعت دمشق نفسها تحت حمايتهم لتجنب مصيراً أسوأ فيما لو وقعت في أيدي الأيتوريين الذين كانوا آنذاك يكتسحون الساحل الفينيقي . وفي شرقي الامبراطورية وسع الفريقون ملكهم الذي امتد سنة ١٣٠ ق . م من الفرات إلى السند ومن جيحون حتى المحيط الهندي . أما في الغرب فقد وقف في وجه الجيوش الفرتية الملك تيغرانس (ديكران) الأرمني وحموه متّرداتس الكبير ملك البونت . وقد اكتسح تيغرانس بلاد الرافدين . وفي سنة ٨٣ ق . م اجتاح سوريا الشمالية وكيليكية التي كانت لاتزال تحت حكم السلوقيين والتي كان سكانها يشبهون الآراميين . وكان ملوك السلوقيين في تلك الفترة فيليب الأول فيلادلفوس وانطيوخس العاشر يوسيبوس وقد وصل تغرانس جنوباً حتى عكا حيث احتلها سنة ٦٩ ق . م وبهذا هدد المملكة اليهودية ومصر (٢) ونتيجة لهذا التوسع أتى على حكم شيزر قوم لاعهد لها بهم . وفي سنة ٦٩ ق . م اضطر تغرانس لسحب حاميته من سورية ليواجه روما التي كانت قد أعلنت الحرب عليه عند رفضه لتسليمها حموه ميتْرُداتس الذي كان التجأ إليه بعد أن هزمته الجيوش الرومانية في آسيا الصغرى . ولم تمض مدة حتى استرجع متّرداتس العرش الذي فقده . ولكن في سنة ٦٤ ق . م سار إليه بومبي وهزمه . وفي نفس العام تقدمت الجيوش الرومانية واحتلت سورية (٢) .

شيزر في العصر الروماني

بعد الاحتلال الروماني سنة ٦٤ ق . م جعل بومبي سورية الجغرافية والتقليدية كلها ولاية واحدة عاصمتها أنطاكية وسماها ولاية سورية . فسمح للملوك العرب كملك دمشق النبطي وملك اذيسا وملك حمص وغيرهم بالبقاء مقابل دفع الجزية . كما أبقى اليهودية دولة خاضعة ضمن إطار ولاية سورية . ولكن المدن ذات الدساتير اليونانية والتي ضمها اليهود إلى ممتلكاتهم أعيدت إلى وضعها السابق وعلى الإجمال فان الجماعات المحلية في سوريا من يونان وآراميين وعرب احتفظوا بأنظمتهم السابقة . فالعرب عاشوا في أكثر من نظام واحد . ففي حمص كان الحكم بيد الملوك الكهنة ، وعلى حافة الصحراء كان طراز المعيشة لايزال بدوياً . وفي هذه الفترة أصبح السوريين يتكلمون اللغة الآرامية ويكتب مثقفوهم باليونانية . ومن بين العرب كان الايتوريون في شمالي فلسطين والأيدوميون الذين تهودوا اسمياً واستقروا في جنوبي غرب فلسطين وكانوا يتجهون إلى تبني الآرامية. أما العرب البداة فتمسكوا بلغتهم العربية ، بينما استمر الأنباط في الجنوب (في الأردن) في استعمال العربية في كلامهم والآرامية في كتاباتهم الأثرية ، وكان هؤلاء من بين جميع العرب أوثق الصلات مع الرومان (٢) .

تحولت سورية من مملكة إلى ولاية ذات أهمية مركزية هامة في الممتلكات الرومانية الآسيوية ، حتى أنها وُضعت تحت الحكم المباشر لنائب قنصل روماني يتمتع بسلطات تجنيد الجيوش والإشتراك في الحروب (٢) .

بعد افتتاح سورية عاد بومبي سنة ٦١ ق . م إلى روما التي كانت مسرح نزاع بين الطبقة الارستقراطية والتجار من جهة ودعاة الإصلاح الإجتماعي . وبعد عودة بومبي تشكلت حكومة إئتلافية سميت الحكومة الثلاثية الأولى وتشكلت من عضوية بومبي وكراسوس عن الإرستقراطية وقيصر عن دعاة الإصلاح . وبسبب أهمية الشرق ، أرسل كراسوس حاكماً على سورية سنة ٥٤ ق . م حيث جعل منها قاعدة حربية ضد فريتا (بلاد الفرس) التي كانت عاصمتها طيسيفون (المدائن) (٢ ، ٢٦) . وكان كراسوس قد نهب كنوز هيكل القدس لتموين حروبه ضد الفرتيين ، الذي كان يرى أن نصراً له فيها شيء ضروري كي يضاهي انتصارات خصمه قيصر في بلاد الغال . ولكن كراسوس قتل في إحدى المعارك فخلفه كاشيوس الذي كان فيما بعد أحد قتلة قيصر . عاد قيصر إلى روما سنة ٤٩ ق . م وقد كانت عودته مع جيشه غير مشروعة حسب القانون الروماني الذي كان يمنع القواد الرومان عبور حدود روما مع جيوشهم بدون موافقة مجلس الشيوخ . استنجد المجلس ببومبي لإيقاف قيصر . ولكن بومبي فرّ هارباً مع أتباعه إلى اليونان لمقاومة قيصر عن طريق تأسيس جبهة بالإشتراك مع بقية المقاطعات الشرقية التي كان يسيطر عليها حكام موالون للحزب الجمهوري حزب الارستقراطية المعادية لقيصر . فسوريا كان فيها

كاشنوس خازن مالية كراكوس . ومصر كان يملك عليها بطليموس الثامن بوصية من بومبي . وقد أراد بطليموس الإنفراد بالسلطة لنفسه فقام بابعاد أخته كليوباطره التي كان لها من العمر آنئذ ٢١ سنة . حاول القيصر إثارة المتاعب لبومبي عن طريق تعيين حكام موالين له في اليهودية . ولكن محاولته كانت فاشلة . ولكن في السنة التالية (٤٨ ق . م) كانت الأقدار بجانب قيصر الذي تغلب على بومبي في معركة سيسالي . أدت هذه الهزيمة إلى فرار بومبي من اليونان ولجوئه إلى مصر. ولكن بطليموس الذي كان يريد أن يحكم مصر بدون مشارك أمر مبعوثيه أن يقتلوا بومبي . أدى مقتل بومبي إلى إضعاف الشرق . وكان في ذلك الفرصة التي كان يتربصها قيصر . الذي أسرع بالذهاب إلى مصر حيث قبض على بطليموس ووضعه تحت الإقامة الجبرية . وخلال وجوده في مصر وقع قيصر في حبائل علاقة عاطفية مع كليوباتره . ثم وجد نفسه شبه أسير في الإسكندرية يحيط به جيش من المصريين . وبقي هنالك قيد الحجز إلى أن أنقذته قوات من اليهودية . وبعد عودته إلى روما أغتيل سنة ٤٤ ق . م وكان من جراء اغتياله أن عمّت الفوضى أرجاء الإمبراطورية الرومانية (٢٦) . ولكن في سنة ٤٣ ق . م تشكلت حكومة ثلاثية مؤلفة من مارك أنطونيو وأوكتافيان (أوغسطس فيما بعد) وليبيداس التي انتقمت من قتلة قيصر وسحقت قواتهم بقيادة بروتوس وكاشيوس في معركة فيليبي سنة ٤٢ ق . م (٨) . تلا هذه الأحداث تقسيم العالم الروماني من قبل الحكومة الثلاثية الثانية . فأعطي مارك انطونيو الشرق بما فيه سوريا ومصر . وخلال وجود أنطونيو في سوريا قدمت كليوباتره لزيارته في مدينة ترسوس . فنمت بينهما روابط غرامية أدت إلى

تمادي أنطونيو أن يمنح جزءاً كبيراً من فينيقيته وسوريا المجوفة لعشيقته المصرية ، كما بايع ابنه منها ويدعى بطليموس بلقب ملك سوريا .وكان يسري في هذا الطفل دم سلوقي بسبب التزاوج بين سلالتي السلوقيين والبطالسة(٢) . بسبب ارتباط أنطونيو وكليوباترة وحكمهما لسوريا بكاملها فإن شيزر رأت من الملوك من امتلأت بقصصهم الآداب العالمية المشهورة والقصص الشعبية . أضاف أنطونيو إلى مملكة كليوباترة القسم الساحلي من اليهودية التي كان يملك عليها آنئذ هيرودوس الذي عُرف فيما بعد بالكبير (٢٦ ، ٢) . وهيرودوس هو من الأسرة الهيرودية الإيدومية الأصل ، وقد وضعها أنطونيو مكان الأسرة المكابية التي اشتهرت بحروبها ضد السلوقيين . وكان هيرو دوس حليفاً لأنطونيو . ولكن بعد هزيمة أنطونيو وكليوباترة في معركة اكتيوم البحرية على الشاطىء اليوناني سنة ٣١ ق . م : إنحاز هيرودوس إلى أوكتافيان فأبقى له سلطانه على اليهودية . وفي زمن هيرودوس هذا وعهد أوكتافيان (اغسطس قيصر) وُلِدَ المسيح ، الذي شطر ميلاده التاريخ إلى شطرين . لقد أتى المسيح برسالة جديدة أساسها المحبة ، محبة الله ومحبة الإنسان وجعل الإنسانية عائلة واحدة ومثلاً عالمياً أعلى بخلاف المفاهيم الإقليمية التي كانت سائدة في كل مكان . فبخلاف اليهود واليونان والرومان الذين كانوا يفكرون بالإنسانية على أساس القومية ، كان المسيحيون السوريون أول من أعطى العالم نظرة عالمية فعّالة (٢) . انطلق تلاميذ المسيح بعد صلبه على يد اليهود وقيامته ، يبشرون برسالته في جميع الأصقاع . وقد مرّ الرسول برناباس بحماه وشيزر وأفاميا بطريقه إلى أنطاكية (٢٦) إذ حصل إنشقاق في صفوف كنيستها . فالمنتصرون من اليهود كانوا

يرون ضرورة مراعاة الناموس الموسوي من قبل جميع المتنصرين للحصول على الخلاص . ولكن المتنصرين من المفكرين السوريين لم يقبلوا هذه الفكرة التي كانت تبغي وضع الكنيسة في بوتقة المعتقدات اليهودية . كما كانوا يرون أيضاً أن الختان أمر غير مرغوب وخاصة لاقترانه في أذهانهم مع الأمة اليهودية ، التي دعاها المؤرخ تاسيطوس عدوة الإنسانية . لقد شارك بولس الرسول السوريين مفاهيمهم . كما دعا إلى أن صلب المسيح وقيامته هما طريق الخلاص (٢٧) . وفي سنة ٥١ م أقرّ المجمع الرسولي في القدس بأنه ليس من الضروري تطبيق نير الشريعة الموسوية على المتنصرين ، لأن المنتمين إلى كنيسة المسيح يخلصون بنعمة يسوع المسيح وحدها (١٨) . وقد حصل الإنفصام النهائي بين اليهود والمسيحيين بعد ثورة اليهود على نيرون وقمعها من قبل تيطس الذي هدّم أورشليم سنة ٧٠ م وأحرق معبدها الذي بناه هيرودوس . ونتيجة ذلك زالت اليهودية كدولة سياسية من الوجود وشُتت اليهود من جديد كما حصل لهم ذلك من قبل على يد الآشوريين والكلدان (٢) .

ساد الهدوء والإرتياح في الدولة الرومانية بعد سنة ٧٠ م بعد القضاء على الإضطرابات الأهلية الخطيرة . ومن حسن حظها أنها تمتعت بين ٩٦ – ١٨٠ م بسلسلة من الأباطرة الأكفاء : نرفا ، تراجان ، هادريان ، انطونيوس بيوس وماركوس أوريليوس . ويوصف عصرهم بعصر الأباطرة الخمسة الصالحين (٢) . وصلت الإمبراطورية ذروتها في عهد هادريان (١١٧ – ١٣٨ م) ، وكان والياً سابقاً في سورية . وكانت سورية قد حصلت في عهد سلفه تراجان (٩٨ – ١١٧ م) على أوسع امتداد لها وازدهار . وفي ذلك القرن (القرن الثاني

الميلادي) توحد العالم المتمدن من الأطلسي إلى أواسط آسيا . ولم يكن هنالك من قبل مثيلاً لهذه الإمبراطورية . فبلغ من التسهيلات وانتشار الأمن أنه كان باستطاعة الإنسان أن يسافر بأمان من إنكلترا إلى ضفاف الفرات في أي وقت تقريباً . إن الشعور بالأمن وتوسع شبكة الطرق وظهور تجارة عالمية جديدة عمل على تشجيع الإنتاج الإقتصادي إلى حد لم يُعرف قبلاً . فازداد عدد سكان سورية ونما الإقتصاد وتحسنت الزراعة بسبب تطور الإختراعات التي شملت المحراث المتطور وطاحونة المياه (٢) كما طرأ تحسن أيضاً على النواعير ومنها نواعير حماة وشيزر والعشارنة (صورة) وكانت النواعير تستخدم للري بنقل مياه العاصي إلى السهول المجاورة .

بعد فترة الأباطرة الصالحين فُتحت أبواب النفوذ السوري في روما وذلك عندما نجح سبتيموس سفيروس زوج جوليا دومنه من حمص باعتلاء العرش الروماني سنة ١٩٣ م . وكان سبتيموس قد ادعى الإنتساب إلى ماركوس أوريليوس . وفي عهده نُقلت زعامة المدن السورية من أنطاكية إلى اللاذقية . كما قام أيضاً بتقسيم سوريا إلى ولايتين : شمالية تدعى سوريا المجوفة وجنوبية وتسمى فينيقيه السورية (٢) : وقد كانت شيزر من أعمال الولاية الشمالية .

وفي أواخر القرن الثالث الميلادي شهدت شيزر ، ولأول مرة في تاريخها نفوذاً عربياً وذلك على يد زنوبيا التدمرية ، ففي منتصف ذاك القرن ارتقت أسرة أذينة العربية إلى مركز الزعامة في تدمر . وآنئذ حلت الأسرة الساسانية في إيران مكان السلالة الفرتية القديمة . وفي عام ٢٦٠ م أوقع الجيش الساساني ، في عهد شابور الأول هزيمة

بالجيوش الرومانية قرب أديسا (الرها) وأسر الإمبراطور فاليريان. هرع أذينة التدمري على رأس جيش من السوريين والبدو لإنقاذ فاليريان اعترافاً لما أنعم به هذا الإمبراطور عليه قبل سنين باعطائه رتبة قنصل . هزم أذينة الفرس وتتبعهم حتى أسوار عاصمتهم برسبوليس . ولكنه لم يتمكن من إستعادة الإمبراطور السجين . وفي عام ٢٦٢ م كُوفئ أذينة لولائه للإمبراطور الجديد غالينوس الذي منحه لقب « زعيم الشرق » حيث جعل منه مايشبه نائب الإمبراطور في القسم الشرقي من الإمبراطورية التي كانت في حالة ضعف واضطراب لإنقضاض البرابرة عليها في أوربا وآسيا . ولكن أذينة أغتيل مع وريثه عام ٢٦٦ م بينما كان يحتفل باحدى المناسبات في حمص . حكمت من بعده زوجته بت زاباي (زنوبيا) باسم ولدها القاصر وهب اللات . كانت زنوبيا قوية الشخصية وطموحة ، فاتسعت الدولة التدمرية في عهدها حتى أصبحت أشبه بامبراطورية ، إذ شملت سورية وجزءاً من آسيا الصغرى ومصر . ولكن في أوائل عام ٢٧٢ م تحرك الإمبراطور الروماني أورليان فأخضع الحاميات التدمرية في في آسيا الصغرى ثم تابع مسيره نحو سورية فدخل أنطاكية ثم تابع سيره في الداخل على طول وادي العاصي ففتح أفاميا وشيزر والرستن وبالقرب من حمص اشتبك مع التدمريين فكسرهم ، ثم تقدم إلى تدمر فحاصرها حيث سقط وهب اللات قتيلاً ، وأخذت زنوبيا أسيرة إلى روما (٢ ، ٤٣) . وبهذا انحسر النفوذ العربي عن شيزر ، فعادت ثانية إلى السيطرة الرومانية التي استمرت حتى العصر البيزنطي الذي بدأ بالظهور سنة ٣٣٠ م .

شيزر في العصر البيزنطي

شهد القرن الثالث الميلادي التغلغل الديني والإقتصادي السوري في الولايات الرومانية . فالتجار والجنود السوريون كان لهم الأثر في نشر الديانة المسيحية . فقد ظهر أثرهم في تطور المسيحية في الغرب في نواحي التقشف والرهبنة والعبادة المتصفة بشدة العاطفة . ثم أن تقديس الصليب واتخاذه رمزاً دينياً كان من المفاهيم المسيحية الأخرى التي أدخلها السوريون إلى أوروبا. وفي هذا الأثناء كان نموذج الحضارة الموحدة في الإمبراطورية بطريق التفكك وذلك بفعل الحروب الأهلية الطويلة والهجمات الخارجية المتكررة . كما تعرضت دعائمه الفكرية والروحية المتداعية لتأثيرات جديدة من الأفكار المسيحية . فكان التغير سريعاً وتاماً ، إذ أن مرحلة حضارية جديدة وهي البيزنطية التي نتجت عن إتحاد المسيحية مع الهيلينية حلّت مكان المرحلة الحضارية القديمة . وكان لونها مسيحياً يونانياً شرقياً ومركزها القسطنطينية . وقد سُميت هذه المدينة باسم قسطنطين الذي كان يحكم مع امبراطور آخر سنة ٣٠٦ م . ثم أصبح امبراطوراً وحيداً بين ٣٢٤ و ٣٣٧ م . وكان تأسيسها في موقع بيزنطة القديم حيث تلتقي أوروبا بآسيا . وفي سنة ٣٣٠م دُشنت القسطنطينية كعاصمة جديدة . وقبل أن يؤسس قسطنطين عاصمته الجديدة اعتنق المسيحية واعترف بها كديانة الدولة الرسمية . ويُروى عن اعتناقه للمسيحية أنه شاهد في السماء ، أثناء زحفه على روما عام ٣١٢ م صليباً متألقاً عليه كتابة يونانية تقول : بهذا ستغلب . فاتخذ اشارة الصليب كعلم امبراطوري أثناء قتاله مع منافسه ماكسنتيوس. كانت هيلانة والدة قسطنطين مسيحية تقية . وقد قامت بزيارة إلى أورشليم حيث يُروى أنها وجدت الصليب الحقيقي . وفي ذلك المكان

شيّد قسطنطين كنيسة القيامة الأولى . وقد عملت الطقوس المتعلقة بالأماكن المقدسة التي أدخلها قسطنطين ووالدته على الإسراع في جعل سورية مسيحية . ولقد كان نقل قسطنطين للعاصمة من روما إلى القسطنطينية والإعتراف الرسمي بالمسيحية هما حجرا الركن في تأسيس امبراطورية جديدة مسيحية في عقيدتها يونانية في لغتها وشرقية في اتجاهها (٢) . ولكن بالرغم من تأسيس القسطنطينية فان الإمبراطورية الرومانية استمر وجودها قائماً من ناحية خارجية ونظرية لعدة سنوات . ولكن حصل الإنقسام النهائي بين شطريها سنة ٣٩٥ م حين توفي تيودوسيوس آخر امبراطور على الإمبراطورية الموحدة وخلفه ابناه هونوريوس واركاديوس . واحد على الغرب والآخر على الشرق (٢) .

وفي نهاية القرن الرابع الميلادي كانت سورية مقسمة إلى عدة مقاطعات . فقسمها الشمالي الذي احتفظ باسم سورية قسّم إلى جزئين : سورية بريما (سورية الأولى) ومركزها أنطاكية ومن مدنها الرئيسية سلوقية ولاوديسة (اللاذقية) وجبلة وبيرويا (حلب) وخالكيس ادبيلوم ؛ ثم سورية سكوندا (سورية الثانية) ومركزها مدينة أفاميا . من توابعها ابيغانية (حماه) واريثوزه (الرستن) ولاريا (شيزر) وقسمت فينيقية أيضاً إلى فينيقية الأولى وتوابعها مدن لبنان الحالي الساحلية ، ثم فينيقية الثانية ومركزها حمص وتضم دمشق وهيليوبولس (بعلبك) وتدمر . وقد قسمت فلسطين إلى : فلسطين الأولى وعاصمتها قيصرية ، وفلسطين الثانية ومركزها سكيثوبولس (بيسان) . وفلسطين الثالثة ومركزها البتراء . ومن الناحية الدينية أصبحت سوريا بلاداً مسيحية . وبانتشار المسيحية ، تطورت الكنيسة من ناحية لغوية في اتجاهين : اتجاه يوناني على الساحل واتجاه سرياني في الداخل .

والآرامية في العصر البيزنطي . والآرامية وقد نتج عن ذلك إحياء اللغة الآرامية في العصر البيزنطي . والآرامية هي إحدى اللغات السامية ، فالعبرانيون اقتبسوا أبجديتهم منها بين القرنين السادس والرابع قبل الميلاد . وكانت هي أيضاً لغة المسيح وشعبه كما أن عرب الشمال أخذوا أبجديتهم التي كتب بها القرآن من الآرامية التي استعملها الأنباط . ولقد وجدت الآرامية أيضاً طريقها إلى الجزيرة العربية . فالمناذرة ، عرب الحيرة ، بينما تكلموا العربية ، استعملوا الآرامية في الكتابة وكذلك كانت عليه الحال مع النبطيين والتدمريين إذ تكلموا العربية وكتبوا بالآرامية . تفرعت الآرامية مع الزمن إلى شرقية انتشرت في وادي الفرات وتمثلها المندعية والسريانية ، وغربية وتمثلها الآرامية التورائية ولهجات شمأل وحماه وتدمر والأنباط . وقد أصبحت السريانية وهي لغة أديسا (الرها) لغة الكنائس في سورية ولبنان وبلاد الرافدين . وقد استعملت بين القرنين الثالث والثالث عشر للميلاد ثم حلت محلها العربية وعندما اتخذ المسيحيون الآراميون لهجة أديسا صاروا يعرفون باسم سوريين . وقد أصبح لاسمهم القديم أي أراميين مدلول وثني غير مستحب في عقولهم ولذلك تجنبوه بوجه العموم وحلت محله التعابير اليونانية وهي سوري (Syrian) بالنسب للشعب وسرياني (Syriac) بالنسبة للغة . وهذا الإشتقاق يأتي من تسمية اليونان لبلاد آرام « بسورية » وقد كانت نتيجة التحول عن اليونانية والعودة إلى الآرامية في العصر البيزنطي إحياء لليقظة والوعي القومي في سورية . وكان نتيجة تجدد الإهتمام باللغة السامية أن بدأت العودة إلى إعطاء المدن السورية اسماؤها السامية القديمة ، ويظهر ذلك في إحدى قصائد امرؤ القيس إذ ذكر شيزر باسمها هذا وليس باسمها اليوناني لاريسا .

وقد أتى امرؤ القيس على ذكر شيزر عندما مر بها في طريقه إلى القسطنطينية طلباً للنجدة من الإمبراطور جوستنيان ليثأر من قتلة أبيه وأعوانهم الفرس الذين كانوا على نزاع مع البيزنطيين . وآنئذ عاد الفرس إلى الظهور وذلك في عام ٥٤٠ م في عهد كسرى أنوشروان الأول (٢) . كان والد كسرى هذا الملك قباذ ، وكان قد تنكر للمنذر بن ماء السماء ملك الحيرة بسبب رفضه للمزدكية التي كانت تدعو لإباحة الحرم والأموال . فرأى الحارث بن عمرو ملك كندة ، بذلك سانحة لتعزيز ملكه وتقوية سلطانه ، فولى وجهه شطر الأكاسرة كي يتخذ منهم أحلافاً يشدون أزره ويقوون ساعده . وكان الحارث يحسد اللخميين على تقربهم من الأكاسرة ، فكان يترقب الفرص ويتهيأ للأمر . ولما قام قباذ على المنذر استعان عليه بالحارث فشرده ثم غزا الحيرة وأخرجه منها . وبذلك أصبح الحارث الكندي ملكاً على الحيرة ، فعظم في أعين القبائل ، فتوافدوا عليه وقدموا له الطاعة . كما أن بعضهم طلبوا منه أن يملّك عليهم أولاده . فملّك ابنه حجراً والد امرؤ القيس على بني أسد وغطفان . بيد أن الحال لم تدم للحارث بل غالبه القدر ، وتنكر له الدهر ، ولم يطل سلطانه على الحيرة . فلما مات قباذ تولى بعده ابنه أنو شروان الذي أرجع المنذر إلى عرشه . فجد هذا بطلب الحارث الذي ولّى هارباً . ولما لحق به نهب ماله وهجائنه وضرب رقاب الكثيرين من وُلده . ولما هلك الحارث تشتت أمر بنيه فتحاسدوا وتقاتلوا وقامت عليهم القبائل . فقامت أسد وغطفان باغتيال ملكهم حجر آكل المرار . قام امرؤ القيس مطالباً بثأر ابيه واسترداد ملكه ، فسار إلى بعض القبائل وسألهم النصر على بني أسد . ولما فشل قدم على السموءل وطلب منه أن يكتب

إلى الحارث بن أبي شمر الغساني بالشام ليوصله إلى قيصر . سار امرؤ القيس إلى القسطنطينية بصحبة جابر بن حنيّ الذي قال فيه :

فإمــا تَرَيْني في رحــالة جابرٍ
على حَرَجٍ كالقَرِّ تَخفِقُ أكفاني

وصحبة عمرو بن قميئة الذي قال فيه :

أرى أم عمرو دمعهــا قد تحــدرا
بكاء على عمرو وما كــان أصبرا

وبعد سفر طويل واغتراب قال امرؤ القيس قصيدته المشهورة التي أتى بها على ذكر شيزر :

سمالك شوق بعــدما كان أقصَرا
وحلت سليمى بطن قَوٍّ فعرعــرا

كنانيةٌ بانت وفي الصدر وُدُّهــا
مجاورةً غسان والحيَّ يَعْمَــرا

أأسماءُ أمسى ودهــا قد تغيرا
سنُبْدِلُ إن أبْدَلْتِ بالوُدِّ آخرا

ألا هل أتاها والحوادث جمــة
بأن امرأ القيس بن تَمِلك بَيْقَــرا

تذكرت أهلي الصالحين وقد أتت
على خَمَلي خُوضُ الرِّكاب وأوْجَرا

فلما بدت حوران والآل دونـــه
نظرتَ فلم تنظر بعينيك منظــرا

لقد أنكــرتني بعلبــك وأهلهــا
ولابن جريج في قرى حمص أنكرا

تقطَّعُ أسباب اللبانــة والهوى
عشية جاوزنــا حمــاة وشيزرا

بكى صاحبي لمـا رأى الدرب دونــه
وأيقن أنّــا لاحــقان بقيصرا

فقلت لــه لاتبكِ عينُــك إنمــا
نحاول ملكاً أو نموتَ فنُعذرا (١٩)

ولما وصل امرؤ القيس إلى القسطنطينية أحسن قيصر لقاءه . ثم ضمّ إليه جيشاً كثيفاً . ولكن في طريق العودة حلّ بامرىء القيس مرض عضال بجوار أنقرة . وبينما هو يحتضر رأى قبراً لإحدى بنات الملوك في سفح جبل عسيب ، فقال :

أجارتنــا إن المــزار قريــب
وإني مقــيم مــا أقــام عســيب

أجارتــنا إنّــا غــريبان ههنــا
وكــل غريــب للغــريب نسيب

فان تصلينــا فــالقــرابة بيننــا
وإن تهجــرينــا فالغريــب غريب

تُوفي امرؤ القيس سنة ٥٦٥ م ودُفن بالقرب من قبر الأميرة . وقد أمر قيصر أن يُنحت له تمثال ويُنصب على ضريحه . ويُقال أن الخليفة المأمون شاهد هذا التمثال عند مروره هنالك لما دخل بلاد الروم ليغزو الصائغة (١٩) .

بعد السيطرة على بلاد الرافدين زحف كسرى أنوشروان على رأس جيش إلى سورية عن طريق هيرابولس (منبج) فأشعل النار في حلب ثم تقدم إلى أنطاكية فنهبها وأخذ كنوزها وهدمها وسبى أهلها ، وبعدها سار إلى أفاميا وكانت مركزاً مسيحياً آخر ومزدهراً . ويقال أن كنيستها كانت تملك قطعة من الصليب الحقيقي محفوظة بتابوت مرصع بالجواهر ، فأخذ جميع كنوزها ولكنه عفى عن تدمير المدينة (٢) . ولا شك أن شيزر تعرضت لجرائم الفرس خلال وجودهم في جوارها بعد مغادرة أفاميا . وفي سنة ٥٦٢ م وذلك قبل وفاة امرىء القيس بثلاث سنوات عُقدت هدنة بين الفرس والبيزنطيين استلزم جوستنيان بدفع الجزية إلى كسرى . وفي هذه الفترة من الزمن تجلى بين العرب قوتان إحداهما في العراق وهي دولة المناذرة والأخرى في الشام ومركزها بلاد حوران وهي دولة الغساسنة وكانت موالية البيزنطيين .

فالغساسنة هم من أزد اليمن ، وكانوا قد قدموا بلاد الشام بعد إنهيار سد مأرب . وكان قدومهم إلى حوران بعد تضاءل شأن تدمر على أثر سقوط زنوبيا أسيرة على يد الإمبراطور الروماني أورليان في سنة ٢٧٢ م (٢) . أسس الغساسنة إمارة لهم في بلاد الشام . وكان أعظم ملوكهم الحارث بن جبلة وهو الحارث بن أبي شمر (٥٢٩ — ٥٦٩) الذي عاصر امرؤ القيس وقباذ وكسرى أنو شروان الأول والمنذر بن ماء السماء ملك الحيرة والإمبراطور جوستينيان (٢١) .

وأما المناذرة فهم من قبائل تنوخ اليمنية التي قدمت مشارف العراق على أثر تصدع سد مأرب واستقروا في منطقة الحيرة والأنبار (٢١) . وبسبب جوارهم لبلاد فارس كانوا يميلون لملوك الفرس .

ويبدو أن النزاع بين الغساسنة والمناذرة كان سببه البادية الواقعة جنوبي تدمر ، إذ كان كل منهما يدعي أن قبائل العرب الضاربة هنالك كانت تخضع لسلطانه (٢١) . وقد دارت بينهما حروب متعددة كانوا يستعينون بعضهم على الآخر بالفرس والبيزنطيين . وقد اشتد هذا النزاع في عصر الحارث بن أبي شمر الغساني . الذي كان موالياً للعرش البيزنطي . وقد تغلب الحارث على اللخميين في معركة حليمة وقتل ملكهم المنذر الذي كان قبل عشرة سنين قتل أحد أبناء الحارث وقدمه ضحية للإلاهة العزّة التي تقابل أفروديت (٢) .

وقد زار الحارث الإمبراطور جوستنيان ، وأثناء وجوده في القسطنطينية حصل على تعيين يعقوب البرادعي أسقفاً على الكنيسة المونوفيزية السورية . وقد انتشرت هذه العقيدة الجديدة في سورية كلها أثناء حكمه وحكم ابنه المنذر (٢) . وخلال هذه الفترة وذلك في القرن السادس ، ثم السابع فيما بعد ، انتاب الكنيسة موجات فكرية متعددة ابتدأت جذورها في العصور السابقة . فالكنيسة كانت قد وضحت في المجامع المسكونية في القرنين الثاني والثالث تعليمها الأرثوذكسي عن الثالوث الأقدس . ولكن في بدء القرن الرابع أثار بعض المجتهدين في تعليم الإيمان المسيحي ، استناداً على مبادىء العقل ، سؤالاً عما كانت تدرسه الكنيسة الاسكندرية عن العلاقة المتبادلة بين أقانيم الثالوث الأقدس . فتعاليمها كانت تقول ان الأقانيم الثلاثة لها جوهر إلهي واحد وأنهم متساوون فيما بينهم بحسب الاستحقاق وفي الوقت ذاته لكل منهم كيان خاص . كما أن الأقنوم الثاني ، وهو الابن ، مولود من جوهر الآب منذ الأزل لذلك فهو مساوٍ له في الجوهر . وكان آريوس ، المثقف لاهوتياً ، أحد هؤلاء المجتهدين

الذين أثاروا التساؤل حول هذا التعليم الكنيسي . فلقد رأى آريوس أن هنالك تناقض في هذا التعليم لإيمان الكنيسة في مفهوم الله الواحد . فجدلاً كان إذا تساوت الأقانيم الثلاثة في الإستحقاق الإلهي ، فهذا يعني أن هنالك ثلاثة آلهة ، ثم أن الإعتراف بجوهر إلهي واحد للثالوث الأقدس يعني عدم التفريق بين الأقانيم الثلاثة ومزجها في إقنوم واحد وهذا يعني رفض التثليث . ولأجل تلافي هذا التناقض والحفاظ على مفهوم وحدة تثليث الله ، ارتأى أريوس أنه من الموافق لمبادىء العقل أن يُشرح التعليم عن الثالوث الأقدس هكذا : الله الآب هو وحده الإله الحقيقي وابن الله والروح القدس هم كائنات إلهية بالدرجة الثانية فقط ولها طبيعة تتميز عن طبيعة الآب وهم في حالة خضوع له . ثم تابع تعليمه فقال ، إذا كان الآب ولد الإبن إذن فالمولود له بداية ولم يكن موجوداً منذ الأزل . ولقد رأى آريوس أن كلمة مولود ليس من المناسب أن تستعمل إلى الألوهة لأنها بشرية بطبيعتها ، ومن الأفضل التعبير أن الإبن صدر بارادة الله ليس من الجوهر بل من العدم فهو إذن مخلوق . وبواسطة الإبن خلق الآب العالم . وتعاليم آريوس شبيهة بتعاليم فيلون عن خلق العالم . فلقد ارتأى هذا الأخير آن الله الذي يعيش في النور والمجد غير المقترب ، لايمكن بصورة من الصور أن يدخل بتماس مع العالم غير الطاهر . ولذلك لما شاء أن يخلق العالم تمم هذا العمل بواسطة كائن آخر الذي كان الكلمة ابن الله . ونحو نهاية القرن الرابع شرحت الكنيسة تعليمها عن شخص المسيح بأنه إله وكذلك إنسان . ولكن أهل العلم لم يكتفوا بتعليم الكنيسة عن الإله الإنسان إذ وجدوا بنداً لايمكن أن يوضحه العقل وهو طريقة اتحاد الطبيعتين الإلهية والبشرية في شخص المسيح .

والعلاقة المتبادلة بينهما . وكان من هؤلاء أسقف موبسويست تيوذور الذي أوضح اتحاد الطبيعتين بأن الإنسان يسوع وُلد من مريم نظير بقية الناس بطريقة طبيعية . وأن الله الكلمة اتحد بيسوع منذ لحظة حَبَل به بنعمته . ونعمة الله الكلمة المنحدرة على الإنسان يسوع قدّست وشددت قواه في مولده . وعندما دخل الحياة وتغلب على التجربة والخطيئة صار به الإعتراف ابناً لله كما أنزل الله عليه الكلمة مواهب الروح القدس ومنحه اسمى معرفة . ولما انتصر يسوع على الآلام استحق المعرفة والقداسة الإلهية . والآن اتحد الله الكلمة بالإنسان يسوع بأقرب مايمكن ، فقامت بينهما وحدة العمل وصار الإنسان يسوع آلة الله الكلمة في أمر خلاص البشر . وعلى هذه الصورة إن الله الكلمة والإنسان يسوع هما شخصيتان منفصلتان تماماً ومستقلتان وقد ارتأى تيوذور بأن مريم العذراء يجب أن تدعى والدة الإنسان وليس والده الإله . وقد تبنى مفهوم الطبيعتين هذا نسطور رئيس أساقفة القسطنطينية وكان خريج مدرسة أنطاكية وتلميذ تيوذور المبسواستي . وقد أثار هذا المفهوم إضطراب وانقسام في الكنيسة ، ففي أنطاكية وبالإجمال في سوريا قبل كثيرون جهة نسطور . وفي اثناء الجدال النسطوري قام خريجون من مدرسة الإسكندرية بفكرة مزج الطبيعتين إلى حد أن الطبيعة البشرية ظهرت مبتلعة بالإلهية وبقي في يسوع المسيح طبيعة واحدة هي الطبيعة الإلهية . وبينما أعطى النساطرة الأرجحية للطبيعة البشرية وكون المسيح إنساناً بسيطاً ، ولكن يحمل في ذاته الالوهية ؛ فلقد أعطى دعاة الطبيعة الواحدة أو المونوفيزيت الأرجحية للطبيعة الإلهية داعين أن المسيح هو إله فقط . وفي سنة ٤٨٢ م جرت محاولة توفيق بين الأرثوذكسية

والمونوفيزية في المجتمع الثاني المسكوني والذي ثبت بأن ابن الله الوحيد الذي نزل وتجسد من الروح القدس ومريم العذراء والدة الإله هو واحد وليس اثنين . ولكن هذا التحديد الإيماني للتوفيق لم يُرض الأرثوذكس الذين رأوا في ذلك اعترافاً بالمونوفيوية . كما أن المونوفيزيت طلبوا حكماً أكثر صراحة بالاعتراف بالمونوفيزية . ولقد انتشرت المونوفيزية في مصر ، كما أنها تسربت الى سورية . ولقد قويت شوكة المونوفيزية بمساعدة الإمبراطورة تيودوره زوجة جوستينيان (١٨) . وفي أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس انتشرت المونوفيزية في شمالي وجنوبي سوريا . وزعم أصحاب هذا المبدأ أن سمعان العامودي الذي عاش في جبل سمعان في ديار حلب كان يؤمن بفكرتهم اللاهوتية . انتشر هذا المذهب في أرمينيا ومصر . ولايزال الأرمن والأقباط حتى هذا اليوم يتمسكون بلاهوت الطبيعة الواحدة (٢) . وعندما عيّن يعقوب البرادعي أسقفاً للكنيسة المونوفيزية في سورية في عهد الحارث بن شمر الغساني ، نظم الكنيسة ، وبذلك سُمّي أتباعها السوريون باليعاقبة . وفي عهد الحارث وابنه المنذر انتشرت المونوفيزية في سوريا كلها . وقد أصبحت بصرى ، ؛ التي بُنيت كاتدرائدتها سنة ٥١٢ م ، العاصمة الدينية في المنطقة كما اشتهرت كمركز تجاري (٢) . وكانت القوافل القادمة من الحجاز تمر في بصرى في طريقها إلى الشام . ويذكر ابن الاثير (٢٢) أن أبا طالب لما خرج إلى الشام صحبه الرسول (صلعم) وذلك قبل حلول الدعوة عليه ، وكان له من العمر تسع سنين . فلما نزل الركب بُصرى وبها راهب ، من أتباع المونوفيزية ، يقال له بحيرا في صومعة له ، وكان ذا علم في النصرانية ، ولم يزل بتلك الصومعة راهب يصير

إليه علمهم . وبها كتاب يتوارثونه . فلما رآهم بحيرا صنع لهم طعاماً كثيراً ، وذلك لأنه رأى على رسول الله غمامة تُظلّه من بين القوم . ثم أقبلوا حتى نزلوا في ظلّ شجرة قريباً منه . فنظر إلى الشجرة وقد هصرت أغصانها حتى استظلّ بها ، فنزل إليهم من صومعته ودعاهم . فلمّا رأى بحيرا الرسول (صلعم) . جعل يلحظه لحظاً شديداً وينظر إلى أشياء من جسده كان يجدها من صفته . فلما فرغ القوم من الطعام وتفرقوا ، سأل الرسول (صلعم) عن أشياء من حاله في يقظته ونومه فوجدها بحيرا موافقة لما عنده من صفته ، ثم نظر لخاتم النبوة بين كفيه ، ثم قال بحيرا لعمه أبي طالب : ماهذا الغلام منك ؟ قال : ابني . قال : ماينبغي أن يكون أبوه حياً . قال : فانه ابن أخي . مات أبوه وأمه حبلى به . قال : صدقت ، ارجع به إلى بلدك واحذر عليه اليهود فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ماعرفتُ ليبغُنّه شراً ، فانه كأن له شأن عظيم (٢٢) . وقد قدم الرسول (صلعم) بصرى فيما بعد في طريقه إلى الشام عندما خرج إليها تاجراً لخديجة بنت خويلد وفيها اطلع على الكثير مما عرفه عن المسيحية (٢ ، ٢٢) . في هذه الفترة من الزمن كانت الجزيرة العربية وبلاد الرافدين وديار الشام في حالة من الإضطراب السياسي والتشويش الروحي . فقبائل الجزيرة كانت تسودها العصبية والثأر والغزوات . وعرب الحيرة وعرب الشام كانوا يخضعون لسيطرة الأجنبي من الفرس والروم . وبينما كانت الوثنية تسود بعض أنحاء الجزيرة كانت الكنيسة في البلاد المنتصرة في حالة انشقاق وانقسام إذ فشل اللاهوتيون أن يحسموا الخلافات المتعلقة بالتثليث وطبيعة المسيح . وبين هذا كله ظهرت فئة في الجزيرة تدعي إلى التوحيد تحت اسم الحنيف .وكان من أفرادها أمية بن

السلط أحد أقرباء الرسول (صلعم) وورقة بن نوفل من أقرباء خديجة بنت خويلد . وإبان هذه الحقبة العصيبة من التقلقل السياسي والاضطهاد الأجنبي والاضطراب الاجتماعي والروحي أتت ليلة القدر في أواخر رمضان سنة ٦١٠ م إذ بعث الله محمداً (صلعم) بن عبد الله رسولاً له وداعياً لرسالته ، التي جوهرها وحدانية الله القادر على كل شيء وخالق العالم ، ويوم الحساب واعداً بالجنة للأتقياء والمؤمنين ، ونار جهنم للكافرين وغير المتقين (١٦ : ٢٢ . ٢٣) . وبينما كانت الدعوة إلى الإسلام في بزوغها قام خسرو الثاني الفارسي بالهجوم على سوريا سنة ٦١١ — ٦١٤ م وأعمل فيها النهب والدمار أينما توجه . فغزا دمشق وروّع أهلها بالقتل والأسر ، وخرب كنيسة القيامة في القدس وانتهب كنوزها وتحفها ومنها الصليب الحقيقي . وبعد أربعة عشر عاماً استعاد البيزنطيون بقيادة هرقل سورية بعد أن طردوا الفرس منها . وفي ١٤ إيلول سنة ٦٢٩ م أعاد هذا الإمبراطور الصليب إلى القدس . ولا يزال المسيحيون حتى اليوم يحيون ذكرى هذا العيد بايقاد المشاعل . وقد ذهبوا في منشأ هذا التقليد إلى أن هيلانة والدة قسطنطين الثاني عندما اكتشفت عود الصليب دفيناً في الأرض سنة ٣٢٦ م ، أعلنت النبأ لابنها وهو في القسطنطينية ، عن طريق ايقاد المشاعل من قمة إلى أخرى حتى القسطنطينية (٢) .

قام الرسول (صلعم) بنشر الدعوة في الجزيرة العربية . وبعد وفاته أعدت العدة لفتح البلاد المجاورة ، وكانت الجزيرة خرجت من حروب الردّة ، وأخذت توثق روابطها وتتحد تحت قيادة الخليفة الأول أبي بكر الصديق (٦٣٢ — ٦٣٤ م) . وكان من المتوقع فوق هذا حصول مساندة القبائل العربية المقيمة في جنوب سورية

مثل قبائل نظير وجذام وقضاعة التي كانت قد تنصرت، ولكنها لم تكن في حالة من الرضى لأن المساعدات المالية التي كانت تتناولها لحراسة الحدود قد أوقفها هرقل الذي أهمل أمر الحصون التي قامت على الحدود الجنوبية كما انتزع حاجياتها لتعزيز الحشد في الشمال للوقوف في وجه الخطر الفارسي . وهكذا فقد كانت سوريا أقرب الميادين إذ توجهت إليها طلائع الفتح في بادىء الأمر (٢) .

شيزر في العصر العربي

توالت الفتوحات العربية في العراق وسورية . فتمّ الإستيلاء على دمشق في أيلول سنة ٦٣٥ م . ثم تقدّمت الجيوش العربية نحو الداخل ففتحت بعلبك وحمص وحماه أبوابها لأبي عبيدة بن الجراح كما سارع أهل شيزر لاستقباله يصحبهم الناقرون على الدفوف والمنشدون . ولئن جلت الجيوش العربية مؤقتاً عن المدن السورية بما فيها شيزر . لمقابلة الجيش البيزنطي الذي أعده هرقل بقيادة أخيه تيودوروس ، . لكنها عادت ثانية بعد انتصارها في معركة اليرموك في آب سنة ٦٣٦ م لفتح المراكز السورية ، ومنها شيزر سنة ٦٣٨ م . كان هرقل في أنطاكية عندما علم بهزيمة جيشه في اليرموك ، فغادرها بطريق البحر . وهنالك قال كلمته المشهورة : عليك ياسوريا السلام ونعم البلد هذا للعدو (٢ ، ٢٤) .

كانت سوريا عند الفتح العربي لها مقسمة إلى أربع مقاطعات . وقد أحتفظ بهذا التقسيم ، وسُمي كل قسم « جند » . وكانت هذه الأجناد : فلسطين والأردن ودمشق وحمص (١٦) . وكانت شيزر

وحماه وأفاميا تابعات لجند حمص . وفي العصر الأموي أضاف الخليفة يزيد بن معاوية جنداً خامساً هو جند قنسرين وسلخه عن حمص وأضاف إليه أنطاكية ومنبج والجزيرة . رأت شيزر ثانية الحكم العربي . وبقيت بمنأى عن التدخل الأجنبي وسيطرته طيلة فترة الخلفاء الراشدين والعهد الأموي .

الفترة الأموية : وقد بلغت خلالها الأمة العربية أوج مجدها . كما أصبحت دمشق عاصمة دولة امتدت رقعتها من مجاهل الصين إلى شواطىء بلاد الأندلس على الأطلسي (٢ ، ١٦) استمر الحكم الأموي ٩١ عاماً (٦٦١ – ٧٥٠ م) ، وقد تناوب على دفته ١٤ خليفة ، وكان من عظمائهم وسواسهم معاوية وعبد الملك والوليد الأول وهشام . وفيما يلي مجموعة هؤلاء الخلفاء :

الخليفة	الفترة
١ – معاوية بن أبي سفيان	٦٦١ – ٦٨٠م
٢ – يزيد الأول ابن معاوية	٦٨٠ – ٦٨٣م
٣ – معاوية الثاني بن يزيد الأول	٦٨٣ – ٦٨٤م
٤ – مروان الأول ابن الحكم	٦٨٤ – ٦٨٥م
٥ – عبد الملك بن مروان الأول	٦٨٥ – ٧٠٥م
٦ – الوليد الأول ابن عبد الملك	٧٠٥ – ٧١٥م
٧ – سليمان بن عبد الملك	٧١٥ – ٧١٧م
٨ – عمر بن عبد العزيز بن مروان الأول	٧١٧ – ٧٢٠م
٩ – يزيد الثاني ابن عبد الملك	٧٢٠ – ٧٢٤م
١٠ – هشام بن عبد الملك	٧٢٤ – ٧٤٣م
١١ – الوليد الثاني بن هشام بن عبد الملك	٧٤٣ – ٧٤٤م
١٢ – يزيد الثالث ابن الوليد الأول	٧٤٤م

١٣ ــ ابراهيم بن الوليد الأول ٧٤٤م

١٤ ــ مروان الثاني ابن محمد بن مروان الأول ٧٤٤ــ٧٥٠م(٢)

كان معاوية بن أبي سفيان هو مؤسس الحكم الأموي . فقد اشتهر بالأناة والصبر والحلم وبعد النظر والإقدام . فكان أعظم الفاتحين العرب . فقد تخطت جيوشه الآفاق ، فغزت ثغر السند ووادي الهندوس في الهند ، وحاصرت القسطنطينية براً وبحراً ، كما وصلت أيضاً سواحل افريقيا الشمالية على الأطلسي (٢٥) . وفي عهد من تلاه من الخلفاء تم إخضاع ماوراء النهرين واجتياح بلاد الأندلس (٢) . وبالرغم من منجزات الأمويين ومآثرهم وما حققوه للعرب من مجد ومكانة في التاريخ ،إلا أن إقدام بعض خلفائهم لاتخاذ بعض الإجراءات، وتعثر بعضهم في أحداث قسرية ولهو ومجون بعضهم الآخر ، كانت نواة إنطلاق لأعدائهم الذين عملوا جماعات ووحدانا لإزالة حكمهم وبالتالي جلب سلسلة من الكوارث التي ألمّت بالأمة العربية واستمرت إلى يومنا هذا . فان معاوية سنّ نظام ولاية العهد بدلاً من الشورى وذلك لأنه أصبح من المتعذر على المسلمين من الناحية العملية أن يتفقوا فيما بينهم لتعيين خليفة ، وذلك لإتساع رقعة دولتهم . وتعداد أحزابهم واختلاف شيعهم ، وكثرة المرشحين لهذا المنصب والراغبين في الوصول إليه . ولكن هذه البدعة لم تلقَ ارتياحاً لدى الكثير من الزعماء العرب ، الذي كان فيهم من يطمح إلى الخلافة ، بل يرى نفسه أجدر بها من غيره . تولى بعد معاوية ابنه يزيد ، وطلب البيعة في سائر الأقطار ، فبايعه الناس إلا ثلاثة في الحجاز : الحسين بي علي بن أبي طالب ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب . وقد عمد الحسين مدفوعاً بنداءات العراقيين الملحة المتكررة إلى المجاهرة

بأنه الخليفة الشرعي . فخرج من الحجاز إلى العراق . ولما علم بقدومه عبيد الله بن يزيد بن أبيه العامل الأموي على العراق وجّه إليه دورية من الفرسان ليمنعه من دخول الكوفة . فالتقى الجانبان في كربلاء . ولما أبى الحسين الاستسلام هاجمه عمر بن سعد بن أبي وقاص . فالتحم الفريقان بقتال إنتهى بمقتل الحسين (٢ ، ٢٥) . ولقد ولد في كربلاء المذهب الشيعي ، وغدا « يوم كربلاء » « وثأر الحسين » صيحة الإستنفار عند الشيعة التي ساهمت في تقويض العرش الأموي (٢) . انتقلت الخلافة من الأسرة السفيانية إلى الأسرة المروانية بسبب تنحي معاوية الثاني عن الخلافة طوعاً . وقد استلمها مروان بن الحكم الذي تمكن بجدارته أن يمنع مآلها إلى عبد الله بن الزبير . تولى بعد مروان ابنه عبد الملك ، فوجد البلاد على غاية من الفوضى والإضطراب : ففي الحجاز عبد الله بن الزبير وقد بايعه أهلها ، وفي العراق ثورة الخوارج والشيعة . تلقى عبد الملك هذه الحوادث كلها بشكيمة . فخرج إلى أولاد الزبير وقتلهم ، وكان يصحبهم الشاعر عبيد الله بن قيس الرقيات (٢٦) ، الذي ذكر شيزر في شعره :

قفوا وانظرو بي نحو قومي نظرة
فلم يقف الحادي بنا وتغشمـرا

فواحزناً إذ فارقونـا وجاوروا
سوى قومهم أعلى حماة وشيزرا

بلادٌ تعول الناس لم يولدوا بـها
وقد غنيت منها معانـاً ومحضرا

ليالي قومي ، صالح ذات بينهم
يسوسون أحلاماً وإرثا مؤزرا (٢٠)

وبعد توطيد دعائم الحكم في الداخل والخارج شرع عبد الملك بتطبيع الدولة بطابع قومي عربي ، فنقل الديوان إلى العربية بدلاً من الرومية في الشام والفارسية في العراق . فكان هذا ولا شك مصدر استياء للشعوبية . استقر هذا الازدهار في عهد الوليد بن عبد الملك الذي ينسب إليه مسجد دمشق المعروف ، بالجامع الأموي . وفي عهده أكمل موسى بن النصير فتح بلاد الأندلس . ويعتبر عهده غرّة في جبين الدولة الأموية ، إذ وقفت الأمة العربية على قمة مجدها ، إذ أصبح لها امبراطورية لم يعرف التاريخ لها مثيلاً من قبل ، وذلك من حيث العزّة والمنعة والسعة ، فترامت رقعتها إلى نهر السند وحدود الصين شرقاً ، والمحيط الأطلسي غرباً وأرمينيا وجبال طوروس شمالاً والصحراء الكبرى والسودان جنوباً (٢٥) . أضحت شيزر جزءاً من هذه الإمبراطورية التي هي المجد الذي يتغنى به كل عربي في وقتنا هذا . أراد الوليد أن يجعل ولاية العهد لإبنه عبد العزيز بدلاً من أخيه سليمان خلافاً لوصية أبيه . ولكن المنية عاجلته قبل أن يحقق ذلك ، وبهذا آل الأمر إلى سليمان الذي قام بأعمال يؤسف لها . فنكّل بكبار رجال الدولة الذين وافقوا مع سلفه لتجريده من ولاية العهد (٢٥) . وأخذ أيضاً بمعاقبة من خالفوه بشأن أمثال موسى بن النصير ، الذي غادر بلاد الأندلس متوجهاً إلى سورية على رأس موكب اشتمل ، باستثناء حاشيته الخاصة على أربع مئة من أفراد السلالة القوطية المالكة ، وأفراد الأسر الارستقراطية ، تزين رؤوسهم التيجان ، وتطوق أوساطهم الأحزمة الذهبية . وفي أثرهم جموع تقارب ٣٠ ألفاً

من العبيد والأسرى يحملون نفائس الغنائم . وعندما بلغ موسى منطقة طبريا إنتهى إليه أمر من سليمان ولي العهد ، بأن يؤخر وصوله إلى العاصمة حتى يتفق مع ارتقائه إلى سدة الخلافة ، إذ كان الوليد مريضاً . والظاهر أن موسى تغاضى عن الأمر ، وفي شهر شباط سنة ٧١٥ دخل دمشق . فترك دخوله إليها وقعاً شديداً تفتخر به النفوس . ولكن سليمان حنق على موسى وعند استلامه الخلافة عاقبه وأذله وعزله وحجز ممتلكاته (٢) . لم يكتف سليمان بالتنكيل بكبار القواد ، بل إنه أثار العصبية القبلية بتقريب اليمنية والتنكيل بالقيسية ، مما أعاد النعرة الجاهلية . فكان ذلك من أسباب إضعاف الحكم الأموي .

وقد ازدادت الأمور سوءاً في عهد يزيد الثاني بن عبد الملك ، الذي قامت في زمنه الفتن الداخلية لما اشتهر به من الخلاعة والتبذير . خلف هشام بن عبد الملك أخاه يزيداً . فكانت حالة البلاد الداخلية سيئة : فالعصبية القبلية بين قيس ويمن كانت مشتدة ، والخوارج ناقمون ، ودعاة الهاشميين يكيدون للأمويين في الخفاء . فتمكن من إصلاح الأمور بالقضاء على أعداء الدولة في الداخل والخارج ، فهدأت البلاد ، فاعتبر هشام بذلك أحد سواس بني أمية الكبار . وبعد موته تخبطت الدولة بالضعف والإنحطاط ، وقد بدأ ذلك بولاية الوليد الثاني بن يزيد بن عبد الملك (٢٥) . • كان هذا شاعراً ، ماجناً مستهتراً وخليعاً(٢) ويقال أنه دعا ذات ليلة بمصحف ، فلما فتحه وافق ورقة فيها الآية : « واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد ، ومن ورائه جهنم ويُسقى من ماء صديد » فقال : أسجعاً سَجعاً ! علّقوه ؛ ثم أخذ القوس والنبل ورماه حتى مزّقه ، ثم قال :

أتُوعد كلَّ جبار عنيد
فها أنا ذاك جبار عنيد

إذا لاقيت ربـــــك يوم حشر

فقل يارب مزقني الوليد (٢٧)

وبعد عام من خلافته قتله اليمانية ، بالتعاون مع يزيد الثالث بن الوليد الأول ، لتعذيبه أحد زعماء اليمانية ، فنشب الخلاف من جديد بين اليمانية والقيسية . آل الأمر إلى يزيد الثالث الذي وافته المنية بعد ستة أشهر من استلام الحكم . اضطرب الأمر في الدولة فقامت الفتن والثورات في كل مكان : الخوارج في العراق ، والشيعة العباسية في خراسان . حاول إبراهيم بن الوليد الأول أن يقوم بعبء الملك ، فلم يستطع ، ولم يحصل على البيعة بالإجماع . فقام على أثر ذلك أحد القادة الأمويين مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ، وكان والياً على الجزيرة وأرمينيا ، فزحف بجيش نحو الشام ، فحارب جيش إبراهيم وهزمه ، ثم دخل دمشق ، فبايعته عام ٧٤٤ م ، ثم عاد إلى مقرّه في حرّان حيث اتخذها عاصمة له . انشغل مروان بكثير من الفتن الداخليه مما اضطرته أن يهمل الثورة العباسية في خراسان ونداء عاملها نصر بن سيار . كان هدف الثورة العباسية تقويض الحكم الأموي ، وإقامة دولة هاشمية يتولى خلافتها بنو العباس . وكانوا يستميلون الناس بنظرية حق آل بيت النبي (صلعم) بالإمامة ،يدعونهم إلى مؤازرة رجل أطلقوا عليه صفة ((الرضا من آل محمد (صلعم)) ، فوصموه بالتقوى والزهد والورع ، يطبق شريعة الإسلام ، وينفذ بحكمه المساواة بين المسلمين ، ويعمل بالحق ، ويملأ الدنيا صلاحاً وعدلاً ، كما ملئت طلاحاً وجوراً . إنقاد إلى هذا الشعار أناس يؤمنون بصحته ويعملون على إظهاره . كان صاحب هذه الدعوة

محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب عم الرسول (صلعم)
كان لعلي بن عبد الله والد محمد صلة بالخليفة عبد الملك بن مروان ،
الذي اقتطعه قرية الحميمة من ناحية البلقاء جنوبي بصرى . وبعد
وفاة عبد الملك تزوج علي من إحدى نسائه . أثار ذلك غضب الخليفة
الوليد . الذي أمر بجلد علي ونفيه إلى قريته ووضعه تحت الإقامة
الجبرية . كان لهذا الحادث وقع شديد في نفوس بني العباس ، وخاصة
علي نفسه . إذ صار يدعو للثورة على بني أمية ، ويحرّض على
الإنتقام من جلاده . استشاط هذا السلوك الوليد ، الذي أمر بجلد
علي ثانية وتشهيره في أزقة دمشق على ظهر جمل يقوده صائح وهو
يقول : « هذا علي بن عبد الله الكذاب » . فكانت ثمرة هذا الخصام
والكراهية ابتداء الثورة العباسية (٢٥) . وفي بدء دعوتهم ، فضل
بنو العباس أن ينالوا بالدهاء ما أيقنوا أنهم عاجزون عن نيله بالقوة
والغلبة . وهكذا تستروا وراء الدعوة « للرضا من آل محمد (صلعم) »
بأن نقل الخلافة سيكون إلى بني علي بن أبي طالب ، بينما كانوا
يضمرون أن يستبدلوا بها حينما تظفر تلك الدعوة . ولهذا قاموا ببث
الدعوة في خراسان بين الفرس وفي ماوراء النهر بين الترك ، وذلك
لأن سياسة الخلفاء الأمويين قامت على تقديم العرب في الولاية والقيادة
على غير العرب . وهكذا ضمن العباسيون أن يثيروا الفرس والترك
على بني أمية بعامل الظلم في الدرجة الأولى . شعر بنو أمية باتساع
دعوة العباسيين ، فكافحوها ، ولكن استفحل أمرها في خراسان
في ولاية نصر بن سيار وخلافة مروان الثاني (٧٤٤ — ٧٥٠) (٢٨)
في هذا الأثناء ظفر العباسيون بولاء رجل فارسي يدعى أبو مسلم
الخراساني ، كما أن الإمامة انتقلت إلى إبراهيم بن محمد من زوجته

سلمى البربرية (٢٧) . بعث إبراهيم أبا مسلم إلى خراسان ليساعد الدعاة ويقاوم الولاة الأمويين وصرف الخلافة من العلويين إلى العباسيين (٢٨) . وعندما ودّع الإمام أبا مسلم أوصاه بقوله : « ياعبد الرحمن ، إنك من أهل البيت ، فاحفظ وصيتي : « انظر هذا الحي من اليمن ، فأكرمهم وصل بين ظهرانيهم ، فان الله لايتم هذا الأمر إلا بهم ؛ وانظر هذا الحي من ربيعة ، فاتهمهم في أمرهم ؛ وانظر هذا الحي من مضر ، فانهم العدو القريب الدار . فاقتل من شككت في أمره ومن وقع في نفسك منه شيء . وإن استطعت أن لاتدع بخراسان من يتكلم العربية فافعل . فأيما غلام بلغ خمسة أشبار فاقتله . . . » (٢٩، ٣٠) فيالعجب القارىء ! ويالها من وصية يتفوه بها مسؤول « عربي ! » على رأس دعوة باسم الرضا من آل محمد (صلعم) ، فان لم يكن في صدره أخبث أنواع الشعوبية والإجرام ، فهو ولا شك في لوثة من عقله (٢٥) . وعند وصول أبي مسلم إلى خراسان بدأ يتقرب من المعسكر اليماني . ولما رأى نصر بن سيار نموّ المعسكر العباسي أرسلَ إلى أمير العراق يزيد بن هبيرة كتاباً يطلب المساعدة ، وفيه أبياتٌ تقول :

أبلغ يزيد وخير القول أصدقـــه
وقـــد تيقنت أن لا خير في الكـــذب

أن خراسان أرض قـــد رأيت بـــها
بَيْضـــاً إذا أفرخت حدثت بالعجب

فراخ عامين إلا أنـــها كبرت
ولم يطـــرن ، وقـــد سربلن بالزغب

فان يطرن ولم يحتل لهن بها
يلهبن نيران حرب أيما لهب (٢٩ . ٣٠)

ولما لم يجد نصر أذناً صاغية من ابن هبيرة ، كتب إلى الخليفة مروان نفسه ، يقول :

أرى بين الرماد وميض نار
ويوشك أن يكون لها ضرام

فان لم يطفها عقلاء قوم
يكون وقودها جثث وهام

فان النار بالعيدان تذكى
وإن الحرب أولها كلام

أقول من التعجب : ليت شعري
أأيقاظ أمية أم نيام

فان يك قومنا أضحوا نياماً
فقل لهم حان القيام

ففري عن رحالك ثم قولي
على الإسلام والعرب السلام (٢٩ ، ٣٠)

ولكن مروان لم يستجب إلى نداء نصر . وكانت الحالة في خراسان على غاية من الفوضى وخاصة بعد أن أعلن أبو مسلم الثورة . واستجد الأمر إلى ماهو أخطر من ذلك إذ كشرت الشعوبية عن أنيابها . والشعوبية هم فئات الفرس التي اعتنقت الإسلام ولكنها حافظت على كراهيتها

للعرب . كما أعلنت المجوسية عن ضرورة العودة إلى العهد الساساني . وقامت الزندقة بأخطر أدوارها ضد الإسلام . وشعر العرب في تلك المنطقة بحاجة إلى من يحميهم من هذا الخطر الداهم . حتى أن القوى العربية الثلاث المتصارعة : اليمانية بقيادة الكرماني ، وربيعة بقيادة شيبان الخارجي والأمويون . أخذت تحس بدقة الموقف . وتفكر في مخرج منه (٢٥) . هنالك بعث نصر بن سيار إلى كل من الكرماني وشيبان . يقول :

أبلغ ربيعة في مرو ، ومن يمن
إن اغضبوا قبل أن لاينفع الغضب

ولينصبوا الحرب إن القوم قد نصبوا
حرباً ، يُحرق في حافتها الحطب

مابالكم تنشبون الحرب بينكمُ
كأن أهل الحجا عن رأيكم غُيُبُ

وتتركون عدواً قد أحاط بكم
ممّن تجمّع . لادين ولا حسب

لاعربٌ مثلكم في الناس نعرفهم
ولا صريحٌ موالٍ ، إن همُ نسبوا

قوم يقولون قولاً ماسمعت به
عن النبي ولا جاءت به الكتب

من كان يسألني عن أصل دينهمُ
فان دينهم أن يقتَل العربُ (٥)

وكاد يتم الوفاق بين نصر وشيبان والكرماني ، إلا أن أبي مسلم بمكره ودسائسه أحال دون ذلك ، فاقتتل العرب فيما بينهم ، فانتهز أبو مسلم السانحة حيث بدأ بتصفيتهم جميعاً (٢٥) ، فسقطت له مدينة مرو مركز نصر بن سيار وتبعتها مدن فارسية أخرى ، فانكشفت الطريق إلى العراق وسقطت الكوفة (٢ ، ٢٥ ، ٢٨) . وخلال هذه الوقائع وقع بيد مروان رسالة من الإمام ابراهيم موجهة إلى أبي مسلم يأمره فيها بقتل كل من يتكلم اللغة العربية بخراسان ، وهنا إنكشف سر الدعوة . فأمر مروان بالقبض على إبراهيم ، الذي أوصى بالإمامة بعده لأخيه العباس . أودع إبراهيم السجن في حران وبقي هنالك حتى مات (٣٢) . على أثر ذلك وبعد سقوط الكوفة أعلن أبو مسلم أن الخلافة لآل العباس وأن الخليفة هو أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس (٢٥) . سارت الأمور لصالح بني العباس ففي ٢٥ كانون الثاني سنة ٧٥٠م جرت المعركة الفاصلة بين العباسيين تدعمهم الشعوبية من الفرس ومروان بن الحكم بالقرب من نهر الزاب الأكبر جنوبي الموصل ، انتهت بهزيمة مروان إلى حمص ثم دمشق ، ثم فلسطين ، ثم مصر . وكان العباسيون يتتبعونه ، فسقطت لهم دمشق فأباحوها ونهبوها ووضعوا السيف في أهلها ، فقتلوا والي المدينة وكثيراً من الأمراء والعلماء داخل المسجد الجامع ، كما دخلت أباعرهم إلى صحن الجامع الأموي الذي بقي إصطبلاً لدوابهم وجمالهم سبعين يوماً ! وقُتل يومئذ خلق كثير من النصارى ، ونُبشت قبور بني أمية وغيرها وأحرقت ، ونقض سور دمشق حجراً حجراً(٤٣). وبعد دمشق لحق القائد العباسي عبد الله بن علي عم أبي العباس بمروان

في مصر فقتله وذلك في ٥ آب سنة ٧٥٠ م . وبهذا زالت الدولة الأموية من المشرق لتحل محلها الدولة العباسية (٢ ، ٢٥ . ٢٨).

الفترة العباسية : تتبع العباسيون بني أمية في جميع الأقطار فقتلوا منهم أناساً كثيرين ولم يفلت إلا أفراد منهم عبد الرحمن بن معاوية الذي فرّ إلى الأندلس حيث أقام الخلافة الأموية الغربية التي دامت ٢٦٨ سنة بمنأى عن العباسيين ونفوذهم (٤٣) . وقد أذكت الشعوبية سعير هذا التشنيع في إبادة الأمويين ، فيذكر أن السفاح قد أمّن سليمان بن هشام بن عبد الملك الأموي وأكرمه . ويوماً دخل سديف الفارسي مجلس السفاح ، فما أن رأى سليمان بين الحضور إنبرى منشداً السفاح :

لايغرنك مـــا ترى مـــن رجـــال
إن تحت الضلــوع داء دويــــا

فضــع السيف وارفــع الســوط حتّــى
لاتـــرى فـــوق ظهـــرها أمـــويا

فأمر السفاح على أثر ذلك بقتل سليمان . وتلا هذا العار جريمة أخرى منكرة قام بها عم السفاح عبد الله بن علي على أعقاب أبيات من الشعر أنشدها له مولى فارسي يوغره بها على تسعين رجلاً من بني أمية كانوا يأكلون على مائدة الأمير . أثار ذلك القول غضب الأمويين بالعمد حتى وقعوا على الأرض ، ففُرشت فوقهم البسط ومدّ عليها الطعام وأكل الناس وهم يسمعون أنينهم حتى ماتوا (٣٨) . كان للفرس من النفوذ أقواه حتى أن الخلافة العباسية في أوائلها اتسمت

بالسمة الفارسية . بحيث طغت المراسيم الفارسية عليها وسيطرت الأفكار الفارسية على شؤون السياسة ، وغلبت نسبة النساء الفارسيات في دور الحريم حتى تحولت الخلافة العباسية إلى إمبراطورية أصبح للشعوبية فيها اليد الطولى . بينما تضاءل مجد الارستقراطية العربية وانهار صرح العروبة ، ونُقلت عاصمة الخلافة من دمشق إلى بغداد .
ولقد تناوب على العرش العباسي الذي استمر ٥٠٨ سنوات (٧٥٠ — ١٢٥٨ م) ٣٧ خليفة وقع معظمهم إما تحت النفوذ الفارسي أو السيطرة التركية . وتقسم عصورهم كما يلي :

العصر الذهبي :

١ — السفاح	٧٥٠ — ٧٥٤م
٢ — المنصور	٧٥٤ — ٧٧٥م
٣ — المهدي	٧٧٥ —٧٨٥م
٤ — الهادي	٧٨٥ — ٧٨٦م
٥ — الرشيد	٧٨٦ — ٨٠٩م
٦ — الأمين	٨٠٩ — ٨١٣م
٧ — المأمون	٨١٣ — ٨٣٣م
٨ — المعتصم	٨٣٣ — ٨٤٢م
٩ — الواثق	٨٤٢ — ٨٤٧م
١٠ — المتوكل	٨٤٧ — ٨٦١م

عصر الإنحلال والدويلات :

آ — خلفاء سامرا :

١١ — المنتصر	٨٦١ — ٨٦٢م

١٢ ـ المستعين ٨٦٢ ـ ٨٦٦م
١٣ ـ المعتز ٨٦٦ ـ ٨٦٩م
١٤ ـ المهتدي ٨٦٩ ـ ٨٧٠م
١٥ ـ المعتمد ٨٧٠ ـ ٨٩٢م

ب ـ الخلفاء تحت الإمارات العسكرية :

١٦ ـ المعتضد ٨٩٢ ـ ٩٠٢م
١٧ ـ المكتفي ٩٠٢ ـ ٩٠٨م
١٨ ـ المقتدر ٩٠٨ ـ ٩٣٢م
١٩ ـ القاهر ٩٣٢ ـ ٩٣٤م
٢٠ ـ الراضي ٩٣٤ ـ ٩٤٠م
٢١ ـ المتقي ٩٤٠ ـ ٩٤٤م
٢٢ ـ المستكفي ٩٤٤ ـ ٩٤٦م

جـ ـ الخلفاء تحت إمرة البويهيين :

٢٣ ـ المطيع ٩٤٦ ـ ٩٧٤م
٢٤ ـ الطائع ٩٧٤ ـ ٩٩١م
٢٥ ـ القادر ٩٩١ ـ ١٠٣١

د ـ الخلفاء تحت سيطرة السلاجقة الأتراك :

٢٦ ـ القائم ١٠٣١ ـ ١٠٧٥م
محمد
٢٧ ـ المقتدي ١٠٧٥ ـ ١٠٩٤م
٢٨ ـ المستظهر ١٠٩٤ ـ ١١١٨م

٢٩ ــ المسترشد ١١١٨ ــ ١١٣٥م

٣٠ ــ الرشيد ١١٣٥ ــ ١١٣٦م

٣١ ــ المكتفي ١١٣٦ ــ ١١٦٠م

٣٢ ــ المستنجد ١١٦٠ ــ ١١٧٠م

٣٣ ــ المستضيء ١١٧٠ ــ ١١٨٠م

٣٤ ــ الناصر ١١٨٠ ــ ١٢٢٥م

هـ ــ آخر الخلفاء :

٣٥ ــ الظاهر ١٢٢٥ ــ ١٢٢٦م

٣٦ ــ المستنصر ١٢٢٦ ــ ١٢٤٢م

٣٧ ــ المعتصم ١٢٤٢ ــ ١٢٥٨م (١٦)

بدأ الخلفاء العباسيون يواجهون المتاعب فالفرس أخذوا يحاولون الوصول إلى السلطة وخاصة في العصر الذهبي (٣١) . كما أن العلويين الذين اعتقدوا أن العباسيين كانوا يقاتلون لأجلهم ، زالت الغشاوة عن أعينهم الآن ، إذ بان لهم أن الذي عناه دعاة العباسيين « بأهل البيت » إنما هم آل العباس وليس بيت بن أبي طالب وزوجته فاطمة ابنة الرسول (صلعم) . فاستمروا في إعتبار أئمتهم أصحاب الحق الشرعي في تسلم مقادرات الإسلام . فأخذوا يثورون على الخلفاء العباسيين بين الفينة والأخرى في شيع وقوى متعادة (٢) . أما العرب وخاصة عرب الشام فقد ندمت على مافعلت لما ركبهم من العار . لخذلانهم بني أمية وتسليط العجم من أبناء خراسان عليهم . إذ نزلوا منازلهم وأخذوا أموالهم . فامتنعوا من البيعة للعباسيين وتبيّضوا ، أي لبسوا البياض وهو شعار بني أمية . فقامت فتنة في الجنوب في حوران ثم

في الشمال في قنسرين وذلك بسبب عبث أحد قواد عبد الله بن علي العباس بولد مسلمة بن عبد الملك ونسائهم فشكا بعضهم إلى أبي الورد الكلابي أحد قواد مروان الذي دخل في طاعة العباسيين ثم نزع طاعتهم بسبب هذا التصرف . فاجتمع مع جماعة من أهل قنسرين وكاتبوا من يليهم من أهل حمص وتدمر . فتقدم منهم ألوف عليهم أبو محمد زياد بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ودعوا إليه قائلين هذا هو السفياني الذي كان يُذكر والذي سوف يظهر في أرض ليعيد مجد بني أمية أصحاب الخيل الشهب والرايات الصفر . اشتبك زياد مع العباسيين بمرج الأخرم بنواحي سلمية . فتغلب عليهم ولكن عبد الله بن علي قدم بنفسه ونازل زياد فغلبه . ثم سار إلى دمشق فدخلها وقتل من أهلها مالا يُحصى . وإجراء لهذه الثورة أذكى أبو العباس السفاح العيون على الأمويين يقتل رجالهم ونساءهم ، وينبش قبورهم ويحرق من فيها ؛ فمن ثم سُمي بالسفاح .
وفيه يقول الشاعر :

وكـــانت أميـــة في ملكـــها
تجـــول وتظهـــر طغيـــانـــها

رمـــاها بسفـــاح آل الرســـول
فجـــزّ بكفيـــه أذقـــانها (٤٣)

وفي خلافة الأمين ظهر السفياني علي بن عبد الله بن خالد بن يزيد ابن معاوية الملقب بأبي العمَيْطر فأعلن الخلافة ، فاقتتل مع الأمراء المحليين . ففشل أمره . أمر دمشق إلى ابن بيهس . فولى الأمين عبد الملك بن صالح على بلاد الشام وكان يميل إلى أهلها ، وكان يقول

فيهم ، إن أهل بلاد الشام قوم قد ضرستهم الحروب وأدبتهم الشدائد ، وإنهم أجرأ من أهل العراق ، وأعظم نكاية في العدو . ولما وقعت فتنة في جيشه بين الخراسانيين من الفرس وأهل الشام ، انتصر عبد الملك للشاميين . وبعد وفاته اضطربت الأمور ، وصار الناس حزبين حزب يظاهر الأمين وحزب يظاهر المأمون (٤٣) . والأمين والمأمون هما ولدا هارون الرشيد ، فالأمين كانت أمه عربية بينما أم المأمون كانت فارسية . وقد أوصى الرشيد بالخلافة إلى الأمين ومن بعده تؤول إلى أخيه المأمون . ولما اعتلى الأمين سدة الخلافة طلب إليه وزيره الفضل بن ربيع أن يخلع المأمون ويبايع لإبنه موسى . ولم يكن ذلك من رأي الأمين . ولما استجاب الأمين لطلب الفضل بدأ النزاع تدريجياً بين الأخوين ، انتهى بمقتل الأمين واستلام المأمون زمام الأمور (٣٢) . كان بمقتل الأمين خيبة أمل للكثير من العرب الذين كانوا يبغون الحصول على السلطة واستخلاصها من الفرس . وقد ازداد الوضع سوءاً في خلافة المعتصم (٨٣٣ — ٨٤٢ م) . الذي كان ابن أمة تركية . فقد إنحاز لأخواله من الأتراك . الذي وجد فيهم حنفاء طبيعيين ، فاتخذهم خدماً له وعبيداً وجيشاً وقواداً (٣١) قدم الأتراك إلى منطقة الشرق الأوسط من شمال الصين طلباً لكسب العيش والرزق . كانوا أقواماً غير متحضرة ، جل شأنهم حمل السلاح والقدرة الحربية . استقدمهم المعتصم وأكثر من شرائهم وأرسل في طلبهم ، حتى أصبح لديه منهم سبعين ألف فارس في خدمته . ولكنه بدأ يشعر بخطرهم عندما أخذ أهل بغداد يتذمرون منهم . ولإبعادهم عن بغداد وتحصين نفسه من الفرس وآل علي . بنى له ولهم مدينة سامراء (سر من رأى) . وفي خلافة الواثق (٨٤٢ —

٨٤٧ م) قوي شأن الأتراك ، حتى أنه بعد وفاته أخذوا باستجلاب أبناء جلدتهم على مقياس واسع ، الأمر الذي جعلهم أصحاب عاصمة الخلافة ، وأسياد البلاد ، فمدوا يدهم إلى كرسي الخلافة . فأصبحوا يولون الخلفاء ويخلعونهم سواء بالرضى أو الإرغام او القتل . فأدى ذلك إلى تقلص العباسية وتدهور نفوذها ، وانسلاخ الأمصار عنها تحت حكم أمراء مستقلين (٣١) . وكان بذلك بدء الإنحلال ونشوء الدويلات .

عهد الدويلات : عند استيلاء بني العباس على الخلافة وذلك بعد اغتصابها من الأمويين ، كانت الإمبراطورية العربية تمتد من أقصى المشرق إلى المحيط الأطلسي . وكان إقليم الشام يتألف من ستة كور (٣٢) وكانت شيزر تابعة لكورة حمص . وفي فترة الإنحلال ونشوء الدويلات تعرضت شيزر وغيرها من الأصقاع السورية إلى الكثير من المد والجزر السياسي جاعلاً إياها كالكرة الطائرة تتقاذفها الأيدي ، فتقع في يد حاكم ما في فترة وفي يد الآخر فترة أخرى . وكان أول هؤلاء الحكام في عهد الدويلات الطولونيون .

الطولونيون : كانت الإمارة الطولونية ، أولى الدويلات الناشئة ضمن الخلافة العباسية ، والتي اتصلت بسوريا . كان مؤسسها أحمد ابن طولون ، وهو مملوك تركي ، كان قد انتدبه زوج أمه بايكباك التركي لينوب عنه كحاكم على مصر ريثما يتوجه هو إليها . وكان ذلك إبان خلافة المعتمد (٨٧٠ – ٨٩٢ م) . استغل ابن طولون نأيه عن الحكومة المركزية في بغداد ، فقوى جيشه بناء على ترخيص من الخليفة ، وأصبح يتصرف في مصر تصرفاً مستقلاً (٢) . ولكن

عندما تمكن الموفق ، أخو الخليفة المعتمد من السلطة ، وأصبح قائماً بأمور الخلافة في بغداد بعد أن استبد بأخيه أراد أن يعيد مصر إلى حظيرة الدولة العباسية فقام بتعيين أماجور والي سورية حاكماً على مصر . ولكن ابن طولون رفض الانصياع إلى هذا الأمر . وعندما توفي أماجور سار ابن طولون بجيشه إلى سورية ، ففتح دمشق . ثم تقدم شمالاً ، فاستولى على حمص وحماه وحلب وأنطاكية . فوقعت شيزر تحت نفوذ . وفي سنة ٨٨٩ م أعلن نفسه حاكماً على مصر وسورية وأصبحت سورية تابعة لمصر ، وكانت مواردها تنفق برمتها على مصر ، بينما لم تحظ هي بشيء من الإصلاح (٢) . ولما توفي ابن طولون سنة ٨٨٤ م خلفه ابنه المسرف الفاسد أبو الجيش خمارويه . أمر خمارويه بقتل أخيه العباس لرفضه المبايعة له ، كما أقام الواسطي على جيش الشام . ولكن الواسطي كان يخشى خمارويه ، فكتب إلى الموفق يصغر أمر خمارويه ويحرّضه على المسير إليه . فأقبل المؤمن من بغداد ، ونزل الرقة ، فتسلم قنسرين والعواصم وسار إلى شيزر . وهنالك قاتل أصحاب خمارويه وهزمهم ثم سار إلى دمشق ودخلها . فخرج خمارويه في جيش عظيم فلاقاه أحمد بن الموفق فقاتله وهزمه (٤٣) . ولكن أحمد اضطر إلى الإنسحاب إلى بغداد ، مما ساعد خمارويه أن يتفرغ لمحاربة خصومه بسهولة . وفي سنة ٨٨٦ م عقدت معاهدة بين الطرفين ضمنت للطولونيين الولاية على مصر وبلاد الشام . وفي سنة ٨٩١ توفي الموفق ، فقام ابنه أحمد فخلع الخليفة المعتمد وأعلن نفسه خليفة . متخذاً لقب المعتضد بالله (٨٩٢ م) . عقد خمارويه مع المعتضد معاهده جديدة متوّجها بزواج ابنته قطر الندى إلى الخليفة (٣٣) . كان خمارويه مبذراً ،

وقد بلغ من إسرافه في معاشرة الغلمان ما أدى إلى إثارة عبيده عليه ، إذ انقضوا عليه ذات عشية وهو في قصره خارج دمشق بسفح قاسيون فقتلوه (٢) نُقل جثمانه إلى مصر ليدفن فيها . وفيما كان يوارى التراب . كان سبعة من القراء يقرأون على قبر والده المجاور ويرتلون صدفة « خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم (٣٤) » (٢) . خلف خمارويه بنه جيش ، فاغتيل من قبل جنوده بعد سبعة أشهر من ولايته ، فاستلم الولاية بعده أخوه هارون (٨٩٦ — ٩٠٤ م) فكان عهده مضطرباً . وبظهور القرامطة غدا أشد إضطراباً (٢) .

كان القرامطة من الشيعة ، تصلهم صلة النسب بالإسماعيليين والفاطميين . وسنأتي على شرح منشأ هذه الفرق في معرض الحديث عن الباطنية . وبينما كانت سورية على مذهب السُنّة طيلة العصر الأموي لكن الضغط الذي تميزت به سياسة العباسيين ، أفسح المجال أمام تعاليم العلويين ، وهذه بدورها أعدّت الشعب في هذه الآونة لتقبل آراء القرامطة ، التي تنسب إلى فلاح عراقي كان يُدعى حمدان قرمط (٢ ، ٣١) ففي سنة ٩٠١ م زحف القرامطة ، الذين كانوا أسسوا لأنفسهم دولة مستقلة في جنوب العراق وعلى الضفة الغربية من الخليج العربي ، بقيادة ابن زكروية ، فهزم الحامية الطولونية ، وحاصر دمشق ، ثم احتل حمص وسلمية ، كما قضى على عدد كبير من أهالي حماة ومعرّة النعمان . فدُعي له في صلاة الجمعة على عدد من منابر المساجد في سورية (٢ ، ٣٥) . ولا شك أن نتيجة سيطرة القرامطة على حماه ومعرّة النعمان أن نفوذهم امتدّ غرباً فشمل شيزر وجوارها . استنجد الدمشقيون بالخليفة المكتفي ، فأرسل سنة ٩٠٢ م جيشاً بقيادة طفج التركي ، الذي قضى على القرامطة

في سورية . ثم تقدّم فاتحاً نحو مصر حيث أزال حكم الطولونيون عنها (٢ : ٣٣) . وفي سنة ٩٣٥ م أقام محمد بن طفج نفسه حاكماً على مصر . فاستجاب الراضي لطلبه ومنحه لقب إخشيد ، الذي هو التقليدي لإمراء إيران (٢) .

الإخشيديون : وفي سنة ٩٤١ م بينما أقرّ الخليفة المتقي البويهيين وهم من الفرس . بالسلطة على بغداد ، أمرّ الإخشيد على مصر وضم إليه البلاد الشامية (٢) . وبهذا رأت شيزر طغمة أخرى من الحكام ممن لاحسب لهم ولا نسب . وفيما بعد انتدب الخليفة محمد بن رائق على ولاية بلاد الشام على أن يستخلصها من الإخشيد . فسار ابن رائق إلى دمشق وطرد نائب الإخشيد . ومنها توجه إلى مصر ، فاشتبك بجيش الإخشيد حيث قتل قائده أخا الإخشيد . ومن ثم تمّ الصلح بين الطرفين على أن يأخذ ابن رائق بلاد الشام . وفي العام التالي سيّر الإخشيد محمد بن طفج قائده كافور بجيش عظيم ، فهزم ابن رائق واستولى على سورية بما فيها حلب حيث قطع الأشجار التي بظاهرها وأمعن في أذى أهلها (٤٣) . وكافور هذا هو العبد الخصي الذي قال فيه أبو الطيب المتنبي من جملة ماقال :

أمـا في هـذه الـدنيـا كريم
تـزول بـه عن القلـب الهمومُ
تشابهت البهـائم و العبِدّي
عليـنا و الموالي و الصميـمُ
ومـا أدري إذا داء حـديث
أصـاب الناس أم داء قـديم

حصلتُ بأرضِ مصرَ على عبيدٍ
كأن الحرَّ بينهم يتيمُ
كأن الأسود اللابيَّ فيهمْ
غرابٌ حوله رَخَمٌ وبومُ
أخذتُ بمدحه فرأيتُ لهواً
مقالي للأُخَيْمَقِ يا حليمُ
ولما أنْ هجوتُ رأيتُ عيّاً
مقالي لابن آوى يا لئيمُ
إذا أتت الإساءة من وضيعٍ
ولم ألُمِ المُسيءَ فمن ألومُ (١)

وبعد عام من هزيمة ابن رائق عُقد صلح ، أخذ الأخشيد بموجبه دمشق واستأثر ابن رائق بحلب . ولكن ناصر الدولة بن حمدان ، الذي كان مستأثراً بالموصل والجزيرة قام يناجز ابن رائق على حلب ، فسار إليه وقتله ، ثم كتب بالأمر إلى الخليفة المتقي (٩٤٠ — ٩٤٤ م) فحلَّ ذلك من نفس الخليفة محلاً عظيماً ، فأنعم عليه باسم ناصر الدولة ، كما لقب شقيقه علي أبي الحسن بسيف الدولة ، وهو مؤسس دولة بني حمدان وشمالي سورية (٤٣) .

الحمدانيون : وهم من قبيلة تغلب من ربيعة العدانية . وكانت تغلب قبلاً على النصرانية ، ومنها ظهر الشاعر الأموي الشهير الأخطل (٢ ، ٣١) . كان الحمدانيون من الشيعة المتساهلين ، وقد نبغ منهم سيف الدولة ، الذي سار إلى حلب سنة ٩٤٤ م فانتزعها عن عامل

الإخشيد ؟ وقد كانت حلب ، بعد وفاة ابن رائق سنة ٩٤١ م قد أقر الخليفة عليها وعلى سورية كلها الإخشيد ، بينما أقرّ البويهيين على بغداد (٢) . سار سيف من حلب قاصداً دمشق فتصدّى له الإخشيديون بالقرب من الرستن فهزمهم وانتزع منهم دمشق . ولكن أهل دمشق طلبوا نجدة الإخشيد سراً لتجبّر سيف الدولة بهم ، فسيّر إليهم جيشاً أجبر سيف الدولة على الجلاء عن دمشق ، وإقرار صلح حصل بموجبه سيف الدولة على حلب وأنطاكية وحمص ، وكانت شيزر ضمن ممتلكاته (٢ ، ٤٣) وفي سنة ٩٥٠ م حاصر الروم سيف الدولة في حصن أفاميا ، فأنجده صمصامة والي دمشق ودفعهم عنه . وفي السنة التالية فتح الروم حصن شيزر لقلة رجالها . وفي سنة ٩٦٢ م استولى الروم على حلب دون قلعتها وكان سيف الدولة غائباً عنها . وعند عودته قاتلهم قتالاً شديداً فقُتل من أتباعه عدد كبير . ولكن الروم جلوا عن حلب عندما رأوا نجدة قادمة نحوهم وقد كانت لهم ، ولكنهم توهموا أنها كانت آتية لنجدة سيف الدولة . وفي سنة ٩٦٧ م دخل الروم ثانية شمالي سورية فعاثوا وأفسدوا في أعمال حلب فتراجع عنها سيف الدولة إلى ناحية شيزر ، ولكنه إنكب عليهم فتراجعوا نحو أنطاكية فحاصروها ثمانية أيام ثم رحلوا عنها (٤٣) . وفي السنة نفسها توفي سيف الدولة بالفالج ، فخلفه إبنه سعد الدولة (٢ ، ٣١) . وفي سنة ٩٦٩ م سار نقفور امبراطور الروم بجيشه إلى بلاد الشام بطريق وادي العاصي ، فاستول على شيزر وحماة وحمص ، فنهبها ، ثم توجه إلى الساحل فاستولى على مدنه وأحرق منها اللاذقية . وفي هذه الأثناء كان نواب نقفور يحاصرون أنطاكية وحلب ، فسقطت أنطاكية في تشرين الأول وحلب وكان

عليها قرعويه حاجب سعد الدولة . وقبل سقوط حلب في نهاية عام ٩٦٩ م أُغتيل نقفور من قبل ابن عمه يوحنا زمسكيس (الشُمُشْقيق) ، الذي أعلن نفسه إمبراطوراً . ضُمّت أنطاكية إلى الإمبراطورية البيزنطية ، بينما جُعلت حلب إمارة تابعة لبيزنطة بموجب معاهدة كانت أيضاً عيّنت حدود ولاية حلب والمدن التابعة لها ومنها شيزر ، على أن يتولى الإمبراطور البيزنطي ترشيح أميرها (٦٣) . وقد نصّت المعاهدة أيضاً على مال يحمله قرعويه كل سنة وقدر ثلاثة قناطير ذهب عن حق الأرض . وسبعة قناطير عن خراج حلب وقنسرين ، وحمص وحماه وحوشيه وسلمية والمعرّة وكفر طاب وأفامية وشيزر وجبل السّماق ومعرّة مصربن والأثارب وغيرها (٤٣) . وفي العام الذي أصبح به زمسكيس إمبراطوراً ، تقدم الخليفة الفاطمي المعز فطرد الإخشيديين من مصر وتقدم في جنوبي سورية . وفي خريف ٩٧٤ م وجه زمسكيس إهتمامه نحو الشرق فهبط بجيشه إلى شرق إقليم الجزيرة ، فاستولى على نصيبين ، واعترفت له الموصل بالتبعية ، ثم أراد القيام بزحف مفاجيء على بغداد ، غير أنه أدرك أن الفاطميين أشد خطورة من منافسيهم العباسيين . ولهذا توجه في ربيع عام ٩٧٥ م إلى بلاد الشام ، فاجتاح وادي العاصي ، فخضعت له حمص بدون مقاومة وبعلبك ودمشق التي وعدت بدفع الجزية ، ثم دخل فلسطين ، ومنها إنكفأ عائداً إلى إنطاكية ، إذ إستولى على مدن الساحل ، كما استولى على قلعة برزه المشرفة على سهل الغاب وقلعة صهيون (٣٦) . وأثناء حملة زمسكيس هذه في جنوبي سورية جمع سعد الدولة أمره ، إذ كان يقيم في معرّة النعمان ، كما قوّى جيشه ، فهاجم حلب ودخلها ام ٩٧٥ م ، وبعد عامين آخرين استولى على قلعتها . وفي سنة ٩٨٥ م

حاصر سعد قلعة سمعان ، فانتزعها من أيدي الروم ، فنهبها ، وفتك بقسم من رهبانها بينما باع الآخرين في أسواق العبيد (٢) . وقد تجلّت فظاظة وقساوة سعد الدولة أيضاً بقتله خاله الفارس المقدام والشاعرُ المرموق أبي فراس الحمداني الذي حارب الروم ووقع في أسرهم وأمضى السنين في سجونهم في القسطنطينية . كان أبو فراس مقيماً في حمص ، وقد جرت بينه وبين سعد الدولة وحشة ، فطلبه سعد ، فانحاز إلى صدد وهي قرية بالقرب من حمص. جمع سعد الأعراب من بني كلاب وغيرهم ، وسيّرهم في طلب أبي فراس بقيادة قرعويه ، فأدركوه بصدد ، فاستأمن أصحابه ، واختلط هو بينهم ، فقال قرعويه لغلام له : اقتله ، فقتله وأخذ رأسه وتُركت جثته في البرّية حتّى دفنها بعض الأعراب (٣٧ ، ٣٨) . مات سعد الدولة فقام بعده إبنه أبو الفضائل سعيد الدولة (٩٩١ — ١٠٠١ م) وفي عهده ازداد الخطر الفاطمي ، إذ سيّر الخليفة الفاطمي جيشاً للاستيلاء على حلب (٣١).

الفاطميون : بدأت الحركة الفاطمية في بلدة سلمية شرقي حماه ، وفي سنة ٨٩٣ م نُقلت بدورها إلى شمالي إفريقيا . وفي سنة ٩٠٩ م جلب دعاتها عُبيد الله ابن مؤسس مذهبهم إلى تونس الذي أعلن عن نفسه بأنه المهدي المنتظر . فسجنه الأغالبة حكام تونس ، وكان مؤسس دولتهم إبراهيم بن الأغلب الفارسي ، إذ كان منحه هذا الإمتياز الخليفة العباسي هارون الرشيد . وبعد حين أُخلي سبيل عبيد الله كما تمكن أتباعه من القضاء على دولة الأغالبة أو الحركة الفاطمية شبيهة بحركة القرامطة من جهة المنشأ . فكلاهما من فرق الباطنية وقد نتجتا من الإسماعيلية . وبعد توطيد أقدامهم في تونس ، أعلن عبيد الله نفسه خليفة ، وبذلك نشأت سلالة خلافية جديدة هي السلالة الفاطمية

(٢ ، ٣١) . وهنالك من المؤرخين من يرى أن الفاطميين ليسوا من سلالة فاطمة الزهراء ابنة الرسول (صلعم) وزوجة علي بن أبي طالب . فمنهم من يميل إلى الإعتماد أن عُبيد الله هذا لم يكن إلا يهودياً تقمص شخصية عبيد الله الذي أتى من سلمية وقُتل بسجن الأغالبة ، بينما البعض الآخر يؤكد أن عبيد الله لم يكن علوياً حتى ولا عربياً بل كان سليل الزعيم الفارسي عبد الله ابن ميمون القداح المؤسس الثاني بعد اسماعيل للحركة الإسماعيلية (٢ ، ٣١) خلف عبيد الله على العرش الفاطمي مجموعة من الخلفاء ، فكان مجموعهم أربعة عشر خليفة . وهم :

١ ـ عُبيد الله (المهدي)	٩٠٩ ـ ٩٣٤م
٢ ـ القائم	٩٣٤ ـ ٩٤٦م
٣ ـ المنصور	٩٤٦ ـ ٩٥٢م
٤ ـ المعز	٩٥٢ ـ ٩٧٥م
٥ ـ العزيز	٩٧٥ ـ ٩٩٦م
٦ ـ الحاكم بأمره	٩٩٦ ـ ١٠٢١م
٧ ـ الظاهر	١٠٢١ ـ ١٠٣٥م
٨ ـ المستنصر	١٠٣٥ ـ ١٠٩٤م
٩ ـ المستعلي	١٠٩٤ ـ ١١٠١م
١٠ ـ الآمر	١١٠١ ـ ١١٣٠م
١١ ـ الحافظ	١١٣٠ ـ ١١٤٩م
١٢ ـ الظافر	١١٤٩ ـ ١١٥٤م
١٣ ـ الفائز	١١٥٤ ـ ١١٦٥م
١٤ ـ العاضد	١١٦٥ ـ ١١٧١م (٢)

وفي عهد المعز نُقلت العاصمة من تونس إلى القاهرة في مصر بعد انتزاعها من الإخشيد أحمد أبو الفوارس (٩٦٨ - ٩٦٩ م) . وبعدها وجه المعز قائده جوهر حيث قضى على باقي الإخشيديين في جنوبي سورية سنة ٩٦٩ م . كان للفاطميين خصوم . في سورية . فهم الحمدانيون والقرامطة والأتراك والروم . فحاربوا القرامطة وأجلوهم عن دمشق ، ولكن الأتراك احتلوا دمشق وبدأوا يشنون منها الغارات على الفاطميين بالتعاون مع القرامطة (٢٣) . وفي عهد العزيز (٩٧٥ - ٩٩٦ م) سيّر الفاطميون إلى سورية جيشاً كثيفاً بقيادة منجوتكين لاستصفائها كلياً والقضاء على الحمدانيين . دخل منجوتكن دمشق فتلقاه أهلها . فأقام بها مدة ثم رحل إلى حلب لمقاتلة الحمدانيين . وقع القتال بين الطرفين لأجل أفاميا سنة ٩٩٣م . فانهزمت الحمدانية . ثم سار منجوتكين إلى حلب وقد تحصّن بها سعيد الدولة وقائده لؤلؤ . ثم تركها فسار إلى حصار أنطاكية وكانت بيد الروم فقاومه أهلها ورشقوه بالنشاب . فغادرها وعاد إلى منازلة حلب . ولما لم يتمكن من فتحها رجع إلى دمشق . وفي سنة ٩٩٤م عاد فنزل على أفامية فسلمها إليه وفاء خادم سيف الدولة . ثم رحل إلى شيزر فقاتلها وتسلمها من سوسن غلام سعد الدولة ومنها عاد لمحاصرة حلب ولكنه لم يتمكن منها . ولكن منجوتكين بعد أن قوي أمره في سوريا إنقلب على الخليفة الفاطمي . الذي حاربه وأوقعه في الأسر . وفي سنة ٩٩٩ م وقعت النار في أفامية فسار إليها سعيد الدولة لاسترجاعها من الفاطميين ، ولكنه رجع عنها لما سار إليها دوقس أنطاكية الرومي الذي حاصرها أشد حصار . فاستنجد الملايطي المقيم بها بجيش بن الصمصامة بدمشق . فاقتتل الطرفان . فقُتل الدوقس وهُزم الروم .

سار ابن الصمصامة إلى شيزر فخف إليها ملك الروم ففتحها وشحنها بالأرمن ، وسار منها إلى حصن أبي قبيس فأخذه بالأمان وسار إلى حصن مصياف فخربه ثم سار إلى حمص فدخلها ، وتحصّن نفر منها في كنيسة قسطنطين تحرماً بها ، فأحرقها ، وكانت معجزة بحمل نحاسها ورصاصها ثم سار إلى قرب بعلبك . استنجد ابن الصمصامة من دمشق بمصر ، فكتب الخليفة إلى ولاة الشام أن يوافوا ابن الصمصامة في دمشق ، فتجمعت له جيوش كثيفة ، فانكفأ ملك الروم نحو الساحل راحلاً إلى أنطاكية (٤٣) . تابع الفاطميون ضغطهم على الحمدانيين ، فاستنجد سعيد الدولة بالروم ، فأرسل إليه الإمبراطور باسيل الثاني ١٧ ألف مقاتل مما اضطر الفاطميون على التراجع (٣١) . ولكن دعم الروم لسعيد لم يطل حكمه إذ أن قائده لؤلؤاً والد زوجته دس لهما السم فقتلهما سنة ١٠٠١ م ، فدانت له بذلك حلب . تقدم لؤلؤ إلى الفاطميين فطلب حمايتهم ، وأصبح يحكم البلاد بالوصاية على ابني سعيد وهما علي وسعيد ، باسم الخليفة الفاطمي . وفي سنة ١٠٠٣ م أرسل لؤلؤ الأميرين الصغيرين مع نساء الحمدانيين إلى القاهرة ، فكانت بذلك نهاية السلالة الحمدانية (٢) . وفي سنة ١٠٠١ م بعد مقتل سعيد الدولة الحمداني قرر الأمبراطور باسيل أنه لاجدوى من الفتوحات، فعقد هدنة مع الخليفة الفاطمي الحاكم بأمره ، وتقرر أن يكون الحد الفاصل بين الإمبراطوريتين من نقطة على الساحل بين بانياس وطرطوس ويمتد شرقاً نحو الداخل إلى العاصي عند نقطة تقع جنوبي شيزر (٣٦) . وفي سنة ١٠٠٥ م ظهر في أعمال حلب رجل اسمه أحمد بن الحسين وقد عُرف بالأصغر اتزيّه بزي الفقراء فتبعه خلق من العرب وسكان القرى ، فنازل شيزر ولقي عسكر

الروم بالقرب من أنطاكية فهزم وسقط في الأسر . فتوسط له لؤلؤ صاحب حلب على أن يُعتقل بقلعة حلب ، فأخذ واعتقل بها (٤٣) . تلى لؤلؤاً على إمارة حلب ابنه منصور فكرهه الحلبيون فطلب مساعدة بني كلاب وشرط لهم أن يعطيهم الإقطاعات الكثيرة والضياع ، كما استنجد بالفاطميين ، وأقام يخطب لهم . ولما فسد الأمر بينه وبين الحاكم بأمره عاد الكلابيون يلتمسون ماشرط لهم . فحضر منهم زهاء سبعمائة رجل فيهم جميع أمراء بني كلاب . فعمل السيف في بعضهم وسجن منهم جماعة أخرى كان بينهم صالح بن مرداس الذي ألقى نفسه من أعلى القلعة إلى تلّها ، فسار إلى أهله وجمع ألفي فارس وأسر ابن لؤلؤ وقيده بالقيد الذي قُيّد به (٤٣) . وفي سنة ١٠٢٣ م وذلك في خلافة الظاهر تمكن صالح من انتزاع حلب من يد الفاطميين ، وتأسيس السلالة المرداسية التي تمكنت أن تبسط نفوذها على حلب وجوارها وأن تحتفظ بها بين شدة ورخاء حتى سنة ١٠٧٩ م (٢) . بيد أن شيزر لم تخضع لسلطانهم إذ أنها آنذاك كانت في حوزة الروم . وفي سنة ١٠٢٥ م منح صالح الأمراء المنقذين إقطاعاً في جوار شيزر (٣٩) .

المنقذيون : وهم من أعراب بني كنانة من خزيمة من مدركة من الياس من قبيلة مضر العدنانية (٤١) . وقد اتصف الأمراء المنقذيون بالنشاط والشجاعة . وحالما وطدوا نفوذهم في هبة المرداسيين ، بدأوا بتوسيع ممتلكاتهم . ففي سنة ١٠٤١ م استولى الأمير أبو المتوج مقلد بن نصر بن منقذ على كفر طاب على مسافة قصيرة شمالي غربي خان شيخون . وفي عهد خلفه أبي الحسن علي بن مقلد الملقب بسديد الملك امتد النفوذ المنقذي إلى العاصي بجوار شيزر إذ كانت بيد الروم

آنئذ (٣٩) . وفي سنة ١٠٧٥ م بدأ سديد الملك بعمارة حصن الجسر لمحاصرة شيزر . ويقول أبو الفداء (٤٠) أن موضع الحصن كان بزمانه تلاً خالياً من العمارة يقع غربي شيزر على مسافة قريبة منها . وكان يتولى على شيزر ، يوم ذاك ، عامل للروم يدعي ديمتري . ولما طال حصار شيزر راسل ديمتري سديد الملك مقترحاً تسليم شيزر مقابل دية من المال يدفعها إليه سديد الملك كما اشترط أبقاء أسقف شيزر واحتفاظه بأملاكه . قبل سديد الملك شروط ديمتري ، فسلمت إليه شيزر يوم أحد من شهر تموز سنة ١٠٨١ م ، فنفذ شروط المعاهدة ، كما أبقى الأسقف في شيزر حتى وفاته . خلف سديد الملك ابنه عزّ الدولة أبو المرهف نصر بن علي سنة ١٠٨٦ م وكان قد اشتهر بالورع وحب السلام . وفي عهده توسعت إمارة المنقذيين . فدانت له أفاميا وكفر طاب واللاذقية . ولما حضره الموت سنة ١٠٩٨ م استخلف أخاه مجد الدين أبا سلامة مرشد بن علي على حصن شيزر ، فقال مرشد : « والله لاولّيْته ولأخرجنْ من الدنيا كما دخلتها » .ومرشد هو والد الأمير أسامة بن منقذ . ولما امتنع مرشد عن الولاية ، أعطاها عزّ الدولة لأخيه الأصغر عزّ الدين أبي العساكر سلطان (٤٠) . في غضون إمارة سلطان طرأت أحداث على المسرح السياسي كان لها فيما بعد أصداء تاريخية هامة ، إذا تدفق على سورية أقوام من مجاهل الصين وصحارى تركستان ، وبرابرة من أصقاع أوربا ، ومرتزقة من هضاب فارس ، فدنسوا أرضها وبعثروا حضارتها واستذلّوا أهلها . فذاقت كل حاضرة من حواضر سورية الذلّ والهوان على أيدي هؤلاء الغزاة القساة . ومن أهم هؤلاء الغزاة والأحداث التي ميزت مجيأهم هي التوسع السلجوقي في سورية ،

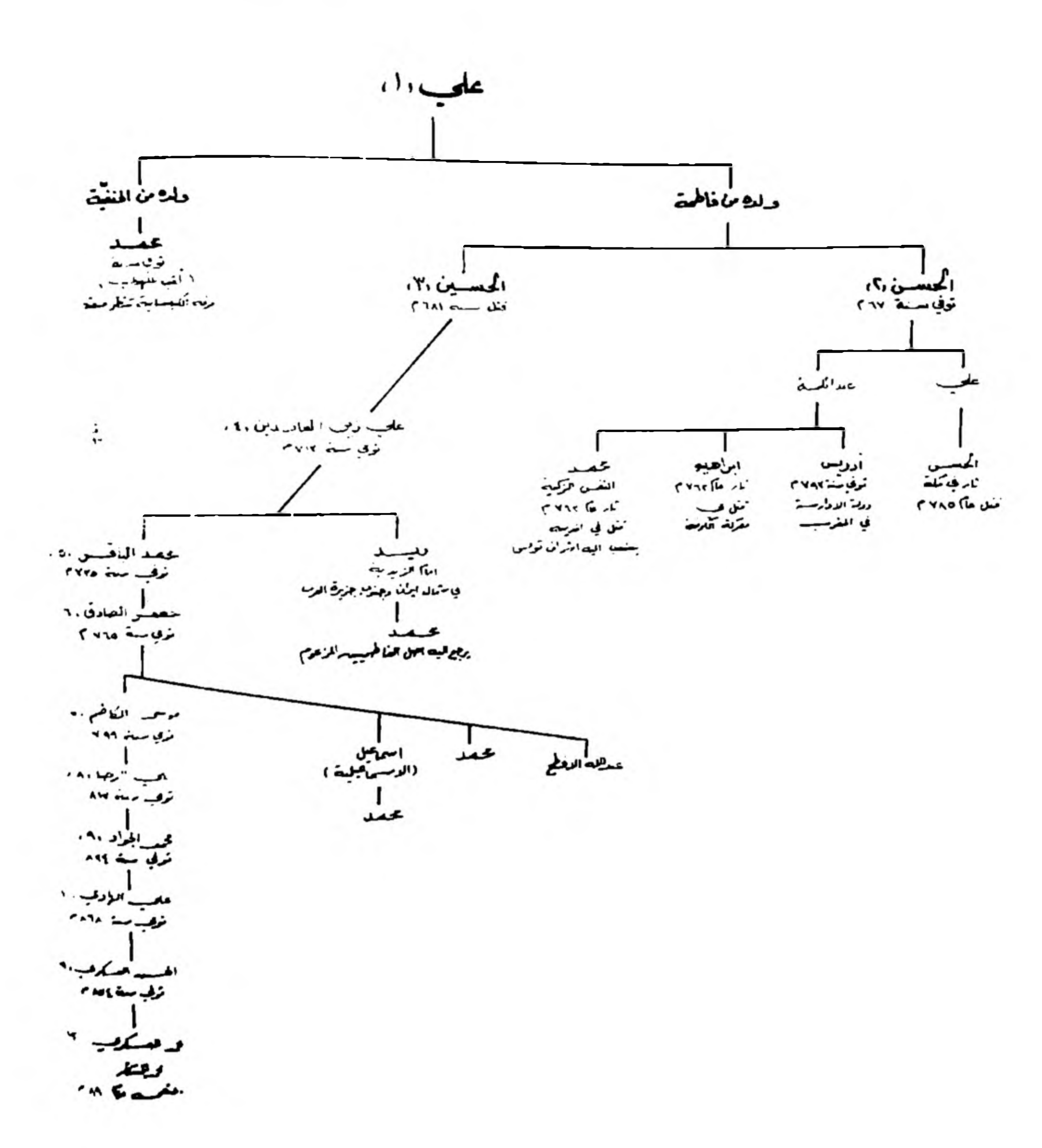
وانحسار النفوذ الفاطمي منها والقضاء على المرداسيين في حلب وظهور الحشاشين وبدء الحملات الصليبية .

السلاجقة : لما عجز البويهيون ، الذين أصبحوا أسياداً أقوياء في بغداد في خلافة المستكفي العباسي عن قمع الفوضى المنتشرة في الدولة العباسية ، كانت النتيجة أن تم طردهم على يد السلاجقة الأتراك فيما بعد . وكان مؤسس السلالة السلجوقية ، سلجوق (مقدّم الغزّ) . وكان زعيماً من زعماء قبيلة الغز التركمانية في تركستان . وكان في سنة ٩٧٠ م أن خرج سلجوق مع قبيلته من بادية القيرغير ، واجتاحوا منطقة بخارى ، حيث تم اعتناقهم الإسلام (٣٣) . أستأنف طغرل حفيد سلجوق هذه الفتوحات غرباً عبر فارس حتّى وقف على أبواب بغداد سنة ١٠٥٥م في عهد الخليفة العباسي القائم ، الذي لم يجد ، لفرط عجزه ، إلا طريقاً واحداً ليسلكه وهو أن يستبدل سيداً بآخر . لهذا فانه استبدل البويهيين الفرس الشيعيين بسلاجقة الأتراك السنيين . وقد أعطى الحاكم السلجوقي نفسه لقب « سلطان » كما عمد طغرل في غمرة الإنتصارات التي أحرزها إلى ترحيل جموع من الأتراك السلاجقة وسواهم إلى غربي آسيا . وفي عهد ابن أخيه وخلفه الب أرسلان (١٠٦٣ — ١٠٧٢ م) أغار السلاجقة سنة ١٠٧٠ م على الدولة المرداسية في شمالي سورية ، فاحتلوا حلب واستتبعوا حاكمها المرداسي (٢) . ثم اقتحم اتسيز قائد الب فلسطين فانتزع منها جنوباً حتى عسقلان من أيدي الفاطميين (٢) . وفي سنة ١٠٧١ م أحرز الب إنتصارا حاسماً على البيزنطيين في معركة مانزكرت حيث وقع الإمبراطور رومانوس ديوجين نفسه أسيراً . وكان نتيجة ذلك أن تدفقت قبال السلاجقة الرحل على شمالي سورية والأناضول(٢) .

وفي عهد ملكشاه بن الب (١٠٧٢ – ١٠٩٢) م دخل اتسيز دمشق سنة ١٠٧٦ م ، ثم وجه ملكشاه ابن عمه سليمان بن قتلمش إلى آسيا الصغرى حيث دخل ١٠٧٧ م نيقيه (أزنيق) وهي غير بعيدة عن القسطنطينية وفي سنة ١٠٨٤ م جعل سليمان قونية عاصمة له . وفي العام نفسه إنتزع السلاجقة إنطاكية ثم اللاذقية من أيدي الروم (٢٠) . غير أن اللاذقية لم تلبث أن إنتقلت إلى سيادة أمير شيزر عز الدولة أبو المرهف لدخوله في طاعة ملكشاه ، وبقيت في حوزة المنقذيين إلى أن استولى عليها الصليبيون في خريف سنة ١٠٩٧ م (٣٦) . وفي عهد ملكشاه دانت سورية بالكلية للسلاجقة ، فنشأت في دمشق وبيت المقدس إمارتان ثانويتان خاضعتان لسنطانه (٣٣) . فكانت دمشق تخضع إلى تتش بن ألب أرسلان أخي ملكشاه . وكان تتش قد دخل دمشق ١٠٧٩ م بعد أن قتل أتسيز وهو يعتبر مؤسس دولة سلاجقة سورية (٢ . ٣٣) . وفي عهد ملكشاه عرفت الإمبراطورية السلجوقية عدواً داخلياً قُدّر له أن ينشر الذعر في ربوع الشرق الأوسط سنوات طوالاً . وكان هذا العدو يتمثل بفئة الحشاشين (٣٣) .

الحشاشون : لقد حذّر ملكشاه من قبل وزيره نظام المُلك من مكائد بعض الطوائف المتشيّعة . إن التشيع بدأ كحزب سياسي سلالي انضوى تحت لوائه الداخلون في الإسلام وخاصة من الشعوبية ليناضلوا ضد السيادة العربية ، وكان في كثير من الأحيان ستاراً تستخدمه بعض هذه الفئات لمناهضة الحكومات القائمة في فترات مختلفة . والشجرة السلالية التالية للأئمة العلويين تشير إلى الفئات السياسية المتعددة التي بلغت من النفوذ ماكانت قد عجزت من الوصول إليه

شجرة آل علي بن أبي طالب
(٤١ ، ٤٢)



شكل رقم (١)

أو لم تنتحل علاقة ما مع الأسرة العلوية (شكل ١) . ففي عهد الخليفة المعتمد العباسي توفي الإمام الحادي عشر الحسن العسكري سنة ٨٧٤ م . وبعد وفاته اختلفت الشيعة فيما بينها ، فظهرت عن ذلك الإسماعيلية . وفيما بعد نشأت عدة قوى مناوئة للعباسيين ، وكان منها القرامطة ، والفاطميون كما ذكرنا سابقاً . لما نجح الفاطميون في إقامة دولتهم في المغرب ثم بمصر ، واتسعت رقعتها حتى الفرات ، دار في خلدهم أن يمدوا سلطانهم في المشرق حتى يعم بقاع الأرض . ومن البلاد التي اهتم بها الفاطميون وأرسلوا دعاتهم إليها ، البلاد الفارسية ، وقد كان أول رواج هذه الدعوة في عهد ملكشاه السلجوقي (١٠٧٢ — ١٠٩٢ م) ووزيره نظام الملك . وقد كان الداعية الأكبر لهذه الحركة في بلاد فارس رجل يُدعى أحمد بن عبد الملك بن عطاش (٣٢) وفيما بعد ظهر الرئيس الثاني للباطنية وهو الحسن بن الصباح ، وكان شهماً ذكياً عالماً بالهندسة والحساب والنجوم ، كما أن الروايات تحدثت عن الصداقة التي ربطته بأيام الشباب بالوزير نظام الملك والرياضي الكبير عمر الخيام . ثم أنه رحل إلى مصر حيث استهوته الدعوة الفاطمية ، فانحاز إلى صف نزار ابن الخليفة المستنصر الفاطمي (١٠٣٥ — ١٠٩٤ م) ولكن نزار هذا لم يوفق لارتقاء العرش ، ومن هنا عُرف اتباع ابن الصباح النزارية . وفي سنة ١٠٩٠ م عاد ابن الصبّاح إلى بلاد فارس كداعية من دعاة الفاطميين ، فعسكر مع عصبة قليلة من أتباعه أمام قلعة ألَمُوت الجبلية (قلعة العقبان) الواقعة شمالي بحر قزوين ، ودعا قائد حاميتها من قبل ملكشاه لتقسيم يمين الولاء للمستنصر ، ولكن لما رفض القائد نداءه هاجم القلعة فدخلها واتخذها قاعدة لقواته . نظم ابن الصبّاح أتباعه الذين عُرفوا بالحشاشين على الطريقة

الفاطمية (١٦ : ٣٣) . وفي سنة ١٠٩٢ م . نفذ الحشاشون حكم الموت بالوزير نظام الملك . وبعد شهرين من مصرع الوزير توفي ملكشاه ، وكان قد أوصى بالسلطنة لإبنه بركيارُق الذي قام بمحاربة إخوته وأقربائه لتثبيت ملكه (٣٣) . وفي سنة ١٠٩٥ م اشتبك في معركة مع عمه تتش ارسلان حاكم سورية ، فسقط الأخير قتيلاً . فآلت السلطة لولديه ، رضوان الذي حكم على حلب (١٠٩٥ — ١١١٣ م) ودقاق الذي تملك على دمشق (١٠٩٥ — ١١٠٤) أتهم بركيارق بالميل إلى الباطنية (الحشاشين) . وقد استفحل أمرهم (٣٢) ، حيث أخذوا بالدخول إلى سورية والهجوم على القلاع والحصون متخذينها معاقل لهم . ولقد أغاروا مراراً على شيزر ولكن مناعتها أحالت دون سقوطها في أيديهم وجعلها قاعدة لهم كما فعلوا فيما بعدْ بعد احتلال سلمية ومصياف وبانياس والقدموس . وحوالي الوقت الذي كان فيه الحشاشون يدخلون سورية من الشمال الشرقي كان الصليبيون يدخلونها من الشمال الغربي (٢) .

الصليبيون : بدأت فكرة الحركة الصليبية لاحتلال بيت المقدس في تشرين الثاني سنة ١٠٩٥ م عندما ألقى البابا أوربانوس الثاني خطبة في مدينة كلرمونت في جنوبي فرنسا . حث فيها أوربا لانتزاع كنيسة القيامة في القدس والإحتفاظ بها لأنفسهم . وقبل خطبة البابا هذه كان إمبراطور الروم الكسيوس كومنينس قد طلب العون من البابا لمحاربة السلاجقة الذين كانوا قد اجتاحوا ممتلكاته حتى جوار القسطنطينية . وفي ربيع ١٠٩٧ م استجاب لنداء البابا نحو ١٥٠ ألف مقاتل من الإفرنج والفرمنديين ، الذي كان موضع ملتقاهم المتفق عليه ، مدينة

القسطنطينية ، التي تقاطروا عليها ، وقد حملوا إشارة الصليب حيث عرفوا من ثم بالصليبيين . وعلى هذا النحو قامت الحملة الصليبية الأولى وكان مسيرها إلى الأراضي المقدسة بطريق آسيا الصغرى حيث اصطدمت هنالك بقلج أرسلان . وفي حزيران من تلك السنة استسلمت مدينة نيقية التي حاصرها الصليبيون إلى قوات الروم الإمبراطورية (صورة ٤) ، ولكن ما أن عبرت القوات الصليبية جبال طوروس حتى وقع الخلاف بين قوادها . فتحول بلدوين شرقاً إذ احتل الرها سنة ١٠٩٨ م وجلس أميراً على عرشها ، أما تانكرد النورمندي فتحول غرباً . بينما تدفق معظم الجيش الصليبي على سورية . وكان يحكم سورية وقتئذ فئات متعددة : فالسلاجقة كانوا في دمشق وحلب وأنطاكية . بينما أقسام أخرى منها كانت في أيدي زعماء محليين من العرب . فطرابلس وجوارها كانت منذ سنة ١٠٦٩ م تحت سلطة بني عمار . بينما كانت شيزر منذ عام ١٠٨١ م تحت حكم بني المنقذ . أما أهل البلاد فقد كانوا بعيدين عن تكوين جبهة موحدة وذلك لأن الفرق العديدة التي نتجت بواسطة التشيع أخذت باقتسام البلاد . فالدروز إعتصموا في جنوبي لبنان . وكانت حركتهم قد نشأت على يد الحاكم بأمر الله الفاطمي (٩٩٦ – ١٠٢١ م) . جاء هذا الإسم من اسم داع فارسي من دعاة الباطنية هو محمد بن إسماعيل الدرزي . وكلمة درزي تعني خياط بالفارسية . وكان الدرزي هو أول من جهر بتقديس الحاكم بأمره . ولما لم يلقَ الدرزي في تعليمه أذناً صاغية بين المصريين ، رحل إلى وادي التيم عند سفح جبل الشيخ في لبنان . والتيم هو اسم لقبيلة عربية كانت في منطقة الفرات حيث تنصرت ، ثم تحولت إلى جنوبي لبنان ، إستجاب أهل التيم الذين

عُرِفوا بالشجاعة وحب الحرية إلى تعاليم الدرزي . وعندما قُتل الدرزي سنة ١٠١٩ م خلفه منافسه حمزة بن علي الملقب بالهادي . وهو الآخر من أحد دعاة الفرس . وقد أقدم حمزة بالنيابة عن الحاكم بأمره على حل أتباعه من فرائض الإسلام الكبرى . ومنها الصوم والحج وسنّ مكانها شرائع أوجب بها الصدق في القول والعون المتبادل بين أبناء الملّه والخضوع التام للإرادة الإلهية والعقيدة بالقضاء والقدر . وعندما حاول الدروز أن يثبتوا أقدامهم في جنوبي لبنان ، نشب نزاع بينهم وبين العلويين . وكان من نتيجة هذا النزاع أن دفع العلويين إلى شمالي سورية فاتخذوا موطناً لهم فيها . وبينما إستوطن العلويون في جبال سورية الشمالية ، استقرت الإسماعيلية ثم الحشاشون في شرقي مواطن العلويين (٢) .

كانت أنطاكية المدينة السورية الأولى في طريق الجيش الصليبي الذي ألقى الحصار عليها في تشرين الأول سنة ١٠٩٧ م ، وكان يحكمها ياغي سيّان من قبل السلطان ملكشاه (٢) . وخلال حصار أنطاكية والحصون المجاورة مثل حصن بفراس ، تقدم جيش من الصليبيين في سورية ينهبون القرى حتى وصلوا إلى حصن البارة ففتكوا بأهله ، كما اشتبكوا مع جيش دقاق صاحب دمشق الذي كان في طريقه إلى نجدة ياغي سيّان ، بناحية شيزر ، فقتلوا منهم جماعة ، ثم عادوا ثانية إلى أنطاكية بطريق الروج (٤٣) . وبالرغم من محاولات رضوان صاحب حلب ودقاق صاحب دمشق لفك الحصار عن أنطاكية . إلا أنها سقطت في حزيران سنة ١٠٩٨ م بأيدي الصليبيين الذين دخلوها عنوة بقيادة بوهمند النورماندي نسيب تانكرد . وما كاد الصليبيون يدخلون المدينة ، حتى وجدوا أنفسهم محاصرين من قبل كربوقا

السلجوقي . ذاق الصليبيون المرار كما تحطمت معنوياتهم خلال هذا الحصار ، نتيجة الوباء والجوع . ولكن اكتشاف « الحربة المقدسة » التي طُعن بها المسيح في جنبه وهو معلق على الصليب قوى معنوياتهم ، فاندفعوا على الأثر بجرأة بالغة فتمكنوا أن يردوا المحاصرين عن المدينة (صورة) باكتساب أنطاكية أسس الصليبيون ولاية جديدة يحكمها بوهمند والذي رفض إعادتها إلى البيزنطيين (٢) . وفي أثناء حصار أنطاكية هبط على ميناء اللاذقية في خريف ١٠٩٧ م جاينمر البولوني فاستولى عليها وانتزعها من أيدي المنقذين أمراء شيزر . وفي تشرين الأول من سنة ١٠٩٨ م غادر ريموند سان جيل (السنجيل) منطقة الروج التي كان قد احتلها سابقاً ، فهاجم البارة وسبى أهلها وعيّن عليها أسقفاً . وفي تشرين الثاني من العام نفسه قام بحصار معرّة النعمان بمساعدة كونت فلاندر ثم بوهمند فيما بعد ، فثقبوا السور ودخلوا المدينة واستباحوها . وعندما تقرر السير إلى بيت المقدس هدم الصليبيون أسوار المعرّة وأحرقوها وذلك لإجبار ريموند للسير معهم إلى بيت المقدس . وفي مدة الخمسة عشر شهراً التي تلت سقوط أنطاكية . استغنم الأفضل شاهنشاه وزير الخليفة الفاطمي الطفل المستعلي (١٠٩٤ -- ١١٠١م) الحروب الناشئة في شمالي بلاد الشام وخاصة بعد هزيمة كربوقا من أنطاكية ، فغزا فلسطين وأخذها من ولدي ارتق سكمان وإيلغازي اللذين كانا قد اعترفا بسيادة دقاق صاحب دمشق واللذين سمح لهما بالإنسحاب إلى دمشق.ابتهجت الأسرات العربية في سورية لتداعي قوة الأتراك السلاجقة ، والتي كان من مظاهر تداعيها أيضاً هو تخلي كلٍ من أمير حمص وأمير حماه ، الذي كان صهراً لرضوان ، عن كل فكرة ترمي إلى مقاومة الصليبيين . وما هو

أكثر أهمية عند الصليبيين ، كان وقوف أشهر أسرتين عربيتين :
بني المنقذ وبني عمار . على الحياد ، فالمنقذون في شيزر وقد امتد
نفوذهم حتى الساحل إذ سيطروا على قلاع حصينة كقلعة أبي قبليس
وقلعة برزيه وقلعة صهيون ، وبنو عمار في طرابلس وقد سيطروا
على الشريط الساحلي من قلعة المرقب شمالاً حتى حدود الفاطميين
في الجنوب . وقد سهّل حياد هاتين الأسرتين في زحف الصليبيين
جنوباً نحو بيت المقدس (٣٦) .

غادر الصليبيون معرة النعمان بقيادة ريموند سان جيل واسقف
البارة وريموند مونبيليه صاحب تل مناس الواقعة جنوب شرقي المعرة
في كانون الثاني سنة ١٠٩٩م حيث عسكروا في كفر طاب . التي
كانت تابعة لإمارة شيزر المنقذية ليجمعوا المؤن ؛ وهناك التحق بهم
تانكرد وروبرت النرمندي . وبينما في كفر طاب قدم على الصليبيين
رسل من قبل أمير شيزر عز الدين أبي العساكر سلطان المنقذي يعرضون
عليهم الأدلاء والمؤن بأسعار رخيصة مقابلُ إجتيازهم الممتلكات
المنقذية بدون التعرض لها بأذى . قبل ريموند العرض ، وفي ١٧ كانون
الثاني ١٠٩٩ م قام أدلاء سلطان بارشاد الجيش الصليبي عبر وادي
الساروت . وحدث أن سيق إلى وادٍ مجاور للساروت كل مافي
المقاطعة من قطعان الماشية والغنم لتخبئتها من الصليبيين غير أن أحد
الأدلاء قاد الصليبيين خطأ إلى ذلك الوادي ، فاغتصبوا القطعان وباعوا
الفائض عن حاجاتهم في شيزر وحماه مقابل الحصول على خيول
اشتروا منها نحو ألف حصان . تقدم الصليبيون في سيرهم فوصلوا
مصياف في ٢١ كانون الثاني ، فسارع أميرها إلى عقد معاهدة معهم .

ومن هناك هبطوا على سهل البقيعة فاحتلوا حصن الأكراد . ومنه
سار قسم منهم لحصار عرقة في منطقة عكار . بينما
وريموند فيكونت تورين بمهاجمة الساحل للإتصال بحامية اللاذقية . قام ريموند بيليه
فاحتلا طرطوس التي كانت خاضعة إلى أمير طرابلس في منتصف
شباط . وفي نهاية شباط دخل غودفري أمير اللورين وأخو بلدوين
أمير الرها مع روبرت فلانلرجباة . ثم تحركا إلى عرقة على طلب
ريموند سان جيل . ولكن ريموند رفع الحصار عن عرقة مراعاة
لإبن عمار أمير طرابلس مقابل ماأرسله من الهدايا . تابع الصليبيون
سيرهم نحو القدس ، فتجنبوا المدن الكبيرةعلى الساحل لأنها كانت
مجهزة بالحاميات المدافعة . وفي السابع من حزيران سنة ١٠٩٩ م
وصلوا ضواحي القدس إذ كانت بيد الفاطميين . وبعد حصار ألقاه
عليها غودفري وريموند وتانكرد استمر شهراً ، أطبقوا عليها في
١٥ تموز . فدخلوها وفتكوا بأهلها بوحشية تامة (٣٦) . وبهذا
برزت إلى الوجود إمارة لاتينية ثالثة أميرها غودفري ، بينما الإمارتان
الأخريان كانتا الرها وأميرها بلدوين وأنطاكية وأميرها بوهمند
(٢ . ٤٤) . وفي سنة ١١٠٠ م توج بولدين أمير الرها ملكاً على
القدس خلفاً لأخيه غودفري ، بينما أصبح تانكرد أميراً على أنطاكية
سنة ١١٠١ م على أثر وقوع خاله بوهمند أسيراً بيد الأتراك الدانشمنديين.

كان يفصل مملكة بيت المقدس ، عند تأسيسها عن إمارتي الرها
وأنطاكية رقعة متسعة من الأرض يحكمها أمراء مختلفون أشتد
التشاحن والتحاسد بينهم فمدن الساحل من عكا إلى بيروت دانت
للفاطميين . والمنطقة الواقعة جنوبي بيروت كانت خاضعة لبني عمار
في طرابلس . وبعد إرتحال الصليبيين إلى الجنوب ماد أمير طرابلس

نفوذه ثانية إلى طرطوس . أما جبلة التي كان يتزعمها القاضي بن صليحة . تنازل عنها إلى طفتكين أتابك دقاق صاحب دمشق ومنه إنتقلت إلى بني عمار . وفي جبال النصيرية قامت إمارتان صغيرتان : فحكم بنو محرز في المرقب والقدموس وبنو عمرون في منطقة الكهف وكانت لهم قلعة أبو قبيس . بينما اقتسم منطقة العاصي كل من خلف بن ملاعب الشيعي أمير أفاميا الذي اعترف بسيادة الفاطميين ، وبنو المنقذ أمراء شيزر ، وكان أميرها آنئذ عز الدين أبي العساكر سلطان ، وجناح الدولة الأتابك السابق لرضوان صاحب حلب استقل بحمص . أما حلب فكان بها رضوان ودمشق كان يحكمها دقاق بينما منطقة الجزيرة شرقي حلب فكان بها أفراد من أسرة أرتق لجأوا إليها بعد أن طردهم الفاطميون من فلسطين سنة ١٠٩٧ م (٤٤) .

عمل الصليبيون أيضاً على توسيع ممتلكاتهم ، فأصبحت مملكة بيت المقدس في عهد بلدوين الأول (١١٠٠ – ١١١٨ م) تمتد من بيروت إلى العقبة وشرقاً إلى وادي الأردن . كذلك في الشمال فريموند السان جيل عمد سنة ١١٠٣ م إلى بناء قلعة طرابلس المعروفة اليوم بقلعة السنجيل نسبة إلى ريموند السان جيل الذي توفي سنة ١١٠٥م وذلك قبل سقوط طرابلس بيد قواته التي دخلها سنة ١١٠٩م .وقد تولى عليها برتراند بن ريموند الذي أتى من أوروبا بعد أن أخذها من وليم جوردان ابن عم ريموند (٤٤) . ثم أن تانكرد استولى على اللاذقية سنة ١١٠٣ م ؛ وفي سنة ١١٠٥ م اشتبك مع رضوان صاحب حلب في معركة قرب قرية تيزين الواقعة غربي حماه كان النصر حليفاً له إذ أجبر رضوان أن يتنازل له عن كل ممتلكاته الواقعة بوادي العاصي ولم ينته عام ١١٠٥ م حتى امتدت أملاك تانكرد إلى البارة ومعرة

النعمان . وفي سنة ١١٠٦ م اتجه تانكرد إلى أفاميا حيث استنجد به سكانها من الأرمن بعد اغتيال أميرها ابن ملاعب الذي لم يكن معادياً للإفرنج . على يد الحشاشين الذين قوي نفوذهم بحلب . ويبدو أن القتلة لم تلبث أن اختلفت مع حليفها أبي الفتح السرميني الذي تسلم زمام الأمور والتمس المساعدة من رضوان . شرع تانكرد بحصار أفاميا . غير أن أبي الفتح أعاد الأمن لنصابه . كما وعده بالمساعدة كل من أميري شيزر وحماه . ولكن تكانكرد ارتد عنها بعد حصار استمر ثلاثة أسابيع كي ينهض لمساعدة حامية اللاذقية التي تعرضت للمجاعة بسبب حصار البيزنطيين لها . ولكن تكانكرد عاد لحصار أفاميا بعد أن حثه على ذلك مصبح بن خلف بن ملاعب . ولما لم ينهض أحد من الأمراء المجاورين لمساعدة السرميني استسلمت أفاميا بأيدي تانكرد في ٤ أيلول سنة ١١٠٦ م بشرط الإبقاء على حياة سكانها . وافق تانكرد على الشروط . غير أنه عند دخول البلدة أمر بقتل أبي الفتح السرميني مع ثلاثة من أتباعه إرضاء لمصبح ، الذي حصل على اقطاع صغير بالقرب من أفاميا . بينما عُين على أفاميا نفسها حاكم من الإفرنج . وبعد احتلال أفاميا لم يلبث تانكرد أن احتل كفر طاب وولى أمرها إلى فارس يدعى توفيل الذي أضحى مصدر رعب لسكان شيزر الذي كان أميرها وقتذاك أبي العساكر سلطان المنقذي (٣٩ ، ٤٤).

شيزر في إمارة عز الدين أبي العساكر سلطان المنقذي (١٠٩٨–١١٥٤ م):

عاصر سلطان أتابكة دمشق أبناء طفتكين (١١٠٤ – ١١٥٤ م) الذين أتوا بعد وفاة دقاق السلجوقي سنة ١١٠٤ م والأراتقة الذين حكموا حلب بعد إغتصابها من سلطان شاه بن رضوان سنة ١١١٧م (٢) . وعندما استلم سلطان الحكم كانت إمارة شيزر تمتد إلى الساحل .

إلا أنها سنة ١١٠٦ م كانت فقدت معظم ممتلكاتها إلى الصليبيين بما فيها اللاذقية وأفاميا وكفر طاب . كما أن شيزر نفسها أصبحت عرضة لغزوات متتابعة من الصليبيين والبيزنطيين والحشاشين (٢) . فبالإضافة إلى هجمات تيوفيل صاحب كفر طاب ، فإن وليم جوردن قد أغار على شيزر سنة ١١٠٨ م بعد أن شتت جيش طفتكين أتابك دمشق الذي قدم لنجدة عرفة التي كان يحكمها بنو عمار . خرج الأخوان سلطان ومرشد أميرا شيزر لمجابهة وليم جوردان ، وكانا قد سمعا أن جيش الصليبيين كان قليل العدد . ولكنهما فوجئا بهجوم شديد تداعت أمامه صفوف جيش شيزر الذي لاذ جنده بالفرار (٤٣ ، ٤٤) . وفي سنة ١١٠٨ م قاد تانكرد حملة لمهاجمة شيزر ، وبعد أن قتل جماعة صغيرة من رجالها رجع عنها بعد هدنة عقدها معه أبو العساكر سلطان مقابل جواد أصيل وأربعة آلاف دينار يدفعها له (٣٩ ، ٤٤). وبعد انقضاء مدة الهدنة عاد تانكرد (دنكري) سنة ١١١ م بعسكر من أنطاكية لحصار شيزر . ويقول أسامة بن المنقذ لقد لقيت خيلنا أوائل عساكرهم واقتتلوا عند سور المدينة ، وكان خرج من شيزر في ذلك اليوم الكثير من الرجال الجبابرة لمهاجمة الإفرنج الذين لم يتمكنوا من التغلب على الشيزريين . ويذكر أسامة أنه يومئذ كان صبياً صغيراً وكان ذلك أول يوم شهد به القتال (٣٩) . وقد قام تانكرد بتشييد حصن على تل مجاور في موضع يعرف باسم ابن معشر كي يراقب كل حركة تبدر من شيزر أو تتجه نحوها (٤٤) . وقد يجوز أن يكون تل ابن معشر هو اليوم تل صلبي ، إذ يقع على ارتفاع يمكن مراقبة شيزر منه .

وفي أوائل سنة ١١١ م قدم إلى دار الخلافة ببغداد وفد من أهل

حلب يطلبون من الخليفة المستظهر (١٠٩٤ — ١١١٨ م) أن يدعوا إلى الجهاد لتخليصهم من تهديدات الإفرنج الذين كانوا قد احتلوا الأثارب ، التي لاتبعد عن حلب سوى ٣٠ كم والذين أيضاً كانوا أجبروا رضوان أن يعقد صلحاً مع تانكرد وأن يؤديه عشرين ألف دينار . أرسل الخليفة إلى السلطان محمد السلجوقي بن ملكشاه يعلمه بالأمر ومانتج عنه من الفتن واضطراب الأمن في بغداد . الحال الذي منعه من إستقبال زوجته بالمظهر اللائق عند عودتها من زيارة والدها السلطان بأصبهان . بادر السلطان بأن أمر اسباسلار مودود أتابك الموصل بانشاء حلف عسكري إذ جعل قيادته الإسمية لإبنه مسعود . ومن الذين دُعوا إلى هذا الحلف سكمان وإيلغازي ولدا أرتق من ميافارقين وماردين ، والأميران الكرديان أحمديل صاحب مراغة وأبو الهيجاء صاحب اربل وبعض أمراء فارس بزعامة برسق بن برسق الكردي أمير هَمَدان . أكمل الحلف استعداده في تموز من عام ١١١١ م فأسرعوا باجتياز الجزيرة وحاصروا تل باشر على الفرات معقل الأمير الإفرنجي جوسلين . ولما ذاعت أخبار الحلف أرسل إليهم أبو العساكر سلطان أمير شيزر يلتمس منهم المبادرة لنجدته ضد تانكرد . وقد ظن رضوان أنه من حسن السياسة أن يخطرهم بضرورة الإسراع لمساعدته إذ لم يعد بوسعه أن يصمد طويلاً أمام تانكرد . وإذا استجاب مودود لطلب رضوان وبناء على اقتراح أحمديل الذي قامت بينه وبين جوسلين اتصالات سرية ، رفع الحصار عن تل باشر وقاد جيشه لمساعدة حلب . غير أن رضوان الذي كان يمالىء لتانكرد أغلق أبواب حلب في وجه مودود الذي سار جنوباً إلى شيزر بعد أن

خرّب ونهب ماحول حلب من القرى . لحق بمودود عند شيزر طغتكين ليطلب المساعدة لإستعادة طرابلس . أما تانكرد الذي عسكر أمام شيزر . فانه تراجع إلى أفاميا لما اقتربت جيوش الحلف ، وأرسل إلى الملك بلدوين يستنجد به . استجاب بلدوين بأن أرسل إلى سائر الفرسان بالشرق الأفرنجي أن يقدموا لمساعدة تانكرد (٤٤) . كان مودود . كما روى أسامة بن المنقذ (٣٩) في كتاب الإعتبار قد نزل شرقي شيزر على العاصي نهار الخميس في ١٥ أيلول سنة ١١١١ م وذلك قبل أن يكتمل حشد الإفرنج الذين بلغ عددهم ستة عشر ألف مقاتل . خرج سلطان أمير شيزر وأخوه مرشد لملاقاة مودود ، فطلبا منه أن يقدم إلى شيزر حيث ينزل هو في القلعة ، بينما تنصب العسكر خيامهم على السطوحات في المدنية . فاستجاب لهم مودود فرحل معهم إلى شيزر . ويروى أسامة أنه خرج من شيزر خمسة آلاف فارس لملاقاة الإفرنج ، فصفوا جنوبي العاصي بينما عسكر تانكرد شماليه ، وقد مُنعت عساكره طيلة اليوم من الشرب والورود إلى النهر . ولما كان الليل رحل الإفرنج ليعودوا في اليوم الثاني حيث نزلوا على تل الترامسي ، فمُنعوا من الورود إلى المياه كما حل بهم في اليوم السابق فرحلوا في الليل وعسكروا على تل التلول ، حيث مُنعوا من الورود ثانية ، فاضطروا للرحيل متوجهين إلى أفاميا بعد مناوشات طفيفة (٣٩) . تجنب مودود أن يجرّه الإفرنج في معركة حاسمة . على أن الأمور لم تجرِ على نحوٍ طيب في جيشه إذ أن طغتكين لم يشأ أن يبذل له المساعدة إلا إذا تعهد مودود أن يسير معه لاسترجاع طرابلس ، وكانت هذه الخطوة بالغة الخطورة ، إذ أدت إلى تشتيت الحلف وفشله ، ونجاح بولدوين من فرض الإتحاد بين الأمراء الإفرنج وبذلك نجت إمارتهم في الوقت الراهن . شهد العام التالي (١١١٢ م) تغيرات ، أهمها

وفاة تانكرد في ١٢ كانون الأول بحمى التيفوئيد ولم يتجاوز بعد السادسة والثلاثين من عمره . وقبل وفاته رشح ابن أخته روجر سالرنو ابن رتشارد النورمندي صاحب مرعش ليكون وريثاً له في الحكم . كما أجبره أيضاً أن يحلف بأن يسلم الحكم إلى الإبن الأصغر لبوهمند حتى قدم إلى الشرق . وفي سنة ١١١٣ م أغتيل مودود في دمشق على يد الحشاشين وقد كان عند طغتكين . وفي العام نفسه توفي رضوان فأتي على حكم حلب بعده إبنه ألب أرسلان (١١١٣ — ١١١٤م) الذي كان في السادسة عشر من عمره ، وكان ضعيفاً سيء الخلق . فأضحى في حوزه حواشيه لؤلؤ . على أن الحشاشين الذين تولى رضوان حمايتهم ، لم يجدوا مساندة وتأييداً من الحكومة الجديدة بناء على أوامر السلطان محمد ، ذلك أن رسول ابن بديع الفارسي أجبر ألب أرسلان بأن يعدم زعساء الحشاشين . كما أن أهل حلب الذين كرهوا الحشاشين منذ زمن بعيد قاموا باعدامهم . وللدفاع عن أنفسهم حاول الحشاشون الإستيلاء على قلعة حلب ، غير أنهم فشلوا بذلك (٤٤). وفي الوقت ذاته قامت جماعة منهم بهجوم مفاجيء على قلعة شيزر وذلك أثناء خروج أميرها لمشاهدة الإحتفال بعيد الفصح في حماه ، فاحتلوها ، ولكن بعد رجوعهم من حماه بادر الرجال إلى الباشورة فأصعدتهم النساء بالحبال من الطاقات ، فانقضوا على الحشاشين وأعملوا السيف فيهم فلم ينج منهم أحدٌ (٣٨ ، ٤٤) .

بعد فشل الحلف الذي قاده مودود لطرد الإفرنج ، أدرك السلطان محمدأنه كي يحرز النجاح لابدّ له من أن يفرض سلطانه على سائر الأمراء المسلمين في الشام . ففي سنة ١١١٥ م وجه جيشاً كثيفاً نحو الغرب بقيادة برسق بن برسق أمير همذان ، جيوش بك أتابك

الموصل وتميراك أمير سنجار . إرتاع من هذا الإجراء أمراء الشام والإفرنج . ولم يكن موالياً للسلطان من أمراء الشام وقتذاك سوى بنو المنقذ في شيزر وابن قراجا أمير حمص الذي كان سابقاً في خدمة ملكشاه . وحالما شاع خبر الحملة . إنحاز الطواشيء لؤلؤ متولي حلب وإيلغازي أمير ماردين إلى طفتكين أتابك دمشق فعقدوا إتفاقاً مع روجر أمير أنطاكية . دعا روجر جيش طفتكين وحلفائه للإنضمام إلى قواته أمام سور أفاميا التي تعتبر مكاناً بالغ الأهمية في الإطلاع على تحركات برسق بعد عبوره الفرات والسير نحو أصدقائه في شيزر . لم يلق برسق مقاومة حينما اجتاز الجزيرة بجيشه الضخم . كان يأمل أن يأخذ من حلب مركزاً لقيادته ، غير أنه لما سمع بانحياز لؤلؤ إلى خصومه ، إنحرف إلى الجنوب ، وبمساعدة أمير حمص قام بهجوم مفاجيء على حماه التابعة لطفتكين ، فاستولى عليها ونهبها . ثم مضى لمهاجمة كفر طاب من حصون الإفرنج . استنجد روجر ببلدوين ملك القدس وبونز كونت طرابلس الذي تزوج سيسيليا الفرنسية أرملة تانكرد ، بناء على طلب الأخير . فأسرع بولدين وبونز بالمسير نحو الشمال ، فدخلا إلى معسكر أفاميا على دقات النقارات . على أن برسق الذي اتخذ قاعدته في شيزر وقتذاك ، رأى من الحكمة التقهقر نحو الجزيرة . نجحت حيلته إذ أن بلدوين وبونز إعتبرا أن الخطر قد زال فعادا إلى بلدهما ، وبعده تبدد الجيش المتحالف (٤٤) . عندئذ إنكفأ برسق راجعاً إلى كفر طاب . وقد كان عليها أخو تيوفل . فلاقاه بها مرشد المنقذي بعسكر من شيزر (٣٩) . لم يستغرق القتال طويلاً . إذ استولى برسق على القلعة . فسلمها إلى بني المنقذ .

ولكن لم يلبث روجر أن إحتل كفر طاب في نفس العام (١١١٥ م) بعد أن هزم برسق في معركة تل دانت قرب بلدة سرمين جنوبي غربي حلب . بعد معركة تل دانت أضحت حلب عرضة لإعتداءات الإفرنج ؛ وبعد مصرع لؤلؤ سنة ١١١٧ م وضعت نفسها على كره منها تحت حماية إيلغازي.ولم يكن بوسع إيلغازي وحليفه الدائم طغتكين أتابك دمشق أن يخاطرا بكل قواهما لقتال الإفرنج نظراً لخوفهما البالغ وكراهيتهما القوية لسلاطين سلاجقة المشرق . وقد حدث سنة ١١١٨ م أن توفي بولدين الأول ، فخلفه ابن عمه بلدوين لي بور كونت الرها ، فحكم تحت اسم بلدوين الثاني . وفي العام نفسه قضى السلطان محمد نحبه ، فانطلقت أطماع الولاة والأمراء في سائر انحاء الإمبراطورية. فحاول خلفه ابنه الشاب محمود توطيد سلطانه . لكنه اضطر آخر الأمر تسليم السلطة العليا إلى عمه الملك سنجر سلطان خراسان . لم يكن سنجر أو أولاد عمومته من سلاطين سلاجقة الروم ليحفلوا بما يجري في بلاد الشام . فتهيأت بذلك الفرصة لإيلغازي الذي يعتبر أقوى الأمراء المحليين . ليجمع قواه لمحاربة الإفرنج لكي يستحوذ على حلب وما جاورها من القرى التي استولى عليها روجر . وفي ربيع ١١١٩ م بدأ إيلغازي بحشد عساكره من التركمان والأكراد ، كما طلب المساعدة من السلطان محمود ، الذي لم يرد عليه . ولكن طغتكين وافق للقدوم لمساعدته ، كما أن المنقذين أمراء شيزر وعدوا بأن يشاغلوا روجر بمهاجمة الأطراف الجنوبية لممتلكاته . وفي نهاية أيار بدأ جيش الأراتقة الذي بلغ عدده أربعين ألفاً من الجند بالزحف بقيادة إيلغازي . ولما تلقى روجر الأنباء طلب مساعدة بونز كونت طرابلس كما استنجد بالملك بلدوين ، الذي سيّر جيشه وقد حصنته

بقطعة من الصليب المقدس التي كانت بحوزة رئيس أساقفة قيسارية .
وكان بلدوين قد طلب من روجر أن يلتزم خطة الدفاع . وبينما كان
بنو منقذ وعسكر شيزر يغيرون على أفاميا ، أنفذ إيلغازي فصائل
من عساكر التركمان لتنحاز إلى المنقذيين والجيش القادم من دمشق،
بينما قام هو بالإغارة على بلاد الرها ، ثم تقدم وعسكر في قنسرين
جنوبي غربي حلب . غير أن روجر على الرغم من حث بلدوين له
بالتزام خطة الدفاع قرر المبادرة لملاقاة العدو ، ففي ٢٠ حزيران
١١١٩م قاد جيش أنطاكية المؤلف من ٤٧٠٠ مقاتل وعسكر أمام
حصن تل عفرين غربي حلب على السفح الغربي من جبل سمعان .
وفي ٢٨ حزيران كانت الواقعة إذ سقط روجر صريعاً وهو يقاتل
عند قاعدة صليبه الضخم المحلى بالجواهر ، كما هلكت فرسانه
ولم ينجُ منهم إلا عدد قليل . وقد اشتهرت هذه المعركة عند الإفرنج
بساحة الدم .وعلى أثر مقتل الفرسان النورمان لم يبق هنالك من يستلم
إمارة أنطاكية ، فلهذا تولى الملك بلدوين أمرها ريثما يبلغ سن الرشد
وريث عرشها بوهمند الثاني بن بوهمند ، الذي كان يقيم مع والدته في
إيطاليا . أيضاً سلّم بلدوين إمارة الرها إلى جوسلين ، إذ أصبح
كونتاً لها . وبعد معركة ساحة الدم التحم بلدوين وإيلغازي وطغتكين
في العام نفسه بمعركة هاب حيث إدّعى كل من الفريقين النصر .
ولكن بلدوين هاجم عدوه بقوات جديدة حيث اضطر عدد كبير
من عسكر التركمان أن يلوذوا بالفرار . وبعدها تحرك بلدوين جنوباً
إلى معرّة النعمان والروج التي كان قد احتلها المنقذيون وأضافوها
إلى ممتلكات شيزر ، فأجلاهم عنها . لم يجرؤ إيلغازي لمهاجمة الصليبيين
فعاد إلى ماردين ، كما عاد بلدوين إلى القدس . وفي سنة ١١٢٢م

وقع جوسلين كونت الرها في الأسر بيد بلك الارتقي ابن أخ ايلغازي وكان أميراً على سروج خرتبرت وفي سنة ١١٢٣ م توفي ايلغازي وانقسمت ممتلكاته بين أبنائه وأبناء أخيه . وفي نيسان من عام ١١٢٣ م وقع بلدوين أسيراً بيد بلك ، بينما كان يتعرف على الموضع الذي كان فيه جوسلين سجيناً ، فسيق وسُجن معه في قلعة خرتبرت .
وفي العام نفسه دخل القلعة خمسون من الأرض متنكرين فتغلبوا على حاميتها وسيطروا عليها . فتم الإتفاق أن يغادرها جوسلين ليأتي بالمساعدة بينما يحاول بلدوين المحافظة على الحصن . سار جوسلين إلى القدس فجمع جيشاً وسار به شمالاً إلى تل باشر . ولكن حدث خلال ذلك أن كان بلك قد استولى على قلعة خرتبرت وقتل من كان بها من الإفرنج ولم ينجُ منهم سوى بلدوين وابن أخته ووالبران حيث نقلوا إلى قلعة حرّان التي كانت قوية التحصين . وفي سنة ١١٢٤ م قُتل بلك فصار بلدوين بيد تمرتاش بن ايلغازي إذ كان موالياً لبلك .
آثر تمرتاش الحصول على فدْية كبيرة مقابل إطلاق سراح بلدوين ، فطلب من أمير شيزر أن يجري المفاوضات مع الإفرنج . قام أبي العساكر سلطان أمير شيزر بالإتصال مع الملكة مورفيا وجوسلين .
فتم الإتفاق على فدية باهظة ، إذ كان لزاماً على الملك أن يؤدي إلى تمرتاش ثمانين ألف ديناراً ، وأن يعيد إلى حلب مدن الأثارب وزدنا وإعزاز وكفر طاب والجزر ، كما أن ينهض لمساعدة تمرتاش في قمع حركة الزعيم البدوي دبيس بن صدقة الذي استقر في الجزيرة ، وينبغي أن يدفع عاجلاً عشرين ألف ديناراً ، وأن يودع في شيزر كرهائن صغرى بنات الملك الأميرة يونيتا التي لم تتجاوز الرابعة من عمرها وابن جوسلين ووريثه البالغ من العمر إحدى عشر سنة وعشرة

من أبناء النبلاء شريطة أن يبقوا إلى أن يتم تسديد مابقي من الفدية .
وحالما قبل الطرفان شروط الإتفاق أنفذ سلطان بن منقذ جماعة من
أفراد أسرته إلى حلب حيث عادوا إلى شيزر في نهاية حزيران ١١٢٤ مع
الملك بلدوين الثاني من سجنه . لما دخل بلدوين شيزر بالغ أميرها في
ضيافته ، وذلك اعترافاً من سلطان بفضل بلدوين لإعطائه شيزر من
الأموال التي كانت تدفعها لإنطاكية من قبل خمس سنوات (٤٤) .
ومن المحتمل أن يكون بلدوين أُنزل ضيفاً في البرج الواقع في جنوبي
القلعة على حافة الخندق . وبمناسبة ذلك وأهمية بلدوين كملك .
والذي كان يلفظ العرب اسمه « البردويل » (١) ، بدأ الناس يشيرون
إلى القصر الذي حلّ به بلدوين : «بقصر البردويل » ، والذي لازال
يُعرف بهذا الاسم حتى يومنا هذا . ولما وصلت الرهائن إلى شيزر
التقى بلدوين بابنته ورفاقها . وبعد ذلك سُمح له بالمضي إلى أنطاكية ؛
فبلغها في أواخر آب سنة ١١٢٤ . لم يفِ بلدوين بما وعد دفعه من
فديّة ، إذ لم يكن له سلطة شرعية على أملاك أنطاكية التي كانت
تعتبر ملكاً للأمير الصبي بوهمند الثاني الذي كان بلدوين وصياً عليه .
ليس هذا وحسب بل أنه تحالف مع دبيس بن صدقة لمهاجمة حلب ،
وكان قد انضم إليهم سلطان شاه بن رضوان ، المطالب بعرش حلب .
بعد فراره من سجن الأراتقة لم يحاول تمرتاش أن يدافع عن
حلب لأن أعيانها طلبوا مساعدة اقسنقر البرسقي أتابك الموصل الذي
سار إليها بتأييد السلطان وقد انضمت إليه عساكر طغتكين أمير دمشق
وخيرخان أمير حمص . إنهار حلف بلدوين إذ أن دبيس انسحب مع
قبيلته . كما عاد بلدوين إلى الأثارب ثم أنطاكية ثم القدس . توجه
اقسنقر في آذار سنة ١١٢٥ م إلى شيزر . وإذ حرص أميرها سلطان بن

منقذ على أن يكون عملياً وذلك بمصادقة كل رجل قوي في تلك المنطقة ، قام بتسليم رهائن الإفرنج : الأميرة يوفيتا وجوسلين الصغير ورفاقهما إلى البرسقي الذي سار بجيشه في أيار سنة ١١٢٥ م فهاجم حصن كفر طاب الذي كان بحوزة الإفرنج ، فاستولى عليه ثم حاصر زردنا . سار بلدوين لملاقاة البرسقي فاشتبك الطرفان بالقرب من اعزاز في أيار سنة ١١٢٥ م . وكانت هذه المعركة أشد المعارك عنفاً وسفكاً للدماء في تاريخ الحروب الصليبية . فكان النصر للإفرنج ، كما حصل بلدوين على غنائم وفيرة استطاع أن يجمع مبلغ ثمانين ألف دينار حيث افتدى بها ابنته وجوسلين الصغير من البرسقي ، كما أرسل مبلغاً آخر إلى شيزر لإفتداء الرهائن والأسرى الذين كانوا لازالوا محتجزين . ولم يكد يُطلق سراحهم حتى هاجمهم خيرخان أمير حمص ، فبادر عساكر شيزر بقيادة أسامة لحمايتهم وتوجيههم إلى الطريق الذي يجب أن يسلكوه . بعد معركة اعزاز انعقدت هدنة بين الإفرنج والبرسقي ، ولم تحصل تغييرات إقليمية سوى إعطاء كفر طاب إلى أمير حمص . وفي سنة ١١٢٦ م تعرضت شيزر لهجمات بوهمند الثاني أمير أنطاكية الذي بلغ من العمر الثامنة عشر . وفي العام نفسه فكّر الخليفة العباسي المسترشد أن يستفيد من المنازعات بين سلاطين السلاجقة ليتخلص من سيطرتهم . ولكن السلطان محمود السلجوقي التي كانت بغداد ضمن أملاكه ، وجه جيشاً بقيادة عماد الدين زنكي بن أقسنقر لمحاربة الخليفة ، إذ هزّم جيشه وأذعنه للخضوع ثانية للسلاجقة . ولما مات اقسنقر أمير الموصل خلفه ابنه مسعود على حلب والموصل ، وبعد وفاة مسعود المفاجىء عُيّن زنكي أتابكاً على الموصل ، توجه زنكي في ربيع سنة ١١٢٨ إلى حلب

فدخلها بموكب حافل . وحالاً بادر أميرا شيزر وحمص للإعتراف بسيادته . ثم تقدم زنكي فانتزع حماه من أملاك بوري بن طفتكين أتابك دمشق : كما اعتقل خير خان أمير حمص الذي كان قد ساعده مبدئياً في مهاجمة حماه . وفي سنة ١١٣٠ م قتل التركمان بوهمند الثاني أمير أنطاكية وحنّطوا رأسه وأرسلوه إلى الخليفة ببغداد . بعد وفاة بوهمند بادرت زوجته أليس (Alice) ابنة الملك بلدوين . إلى تسلّم السلطة في أنطاكية فأعلنت لنفسها الوصية بحيث أن الوريثة الشرعية هي إبنتها كونستانس التي لم تكن تتجاوز الثانية من عمرها . ولكن بلدوين خلع ابنته أليس من الوصاية لتعاملها مع زنكي وعيّن نفسه بديلاً لها ، كما عهد إلى جوسلين بالقوامة على أنطاكية وأميرتها الطفلة . وفي سنة ١١٣١ توفي كل من بلدوين الثاني وجوسلين الأول . وبوفاتهما انتهى الجيل القديم للرواد الصليبيين . أوصى بلدوين قبل وفاته في المُلك إلى ابنته مليسند وزوجها فولك الذي قدم حديثاً من فرنسا ، وكان إبناً لفلك الرابع من زوجته برترادا مونتفورت المعروفة بارتكاب الزنا مع فيليب الأول ملك فرنسا . فتوج الإثنان في ١٤ إيلول سنة ١١٣١ (٤٤) وفيسنة ١١٣٢ مات بوري بن طفتكين صاحب دمشق ، فخلفه ابنه إسماعيل. وفي سنة ١١٣٣ م أخذ إسماعيل حصن بانياس من الإفرنج ، كما فتح حماه ثم حاصر شيزر ، فصانعه سلطان بمال حمله إليه (٤٣) .

أخبار المنقذيين خلال إمارة أبي العساكر سلطان :

إن أكثر الأحداث التي جرت في إمارة أبي العساكر سلطان دوّنها أسامة ابن أخيه مرشد في كتابه كتاب « الإعتبار » وهو لها شاهد عيان .

ومع أن أسامة كان أحد أخوة أربعة . أكبرهم عز الدولة أبو الحسن علي ، وهو ثانيهم . فان عمه سلطاناً ، الذي لم يكن له ولداً ذكر ، استخصه بعطفه ورعايته ودربه « على الفنون الحربية » وعلى الإجمال فان سلطاناً أنشأ مؤيد الدولة أسامة تنشئه من يريد أن يجعل منه خلفاً له (٣٩) ولكن بعد أن رُزق سلطان ولداً يخلفه تغيّرت وجهة نظره نحو ابن أخيه . ويظهر هذا في قصة رواها أسامة في كتاب الإعتبار (٣٩) . فيقول أنه يوماً بعد أن اصطاد أسداً في الجبال الواقعة جنوبي شيزر عاد به إلى داره . ثم يقول وفي الليل جاءتني جدتي لأبي وبين يديها شمعة وهي عجوز كبيرة قاربت من العمر مائة سنة . فما شككت أنها جاءت تهنئني بالسلامة ، فلقيتها وقبلت يدها . فقالت لي بغيظ وغضب: « يابني . إيش يحملك على هذه المصائب التي تخاطر فيها بنفسك وحصانك وتكسر سلاحك ويزداد قلب عمك منك وحشة ونفوراً » (٣٩) فلاشك أن سلطاناً خاف على أولاده من أولاد أخيه مرشد الذي كان قد ناهز السابعة والسبعين (٣٩) ، فسعى بينهم المفسدون فغيّروا كلاً منهم على أخيه . فكتب سلطان إلى أخيه مرشد أبيات شعر يعاتبه على أشياء بلغته عنه . فأجابه مرشد بالأبيات التالية :

ظَلُومٌ أبَتْ في الظُّلمِ إلاّ تَمادِيا
وَفي الصَدّ وَ الهجرانِ إلاّ تناهيا

شَكَتْ هجرَنا والذّنبُ في ذاكَ ذنبُها
فَيا عَجَباً من ظالمٍ جاء شاكيا

وطاوَعَتِ الوَاشِينَ فيّ وَطالما
عصيتُ عذُولاً في هَوَاهـا ووَاشيا

وَمالَ بهـَا تيهُ الجـمَال الى القِلـَى
وَهيهاتِ أن أُمسي لها الدَهــرَ قـَاليا

وَلا ناسياً ما أوْدَعَتْ مِنْ عُهُودِهـا
وَإنْ هي أبْدَتْ جفوَةً وتنَاسيا

ولـمَا أتاني قـَريضك جَوْهَرٌ
جَمَعتَ المَعالي فيهِ لي وَ المَعانيا

وكنتُ هَجَرْتُ الشعرَ حيناً لأنّهُ
تَوَلّى برُغْمي حينَ وَلّى شبَابيا

وَأينَ مِنَ الستّينَ لفظٌ مُفَوّقٌ
إذا رُمتُ أدنى القوْلِ منْهُ عَصَانيا

وقُلتُ : أخي يَرْعى بَنِيّ وَأسْرَتي
وَيحفظُ عَهـدي فيهِمُ وَذِماميا

ويجزيهِم مالـمْ أكلّفْهُ فِعلَهُ
لنَفسي فقَد أعدَدته مِنْ تُراثيا

فَما لكَ لمّا حَنّى الدّهرُ صُعدَتي
وثَلّمَ مني صَارِماً كانَ ماضيا

تَنَكّرْتَ حتى صارَ بِرُّكَ قَسوَةً
وقُرْبُكَ منهم جفوَةً وتنَابيا

وَأصبَحتُ صِفرَ الكَفّ مِمّا رَجوْتُهُ
أرَى اليأسَ قد عَفّى سبيلَ رَجائيا

على أنني ما حُلْتُ عَمّا عَهِدْتَهُ
وَلا غَيَّرَتْ هَذي السّنونُ وَدادِيا

فلا غَرْوَ عندَ الحادثاتِ ، فانني
أراكَ يَميني وَالأنامَ شِمالِيا

تحلّ بها عَذراء لَوْ قُرِنتْ بهَا
نُجومُ السّماء لَمْ تُعَدّ دَرارِيَا

تَحلّت بدُرٍّ مِن صِفاتِكَ زانَها
كَما زانَ مَنظُومُ اللآلي الغَوانِيا

وعِشْ بانِياً للمَجْدِ ماكانَ وَاهِياً
مُشيداً منَ الإحسانِ ماكانَ هاوِيَا(٤٥)

وفي عام ١١٣٧ توفي مرشد ، فقلب سلطان لأولاد أخيه ظهر المِجَن وبادأهم بما يسوءُهم ، مما أدى لنزوحهم من شيزر فيما بعد ولجوئهم إلى زنكي يشكون إليه أمرهم (٤٥) .

وفي العام الذي توفي فيه مرشد تقدم الإمبراطور البيزنطي حنا كومنين لمحاصرة أنطاكية ، وكان أميرها آنئذ ريموند بواتييه الذي عُقد قرانه على الأميرة كونستانس وهي لازالت في التاسعة من عمرها . وبعد أيام من الحصار قبل ريموند أن يسلم أنطاكية للإمبراطور مقابل أن يحصل عوضاً عنها على إمارة تتألف من حلب وشيزر وحماه وحمص . لم يشأ أن يدخل الإمبراطور المدينة . بل رُفع العلم الإمبراطوري فوق قلعتها . وفي نيسان من عام ١١٣٨ م بدأت القوات الأمبراطورية تتقدم نحو شيزر يصحبها الصليبيون . وكان زنكي وقتذاك ينزل

عساكره أمام حماه بغية طرد حامية دمشق منها . ولما أخطرته كشافته بقوات الإمبراطور الزاحفة عجل بارسال العساكر بقيادة سوار لتعزيز حامية حلب . كان الإمبراطور يوحنا يأمل أن يباغت حلب ، غير أنه لما وصل أسوارها في ٢٠ نيسان وجدها منيعة الإستحكامات .

فقرر على أن لايحاصرها ، فتوجه جنوباً فاحتل خلال بضعة أيام الأثارب ومعرة النعمان وكفر طاب ثم توجه إلى شيزر إذ أضحى على أبوابها في ٢٨ نيسان . حرص الأمير أبي العساكر أن يحافظ على إستقلاله من زنكي . ولعل الإمبراطور كان يأمل ألاّ يحفل زنكي بمصير شيزر ، التي كان تملّكها من قبل البيزنطيين والصليبيين يعطيهم السيطرة على وادي العاصي الأوسط ويمنع زنكي من مواصلة التقدم في بلاد الشام . استهل البيزنطيون حصار شيزر بهمة كبيرة ، وسرعان ما احتلوا جانباً من المدينة ، كما جلب الإمبراطور المنجنيقات الكبيرة لتقذف القلعة ، وقد أشرف بنفسه على عملية الحصار معتمراً قلنسوته الذهبية (٤٤) . ويظهر من كتاب الإعتبار أن أسامة بالرغم من جفاء عمه له كان لايزال في شيزر ، إذ حضر حصار الروم لها . ويصف أسامة ما ألحقته المجانيق البيزنطية من أضرار وإصابات . فذكر أن المجانيق كانت ترمي حجارة ، يبلغ ثقلها ٢٥ رطلاً وتؤدي بها إلى مسافات لاتبلغها السهام . فروى أن إحدى حجارة المنجنيق سقطت على دار صاحب له اسمه يوسف بن أبي الغريب ، فهدمها . وأشار أيضاً أن حجراً آخر أصاب قنطارية على برج في دار الأمير ، منصوباً عليها راية فكسرها من نصفها أصابت رجلاً فقتلته . ومن وصف أسامة للحصار يغدو أن الروم دخلوا القلعة من ثغرة في سورها أحدثتها المجانيق ، فخرج إليهم الشيزريون وردوهم على أعقابهم (٣٩) .

كان قادة الصليبيين الذين رافقوا الحملة ، وخاصة ريموند كان يخشى أنه إذا سقطت شيزر بأيدي الإمبراطور فانه سيجبر على أن يقيم بها على الخط الأمامي للعالم المسيحي البيزنطي ـ اللاتيني ، وبهذا سيتخلى عن مباهج أنطاكية وألوان الرفاهية بها . كما أن جوسلين الثاني الذي كان يكنُّ الكراهية لريموند ، فانه لم يؤدّ أن يراه مستقراً في شيزر وفي حلب فيما بعد ، بعد إحتلالهما . وفي أثناء الحصار كان الأميران اللاتينيان ريموند وجوسلين يقضيان الوقت يلعبان النرد في خيمتهما ، مما حمل الإمبراطور لتأنيبهما وتقريعهما ؛ وهذا ماحملهما على أن يؤديا من الواجب والنشاط مالم يستمر طويلاً (١ ، ٤٤) .

وفي تلك الأثناء تخلّى زنكي عن حصار حماه حيث سار لمساعدة شيزر ، كما أن السلطان تحت ضغط الجماهير في بغداد أُجْبر على أن يرسل حملة لقتال الإفرنج . وأن ينفذ الرسائل إلى أمير الدانشمند تدعوه إلى الإغارة في الأناضول كي يجبر البيزنطيين للتخلي عن حصار شيزر والجلاء عن شمالي بلاد الشام . وبرغم مابذله الإمبراطور من جهود ، فان مناعة قلعة شيزر وبسالة المدافعين عنها ، وكراهة الإفرنج له ، كل ذلك انزل الهزيمة به ، فاقترح عليه بعض حلفائه أن يمضي إلى مقاتلة زنكي . غير أنه رفض أن يترك أدوات الحصار دون حراسة ، كما أنه لم يثق بحلفائه الإفرنج . حاول أن يستولي على كل المدينة السفلى وهي خارج القلعة من الغرب . ولكن في ٢٠ أيار أرسل سلطان يعرض عليه دفع تعويض كبير وأن يهديه أجود خيوله وأثواباً من الحرير وأثمن تحف بحوزته وهما مائدة مرصعة بالجواهر وصليب مطعم بالياقوت كان قد أخذ من الإمبراطور رومانوس ديوجين

في معركة مانزيكرت سنة ١٠٧١ م . كما وافق على أن يعترف بالإمبراطور سيداً أعلى وأن يؤدي له الجزية كل سنة . وإذا اشتدت كراهية الإمبراطور للإفرنج لم يسعه إلا قبول هذه الشروط . فأمر برفع الحصار عن شيزر في ٢١ أيار بعد ٢٣ يوماً من فرضه عليها . ولما تحرك جيش الإمبراطور الضخم عائداً إلى أنطاكية ، أقبل زنكي نحو شيزر غير أنه لم يخاطر بالتدخل أثناء ارتداد الصليبيين عدا ما حدث في بعض مناوشات طفيفة (٤٤) . وفي سنة ١١٤١ احتالت الباطنية على صاحب مصياف وكان مولى لبني منقذ . فدخلوا الحصن وملكوه (٣٤) . وفي سنة ١١٤٣ م توفي الإمبراطور يوحنا كومنينس ، فخلفه إبنه إمانويل .وفي العام نفسه توفي الملك فولك فتولت زمام الأمر في القدس الملكة ميليسند وإبنها بلدوين الثالث . وفي سنة ١١٤٤ م سقطت إمارة رها الصليبية بيد زنكي ، الذي توفي بعد ذلك بعامين وذلك سنة ١١٤٦ م بعد إغتياله على يد إحد عبيده بينما كان يحاصر قلعة جعيبر على الفرات إذ كان متجهاً إلى دمشق . خلف زنكي أبناؤه ، فحكم الموصل إبنه سيف الدين غازي وحلب ابنه نور الدين . وعلى أثر سقوط الرها أرسلت الملكة ميليسند سفارة من أنطاكية لتنبي الحبر إلى البابا يوجينيوس الثالث ، الذي بدأ يسعى للدعوة إلى حملة صليبية ثانية . وفي سنة ١١٤٧ م قامت هذه الحملة وكان نواتها كنراد ملك ألمانيا الذي ذبح معظم جيشه بعد إجتياز قونية ، وملك فرنسا لويس السابع . وفي سنة ١١٤٨ م اجتمع زعماء الحملة الجديدة مع ملكة القدس ميليسند في عكا . وهنالك قرروا أن يهاجموا دمشق وكان يحكمها أنر البوري . احتل الصليبيون المزه والبساتين المحيطة بدمشق ؛ كما وصل كنراد إلى الربوة الواقعة على نهر بردى تحت

أسوار المدينة مباشرة . ولكن الحملة الصليبية ارتدت لسبب نزاع قادتها ولاتفاق سري مع أنر . وكان هذا الفشل تاماً إذ عاد كل من كنراد ولويس إلى بلادهم . وبينما كان الإفرنج ينزلون أمام أسوار دمشق قام ريموند أمير أنطاكيه يساعده علي بن وفاء الكردي زعيم الحشيشية بمهاجمة نور الدين في أفاميا سنة ١١٤٨ م . وأثناء ذلك وقع بين كبار قواد نور الدين ، وهما شيركوه الكردي وابن الداية من أعيان حلب ، إذ رفض شيركوه الإشتراك بالقتال ، مما اضطر جيش نور الدين إلى التقهقر . ولكن في العام التالي هاجم نور الدين ريموند بالقرب من حصن بفراس الواقع شمال غربي أنطاكية ، وأنزل به الهزيمة . وبعد أشهر من ذلك (حزيران ١١٤٩) اشتبك نور الدين وريموند قرب عين طراد بين حصن انب ومستنقعات الغاب ، فانتهت المعركة بمقتل علي بن وفا وريموند الذي أرسل رأسه بصندوق إلى الخليفة المكتفي ببغداد . وفي سنة ١١٥٠ م سقط جوسلين الثاني بيد نور الدين فسمل عينيه وألقاه في السجن بقلعة حلب . وفي سنة ١١٥٤ م هاجم نور الدين دمشق ودخلها ، وبهذا امتد نفوذه على معظم سورية ، ولم يبق بها سوى بعض إمارات صغيرة ، مثل شيزر ، التي حافظت على إستقلالها ولكن أرضها لم تتجاوز قلعتها وضاحيتها (٤٤ . ٤٥) وفي هذه الأثناء ، وذلك في عام ١١٥٤ م توفي أبي العساكر سلطان . فخلفه على إمارة شيزر ابنه تاج الدولة ناصر الدين محمد . وكان أسامة وإخوته قد رحلوا عن شيزر لسوء معاملة عمهم لهم . وكان أسامة آنئذ في مصر يراود البلاط الفاطمي (٣٩) . ولما غادر مصر وأسر الإفرنج أخاه نجم الدولة محمد طلب من ابن

عمه ناصر الدين محمد أمير شيزر الإعانة فرفض ، ولكن الملك نور الدين دفع الفدية له (٤٦) .

زلزال سنة ١١٥٧ م الكبير ونهاية الأسرة المنقذية :

انتاب بلاد الشام في عام ١١٥٦ م زلازل هائلة تكررت بصورة متقطعة حتى عام ١١٥٧ م . ويذكر المقدسي في كتاب الروضتين (٤٦) أن هذه الزلازل استهلت أولها في ٢٢ ربيع الأول (نيسان) سنة ١١٥٦ م بست هزات ، ثم تكررت بعد ثلاثة أيام بشكل ارتاع منه الناس . فتواصلت الأخبار من ناحية حلب وحماه بانهدام مواضع كثيرة ، وإنهدام برج من أبراج أفاميا . وذكر أن عدد هذه الهزات قُدر بالأربعين . وفي التاسع والعشرين من الشهر ذاته حدث زلزالان آخران . وفي أول شهر رمضان (تشرين الأول) من العام نفسه حصلت زلزلة مروعة ثانية وثالثة ، وفي الثالث منه حدثت ثلاثة زلازل وأخرى وقت الظهر وأخرى هائلة أيقظت النيام وروّعت القلوب عند انتصاف الليل وفي ليلة نصف رمضان حصلت زلزلة هائلة أعظم مما سبق وعند الصباح أخرى وفي الليلة بعدها تلازلزلتان ، وفي ليلة الثالث والعشرين تلت زلزلة مزعجة . وفي ثاني شوال (تشرين الثاني) حصلت زلزلة أعظم مما تقدم ، وفي سابعة وسادس عشرة وسابع عشرة وليلة الثاني والعشرين جرت أربعة زلازل . فأتت الأخبار من حلب عن كثرة الإنهدام في مساكنها . أما شيزر فان الكثير من بنيانها تهدم على سكانه بحيث قتل منهم العدد الكثير . أما كفر طاب فهرب أهلها منها خوفاً على أرواحهم . وأما حماه فكانت كذلك بين التهديم وهرب سكانها . عادت الزلازل تتكرر ثانية في سنة ١١٥٧ م ، ففي ليلة

التاسع عشر من صفر (آذار) وافت زلزلة عظيمة وتلاها أخرى وكذلك في ليلة العشرين واليوم بعدها تواصلت الأخبار عن عظيم تأثير هذه الزلازل . وفي ليلة الخامس والعشرين من جمادى الأول (حزيران) وافت أربع زلازل وضج الناس بالتهليل والتسبيح والتقديس . وفي ليلة الرابع من جمادي الثاني (تموز) وافت زلزلتان وترادفت الأخبار من الشمال بأن هذه الزلازل أثرت في حلب تأثيراً أزعج أهلها وأقلقهم وكذلك في حمص هدمت مواضع فيها ، وفي حماه وكفر طاب وأفاميا وهدمت ماكان بُني من تهديم الزلازل السابقة . وفي الرابع من رجب (آب) من العام نفسه وافت دمشق زلزلة عظيمة لم يُر مثلها فيما تقدم ودامت رجفاتها مما أخاف الناس على أنفسهم فهربوا من الدور والسقائف ، فهدمت مواضع كثيرة ثم وافت بعدها زلزلة ثم تبعها في أول الليل زلزلة وثانية في منتصفه وثالثة في آخره . وفي ليلة الجمعة الثامن من رجب (آب) ثم السبت ثم الأحد ثم الإثنين حصلت سلسلة من الزلازل ذات رجفات مروعة متتابعة أخربت البلاد وأهلكت العباد وكان أشدها بمدينة حماه وحصن شيزر فانهما خربتا بالمرّة ، وكذلك خُرّب ماجاورهما كحصن بعرين وكفر طاب والمعرّة وأفاميا وحمص وحصن الأكراد وعرقة واللاذقية وطرابلس وأنطاكية (٣٩ ، ٤٥ ، ٤٦). وقد رافق بعض هذه الزلازل رعود قاصفة وخاصة في حماه وشيزر . وقد تركت هذه الزلازل ندباً في النفوس وفجائع تسطرت على صفحات التاريخ . فهولها وروعتها وشدة تخريبها وما هلك بها من النفوس وخاصة في حماه وشيزر نظمت بها الأقوال :

روّعتنـــا زلازل حـــادثــات

بقضـاء قضـاه رب السمـاء

هدمت حصن شيزر وحماه
أهلكت أهله بسوء القضاء

وبلاداً كثيرة وحصونا
وثغوراً موثقات البناء

وإذا مارنت عيون إليها
أجرت الدمع عندها بالدماء

وإذا ماقضى من الله أمر
سابق في عباده بالمضاء

حار قلب اللبيب فيه ومن كا
ن له فطنة وحسن ذكاء

وتراه مسبحاً باكي العيـ
ـن مروعاً من سخطة وبلاء

جل ربي في ملكه وتعالى
عن مقال الجهال والسفهاء (٤٦)

وقد ذكر الأمير مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن منقذ هذه الزلازل التي أهلكت كثيراً من أهل الشام ، وقد قُدِّر ذلك بنحو عشرة آلاف نسمة . وقد كتب عنها أبياتاً من الشعر ، وخلال ذلك كانت الزلازل لازالت تتعاهد البلاد . ومنها قوله :

نمنا عن الموت والمعاد فأصبحـ
ـنا نظن اليقين أحلاماً

فحــركتنــا هــذي الزلازل أن
تيقظــوا كم ينــام من ناما (٤٦)

وقال أيضاً :

أيهــا الغافلــون عن سكــرة المو
ت وإذ لايسوغ في الحلــق ريقُ

كم إلى كم هذا التشاغلُ والغفــ
لةُ حــارَ الساري وضلَّ الطريقُ

إنمــا هزّت الزلازل هــذي
الأرض بالغافلين كي يستفيقوا (٤٦)

وقال أيضاً في هذه الزلازل وقد سكن الناس بعد الدور في أكواخ عملوها من الأخشاب لئلا تهدها الزلازل :

يا أرحم الراحمين ارحم عبادك من
هذي الزلازل فهي الهلك والعطب

ماجــت بهم أرضهم حتى كــأنهم
ركــاب بحر مع الأنفاس يضطرب

فنصفهم هلكــوا فيهــا ونصفهم
لمصرع السلــف الماضين يرتقــب

تعوضــوا من مشيــدات المنازل با
لأكــواخ فهي قبــور سقفها خشب

كأنهـا سفن قـد أقبلـت وهم
فيهـا فلا ملجـأ منها ولا هرب (٤٦)

وخلال زلزال آب ١١٧٥ م المسمى بزلزال حماه ، تجلى على مسرح شيزر كارثة أودت بجميع بني المنقذ . فعندما حصل الزلزال كان الأمير تاج الدولة بن سلطان المنقذي يحتفل باختتان ولد له . فعمل بمناسبة ذلك وليمة في دار شيزر أحضر إليها جميع بني منقذ . وكان للأمير فرس يحبها ويكاد لايفارقها ، وإذا كان في مجلس أقيم الفرس على بابه . وفي ذلك اليوم كان المهر على باب الدار . وفي أثناء الوليمة وقع ذلك الزلزال المخيف ، فقام الناس ليخرجوا من الدار . فلما وصلوا الباب مجفلين رمح الفرس رجلاً كان في أولهم فقتله . فامتنع الناس من الخروج ، فسقطت الدار عليهم كلهم وخرّبت القلعة وسقط سورها وكل بناء فيها ، ولم ينج منها أحد سوى زوجته تاج الدولة التي انتشلت من تحت الردم (٤٥) . وكان أسامة آنذاك في دمشق . فلما سمع بكارثة أهله ، قدم إلى شيزر . ولما عاين مافعلته الزلازل بكاهم ورثاهم بأرق القصائد (٤) :

ما استدرج الموت قومي في هلاكهم
ولا تخرّمهم مثنى ووحـدانا

فكنـت أصبر عنهم صبر محتسب
وأحمـد الخطـب فيهم عزّاً ورهانا

وأقتـدي بالورى قبلي ، فكم فقدوا
أخـا ، وكم فارقـوا أهلاً وجيرانا

لكن سَقبَ المنايا وسط جمعهم
رغـا فخروا على الأذقـان اذعانا

وفاجأتهُمُ من الأيـام قارعـة
سقتهم بكـؤوس المـوت ذيفانا

ماتوا جميعاً كرجع الطرف وانقرضوا
هل ماترى تارك للعين إنسـانا

اعزز عليَّ بهم من معشر صُبُرٌ
عند الحفيظـة ان ذو لوثة لانا

لم يترك الدهر لي من بعد فقدهم
قلباً أجشمـه صبراً وسلـوانا

فلـو رأوني لقالوا مات أسعدنا
وعاش للهـم والأحـزان أشقـانا

لم يترك المـوت منهم من يخبرني
عنهـم فيـوضح مالاقـوه تبيانا

بادوا جميعـاً وما شادوا فواعجبـاً
للخطـب أهلك عُماراً وعمـرانا

هذي قصورهم أمست قبورَهـم
كـذاك كـانوا بهـا من قبـل سكانا

ويحَ الزلازل أفنـت معشري فـاذا
ذكـرتهم خلتني في القوم سكرانا

لا التقى الدهــر من بعد الزلازل ما
بقيت إلا كسير القلــب حيرانــا

أخنت على معشري الأدنينَ فاصطلمت
منهم كهولاً وشبــاناً وولــدانا

لم يحمهم حصنهم منهــا ولا رَهِبَتْ
بأساً تَنَاذَرَهُ الأقــران أزمــانا

إن أقفرت شيزرٌ منهم فهم جعلوا
منيع أسوارهــــا بيضــاً وخِرْصانا

هم حمــوها فلو شاهدتهم وهم
بهــا لشــاهدت آساداً و خفــانا

تراهم في الوغى أسداً ويوم ندًى
غيثاً هتوناً وفي الظلماء رهبــانا

بنو أبي وبنو عمي دمي دمهم
وإن أروني منــــاواة وشــنأنا

يُطيِّبُ النفس عنهم أنهم رحلــوا
وخلفوني على الآثــــار عجلانا (٤٦)

وكتب إليه الصالح بن رزيك من الأمراء المقدّمين بمصر يعزيه بفقدان أهله :

بأبي شخصك الــذي لا يغيــب
عن عياني فهــو البعيد القريــب

يا أخـــلاي بالشـــام لئن غبـــ
ـــتم فشـــوقي إليكـــم لايغيـــب

غصبتنـــا الأيام قربكُـمُ منــــ
ـــا ولا بد أن تُردَّ الغصـــوب

كره الشـــامْ أهلَه فهـــو محقو
ق بألا يقـــيم فيـــه لبيـــــب

إن تجلـــت عنـــه الحروب قليـــلا
خلفتهـــا زلازل و خطـــــوب

رقصت أرضـــه عشية غنى الـــ
ـــرعد في الجوّ والكريم طروب

وتثنـــت حيطـــانـــه فأمالتـــ
ـهـــا شمـــال بزمـــرها وجنوب

لاهبـــوب لنائـــم من أمانيـــ
ـــه وللعـــاصفـــات فيها هبوب

وأرى البرق شامتـــا ضاحلـــك الســـ
ـــن وللجـــوّ بالغمـــام قطـــوب

ذكروا أنه تـــذوب بـــه السحـــب
فمـــا للصخـــور أيضـــاً تـــذوب

أبـــذنب أصابهـــا قـــدر اللـــ
ـــه فللأرض كـــالأنـــام ذنـــوب

إن ظني والظـن مثـل سهام الـــ
ـــرمي منهـا المخطى ومنهـا المصيب

إن هـذا لأن غـدت ساحـة القـد
س ومـا للاسـلام فيهـا نصيـب

منزل الوحي قبل بعث رسول اللـــ
ـــه فهـو المحجـوج والمحجـوب

نزلت وسطـه الخنازير والخمــ
ــر وبارى الناقـوس فيـه الصليب

لو رآه المسيح لم يرض فعـلاً
ذكـروا أنـه لـه منسـوب

لهف نفسي على ديـار من السكــ
ـان أقـوت فليس فيهـا عريـبُ

إن تَخَصَّكُـم نوائب مازا
لت اكم دون من سواكـم تنوب

أبعـد الناس عـن عبـادة رب النـ
ـاس قـوم الاهم مصلـوب

فاحتـب ما أصاب قومك مجد الديـ
ـن واصبر فالحـادثات ضروب

فكـذاك القنـاة يُكْسَرُ يوم الــ
ـرَّوْعِ منهـا صدرٌ وتبقى كعوب (٤٦)

كان أسامة مقداماً لايساوم على كرامته وأهله . وبلغه أن القاضي كمال الدين بن الشهرزوري أنشد أبياتاً لنور الدين تعرض بها لبني المنقذ :

ملك بني منقذ تولى
وكان فوق السماك سمكه

واعتبروا وانظروا وقولوا
سبحان من لايزول ملكه

فرد عليه أسامة بهذه الأبيات :

وكل ملك إلى زوال
لايعتري ذا اليقين شكه

إن لم يزل بانتقال حال
أزال ذا الملك عنه هلكه

والله رب العباد باق
وهالك نده وشركه

فقل لم يظلم البرايا
غرك أمهاله وتركه

تنسى ذنوباً عليك تحصى
يحصرها نقده وحكه

كم ناسك نسكه رياء
أوبقه في المعاد نسكه

فاحذر مايختفي عليه
من عبده صدقه وإفكه (٤٦) .

وفي شهر تشرين أول سنة١١٥٧ م داهم نور الدين مرض خطير فأوصى بملكه لأخيه نصر الدين على أن يتولى شيركوه دمشق تحت سيادته . عزم بلدوين في خريف هذه السنة أن يستفيد من مرض نور الدين لإستعادة سلطان الإفرنج على المجرى الأوسط لنهر العاصي ، وقد شجعه على ذلك عودة تتيري كونت فلاندر مع جماعة من الفرسان ، كما حرّض رينالد شاتيون إلى الإنحياز إلى جيشه لشن هجوم على شيزر . ورينالد هذا كان قد قدم إلى سورية مع الملك الإفرنسي لويس السابع . وقد تزوج من كونستانس أميرة أنطاكية . وقبل مهاجمة شيزر كان رينالد قد عاد من غزو جزيرة قبرص حيث ارتكب فيها أفظع أنواع الوحشية . ولما وصل الجيش الصليبي شيزر وجدوا جماعة من الحشاشين كانوا قد هبطوا عليها من مصياف ودخلوا قلعتها بعد أن أودت الزلازل بأهلها وهدمت حصونها (٤ ، ٤٥) وقعت المدينة السفلى بيد الصليبيين وكادت القلعة الخربة أن تستسلم لولا حدوث الإنشقاق في صفوف الصليبين واختلافهم عمن سوف يكون له النفوذ على شيزر . وبهذا تخلوا عن شيزر وساروا شمالاً فاحتلوا خرائب أفاميا وحارم . ولما تعافى نور الدين سار إلى شيزر فطرد الحشاشين منها ورمم حصونها وسلمها إلى أخيه بالرضاعة مجد الدين بن الداية (٤ ، ٤٤ ، ٤٦) . وفي سنة ١١٥٩ عُقدت هدنة بين الإمبراطور مانويل ونور الدين ، استشاط لها الصليبيون غيظاً . وفي سنة١١٦٠ م سقط رينالد شاتيون بالأسر بيد نور الدين . وفي

سنة ١١٦٢ م توفي بلدوين الثالث فخلفه على مملكة بيت المقدس أخوه اماريك (٤٤) . أراد نور الدين أن يضع هذه المملكة الصليبية بين مجرى رحى. ولما كان عالماً بأحوال الفاطميين الواهنة، قرر أن يقوي نفوذه في مصر : فأرسل إليها قائده أسد الدين شيركوه الذي فاز سنة ١١٦٩ م بانتصارات عسكرية وسياسية إذ تمكن أن يتولي الوزارة للخليفة الفاطمي العاضد (١١٦٥ م –١١٧١ م) ولكن شيركوه قضى نحبه بعد شهرين من تقلد الوزارة ، فانتقلت من بعده إلى ابن أخيه صلاح الدين بن أيوب (٢) . وفي هذه السنة ١١٦٩ م توفي مجد الدين بن الداية فانتقلت أملاكه بما فيها شيزر إلى أخيه شمس الدين علي بن الداية وذلك بأمر من نور الدين (٤٥) .

صلاح الدين الأيوبي : وُلد الملك الناصر صلاح الدين بن يوسف في تكريت على نهر دجلة سنة ١١٣٨ م من أبوين كرديين . ولما كان عمره سنة واحدة انتقل مع والده أيوب إلى بعلبك إذ عينه زنكي قائداً لحاميتها . وفي سنة ١١٦٤ م رافق عمه شيركوه في حملته على مصر (٢) . وعندما استلم الوزارة سنة ١١٦٩ م أصبح صلاح الدين سيد مصر بلدون منازع ، وقد بدأ النزاع بينه وبين سيده نور الدين. ولكن تطور هذا النزاع توقف وقتياً بسبب ماتعرضت له سوريا في حزيران سنة ١١٧٠ م من هزات عنيفة ضارعت بقوة تدميرها زلازل سنة ١١٥٧ ، وهذا ما أجبر نور الدين والصليبيين أن يظلوا يصلحون في الشهور التالية ماتخرب من الحصون ، إذ لحقت أضرار شديدة بحلب وشيزر وحماه وحمص وحصن الأكراد وطرابلس وجبيل . ولكن أشدها حصل في أنطاكية (٤٥) . وكان سبب النزاع بين

نور الدين وصلاح الدين ، هو أن نور الدين لشدة حرصه على سيادة المذهب السني كتب إلى صلاح الدين يطالب منه منع ذكر اسم الخليفة الفاطمي على المنابر في صلاة الجمعة ، وأن يذكر بديلاً عنه اسم الخليفة العباسي . بقي صلاح الدين يماطل في تحقيق رغبة سيده . إذ كان يعتبر أنه يستمد سلطته من الخليفة الفاطمي . ولما هدد نور الدين بالسير إلى مصر ، بدأ الدعاة يدعون على منابر القاهرة للخليفة العباسي المستضيء ، بينما كان الخليفة العاضد الفاطمي يحتضر على فراش الموت في قصرة . وكان قبل وفاته طلب رؤية صلاح الدين ، الذي امتنع أن يحقق رغبته . وبموت العاضد زالت الخلافة الفاطمية من الوجود وذلك في سنة ١١٧١ م (٤٤) . ارتاعت الباطنية لزوال الخلافة الفاطمية لأن عواطفهم كانت شيعية لاسنية . وقد قامت قيادتهم في قلعة ألموت في بلاد فارس بارسال رشيد الدين سنان البصري ليتولى القيادة في إقليم النصيرية . وقد اشتهر رشيد الدين عند الصليبيين باسم شيخ الجبل . وقد اعتبر رشيد الدين أن نور الدين عدوه ، فشرع يتقرب من الملك املريك . وفي سنة ١١٧٤ م بينما كان نور الدين يستعد لمهاجمة مصر توفي بالخناق (الذبحة الصدرية) ، في مدينة دمشق ، فخلفه ابنه الملك الصالح إسماعيل ، الذي كان برفقته ، والذي لم يكن له من العمر سوى أحد عشر عاماً .ونظراً لحداثة سن إسماعيل ، اغتنم ولاة والده ، ابن المقدم في دمشق وكمشتكين في حلب وصلاح الدين في مصر ، الفرصة لتوسيع نفوذهم عن طريق إعلان الوصاية عليه . وفي العام نفسه توفي الملك املريك ، فخلفه على عرش بيت المقدس ابنه بلدوين الأبرص وكان عمره ثلاثة عشر عاماً ، فحكم تحت وصاية ريموند كونت طرابلس . وبنفس السنة

أيضاً هرب إسماعيل إلى حلب . فأضحى تحت رعاية كمشتكين (٤٤) وحدث أن إسماعيل قام باعتقال صاحب شيزر سابق الدين عثمان بن الداية وأخيه شمس الدين . فأنكر السلطان صلاح الدين عليه ذلك واتخذ الأمر حجة لقصد بلاد الشام لانتزاعها منه (٣٨) . سار صلاح الدين إلى سوريا ، فدخل دمشق . فأقام عليها أخاه طفتكين بدلاً عن ابن المقدم . ثم تابع سيره شمالاً فدانت له حمص وحماه . وبعدها تقدم إلى حلب ففرض الحصار عليها في شهر كانون الأول سنة ١١٧٤ م . كان الحلبيون غير راضين عن كمشتكين ، غير أن الملك الصغير إسماعيل . خرج إلى الشارع فناشد الناس كي يحافظوا عليه من صلاح الدين الذي سلبه إرثه ، فرق المدافعون لحاله ، ولم يتخلوا عنه مطلقاً . وفي تلك الأثناء التمس كمشتكين النجدة من الحشاشين والإفرنج ، مما أجبر صلاح الدين أن يتراجع عن حلب . وفي هذه الأثناء اتصل أولاد الداية بالسلطان صلاح الدين وصاروا في خدمته ، فأقر سابق الدين ثانية على شيزر كما زاده حصن أبي قبيس المجاور بعد أن قتل صاحبه حماردكن (٣٨) . استمر صلاح الدين بمحاربة الإفرنج والحشاشين والنورية . وفي سنة ١١٨٠ م توفي الملك الصالح إسماعيل . فخلفه على حلب ابن عمه عماد الدين . ولكن في سنة ١١٨٣ عاد صلاح الدين لمهاجمة حلب ، فدخلها بعد أن تخلى عنها عماد الدين . بعدها عاد إلى دمشق فاتخذها حاضرة له ، وبهذا أصبح له السلطان المطلق على سورية ومصر ، كما اعترف له بذلك الخليفة العباسي الناصر (٤٤) . وفي سنة ١١٨٥ م . توفي الملك بلدوين الأبرص ، وكان أوصى بالعرش إلى ابن أخته بلدوين الخامس ، الذي كان حديث السن . ولكن بلدوين هذا توفي سنة١١٨٦ ، فآل العرش إلى سبيللا

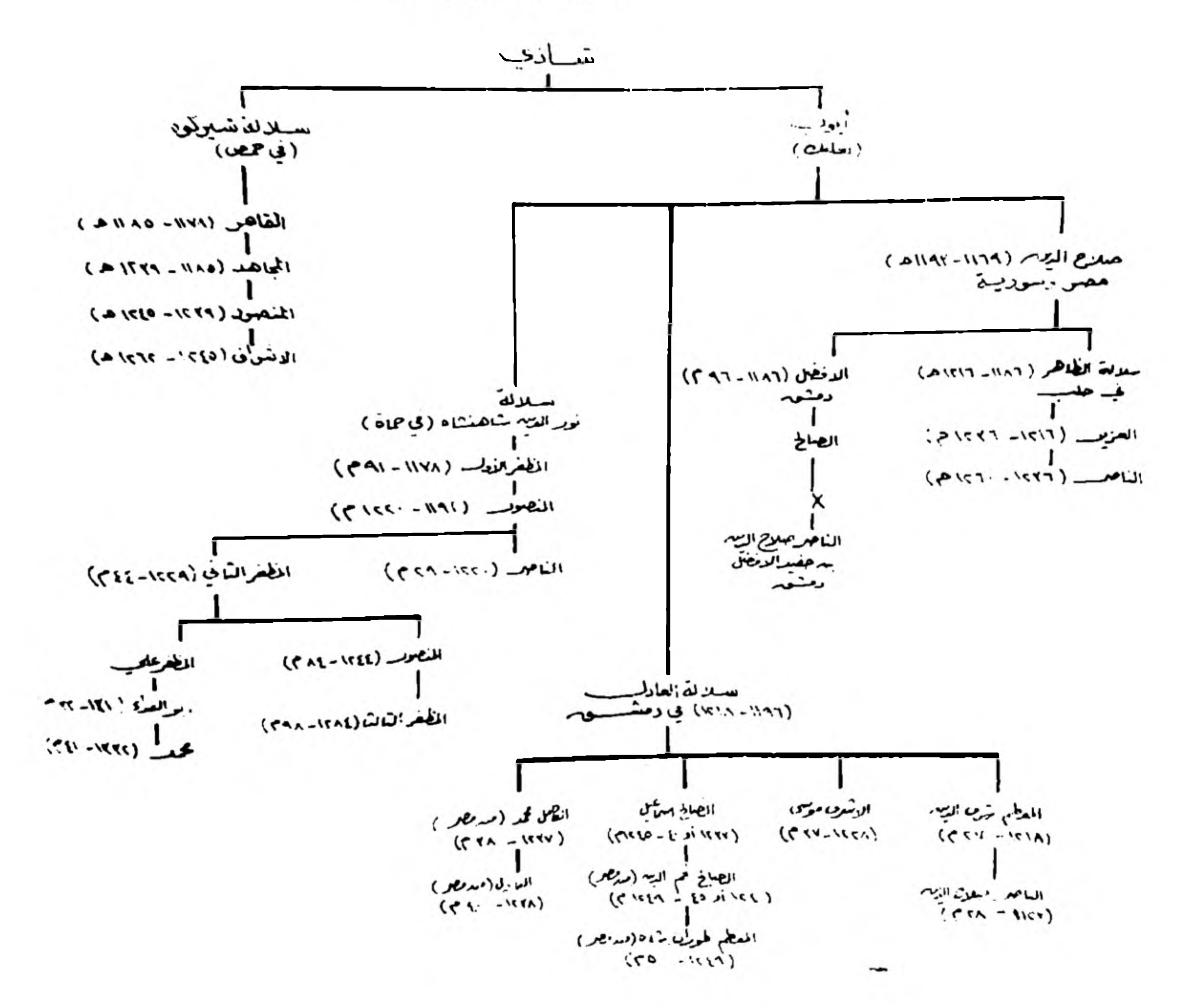
ابنة الملك املريك الأول وزوجها كاي لوزيجيان . ونتيجة ذلك تجدد القتال بين الصليبيين وصلاح الدين إذ تفرغ لقتالهم . ففي سنة ١١٨٧ م تقدم صلاح الدين بجيوشه نحو مملكة القدس . فعبر نهر الأردن في أول شهر تموز واحتل مدينة طبريا . ولما وردت الأنباء إلى الملك كاي عقد اجتماعاً في عكا . مع باروناته . فنصحهم ريموند كونت طرابلس الذي كانت زوجته لاتزال تدافع عن قلعة طبرية . بأن لايعملوا إلى خطة الهجوم في حرارة الصيف اللافحة التي ستجبر صلاح الدين للانسحاب والتراجع وفي الوقت نفسه تصل الإمدادات من أنطاكية . كان معظم الفرسان يميلون إلى هذا الرأي . ماعدا رينالد شاتيون صاحب الكرك وجيرار مقدم فرسان الداوية . اللذين اتهما ريموند بالجبن . وأنه باع نفسه للعدو . وكان الملك كاي يأخذ بما يقوله جيرار . فأصدر الأوامر إلى جيشه بالتحرك إلى طبريا . الذي تقدم وعسكر في صفورية .الملائمة لأن يعسكر فيها جيش لما بها من الماء والمراعي للخيول . وعند المساء قدم رسول من قبل كونتيسة طرابلس وزوجة ريموند التي كانت تدافع عن قلعة طبريا . فقصد الملك كاي مجلساً في خيمته . إذ اشتد تأثر الفرسان لما أدركوه من استماتة الكونتيسة للدفاع عن القلعة . فتوسل أبناؤها . وقد اغرورقت أعينهم بالدموع . بأنه لابد من إنقاذ أمهم . ولكن ريموند حض الملك ثانية أن يبقى في صفورية . كما أنه أشار إلى أن السير شرقاً نحو طبريا سيكون في أراض قاحلة جدباء لاماء بها ولا كلأ . وهذا ماسيعرض الجيش إلى العطش والقيظ ويجعله عرضة للهلاك والدمار . ولكن جيرار أقنع الملك بالسير نحو طبريا . وفي صبيحة يوم الخميس في الثالث من تموز . غادر الصليبيون حدائق صفورية يشقون طريقهم

فوق تلال الجليل الجرداء إلى أن وصلوا إلى هضبة خاوية من الماء تشرف من الشرق على حطين وبحيرة طبريا . فعسكروا فيها . أما صلاح الدين فكان قد عسكر في الوادي المعشب تحتهم حائلاً بين الصليبيين والماء . أمضى الصليبيون ليلتهم في حالة من الإرهاق والتعب الشديد . وقد زاد من عنائهم أن صلاح الدين أشعل النار في الأعشاب والشجيرات الجافة التي تغطي التل ، فغشى معسكرهم الدخان الساخن . وفي جنح الظلام حرك صلاح الدين قواته ، فما كاد يبزغ فجر يوم السبت في ٤ تموز حتى تمّ تطويق جيش الملك كاي . بدأ صلاح الدين هجومه من كل جانب ، ولم يكن يخطر بخلد الصليبيين إلا الوصول إلى الماء . ولكنهم رُدّوا على أعقابهم إلى التل وقد غشاهم لهيب الحرائق ، فوقع كثير منهم في الأسر . بينما سقط آخرون قتلى وجرحى وقد تورمت أفواههم . فتكبدوا خسائر فادحة ، وتضاءل عددهم ، وانهارت قواهم . وبناء على طلب الملك قاد ريموند فرسانه فاقتحم ثغرة كان قد فتحها له تقي الدين ابن أخي صلاح الدين ، وما أن نفذ منها بفرسانه حتى سُدّت ثانية ، ولم يستطع العودة إلى رفاقه ، فركبوا من ساحة القتال في طريقهم إلى طرابلس . لم يبق للجيش الصليبي المحاصر بارقة أمل ، فاستسلم الملك كاي مع بعض فرسانه بعد أن أبيد جيشه ووقع الصليب المقدس بيد صلاح الدين . استقبل صلاح الدين الملك كاي وقدم له الماء ولكنه احتزّ رأس رينالد شاتيون لما ارتكبه سابقاً من أعمال السلب والنهب والجرائم . بعدها قام صلاح الدين باحتلال مملكة بيت المقدس ، ثم توجه إلى القدس وكان له بها أصحاب من المسيحيين الأرثوذكس الذين كانوا يتطلعون بشغف إلى الأيام التي كان بوسعهم زمن الحكام المسلمين أن يمارسون

شعائرهم الدينية كيفما شاءوا . وقد وعدوا بأن يفتحوا أبواب القدس للسلطان حتى قام بمهاجمتها . وفي يوم الجمعة الثاني من كانون الأول سنة ١١٨٧ م دخل صلاح الدين بيت المقدس وقد أمر شرطته أن يمنع الاعتداء على المسيحيين ، وهذا على عكس ماقام به الغزاة الصليبيون منذ ٨٨ سنة عندما دخلوا المدينة فأباحوها وخاضوا في دماء ضحاياهم . ولقد جلا عن المدينة أغلب سكانها ، بينما أخذ بعضهم أسرى . أما المسيحيون الأرثوذكس واليعاقبة ، فظلوا مقيمين في بيت المقدس . تابع صلاح الدين هجومه على معاقل الصليبيين ولم يأت عام ١١٨٨ م حتى هاجم قلعة الحصن والمرقب وطرطوس ولكنها جميعاً امتنعت عليه، فتابع تقدمه فاحتل جبلة ثم اللاذقية التي اشتهرت بجمالها لما حوته من الأماكن الأثرية من قصور وكنائس ترجع إلى الأزمنة البيزنطية . ويقال أن المؤرخ عماد الأصفهاني الذي كان يرافق جيش السلطان ، بكى لما شهده من نهب المدينة وتخريبها (٤٤) . تحول صلاح الدين عن اللاذقية فاقتحم قلعة صهيون المنيعة ، وقلعة بكّساس الشغر وسرمين وبرزية . وعندئذ حل التعب بجيوش صلاح الدين ؛ فالتمس بوهمند أمير أنطاكية عقد هدنة . فمنحه إياها السلطان . ولم يبق في أيدي الصليبيين آنئذ سوى أنطاكية وطرابلس وميناء السويدية اللائي كن بيد بوهمند بينما احتفظت الاسبتارية بحصن المرقب وقلعة الحصن والداوية بطرطوس وبعض المدن على ساحل لبنان وفلسطين مثل صور وعسقلان . وكل من الداوية والاسبتارية من الطوائف الدينية العسكرية التي أنشئت بين ١١١٨ — ١١٢٠ م في عهد بلدوين الأول (٤٤) .

كان خروج بيت المقدس من يد الصليبيين سبباً لقيام حملة صليبية ثالثة سنة ١١٨٩ م . ساهم فيها أقوى ملوك أوربا : فردريك بارباروسا مالك ألمانيا ، الذي غرق في نهر كيليكيا ، وفيليب أغسطس ملك فرنسا . وريتشار الأول ملك إنكلترا ، الملقب بـ (قلب الأسد) . رأت القيادة الصليبية في سوريا أن مدينة عكا هي المفتاح لاستعادة الملك المفقود ، وقد قاد الحملة عليها الملك كاي . واشترك بالحصار القوات الصليبية الجديدة التي قادها ريتشارد قلب الأسد وفيليب اغسطس (٢) . استمر الحصار مدة سنتين ، وفي حزيران سنة ١١٩١ م جاءت إمدادات إلى صلاح الدين من مصر ، والموصل ، كما قدم أمير حماه وأمير شيزر سابق الدين بن الداية بعساكرهما في أوائل شهر تموز (٤٤) . ولكن في شهر آب اضطرت حامية المدينة إلى الإستسلام . وكان من الشروط المتفق عليها اعادة « الصليب الحقيقي » . وإخلاء سبيل الحامية مقابل إداء ٢٠٠ ألف قطعة من الذهب . وفي أيلول سنة ١١٩٢ م تم الصلح بين صلاح الدين وريتشارد على أن يكون الساحل من صور إلى الجنوب بيد الصليبيين ، بينما يبقى الداخل بيد صلاح الدين . بعد هذا عاد ريتشارد إلى وطنه . وفي مستهل شهر آذار من عام ١١٩٣ م توفي صلاح الدين بالحمى وهو في الخامسة والخمسين من عمره ، فدفن إلى جانب المسجد الأموي في دمشق (٢) وبعد وفاته انقسمت سورية بين ابنيه ، فخلفه على دمشق ابنه الأفضل وعلى حلب الظاهر . ولكن دمشق انتقلت من الأفضل إلى عمه العادل حاكم مصر . وبعد وفاة العادل سنة ١٢١٨ م نشأت أسر أيوبية عديدة تولت الحكم في مصر ودمشق والعراق ، وظهرت منها فروع أخرى في حمص وحماه واليمن (شكل ٢) . فبقيت دمشق بأيدي

الشجرة الأيوبية



(شكل رقم ٢)

عائلة العادل أخي صلاح الدين حتى سنة ١٢٥٠ م . وحلب بأيدي الظاهر بن صلاح الدين وأولاده حتى سنة ١٢٦٠ م . وحمص بأيدي أولاد شيركوه عم صلاح حتى سنة ١٢٦٢ م . وحماه بأيدي أولاد نور الدين شاهنشاه وأولاد . ومنهم الملك المؤرخ أبو الفداء . حتى سنة ١٣٤١ م (٢) . وأما شيزر فقد كانت بيد سابق الدين بن الداية ، إذ منحه إياها السلطان صلاح الدين لتأييده إياه ضد الملك الصالح إسماعيل بن الملك نور الدين . وبعد وفاة صلاح الدين ، بقيت شيزر بيد سابق الدين ، إذ صار من عمال الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب (١١٨٦ – ١٢١٦ م) . ولما مات سابق الدين . انتقلت شيزر لابنه عزّ الدين مسعود ثم لحفيده شهاب الدين يوسف . وفي سنة ١٢٢٣ م تجاهر شهاب الدين يوسف بالعصيان فسار إليه الملك العزيز محمد بن الظاهر صاحب حلب (١٢١٦ – ١٢٣٦ م) بأمر من الملك الكامل بن العادل صاحب مصر ودمشق . وبينما كان العزيز يحاصر شيزر قدم لمساعدته الملك المظفر محمود صاحب حماه ، فاضطر شهاب الدين أن يسلم شيزر وحصن أبي قبيس إلى العزيز ونتيجة هذا النصر هنأ يحيى بن خالد بن قيسراني الملك العزيز بقوله :

يامالكاً عمّ أهل الأرض نائلـــه
وخصّ إحسانه الداني مع القاصي

لما رأت شيزر آيات نصرك في
أرجائها القت العاصي إلى العاصي (٣٨٠،٤)

وفي خلال الإضطرابات التي نشأت بين الأيوبيين أخذت المدن التي احتلها صلاح الدين . نظير بيروت وصفد وطبرية ، بل القدس .

تعود تباعاً إلى الإفرنج ، فقد تخلى الملك الكامل ابن العادل عن القدس لفردريك ملك صقلية بموجب معاهدة عقدت لعشر سنوات ، تعهد بها فردريك أن يقدم العون الكامل على أعدائه . وجلهم من الأيوبيين (٢) بينما استمر النزاع بين أبناء أيوب ، والصليبيون قد أخلدوا إلى السكون بعد الهدنة مع الكامل ، جاءت الخوارزمية تعيث الخراب في الديار الشامية (٤٣) . والخوارزمية تنسب إلى خوارزم الواقعة في شمالي أفغانستان غربي نهر جيحون . وقد ابتدأت جذور الخوارزمية بتأسيس شاهات خوارزم عندما احتل السلاجقة تلك الديار . وكان هؤلاء الشاهات من الأتراك الموالين للسلاجقة ، الذين فيما بعد أصبحوا يتحكمون بتلك الرقعة من الأرض (٣٣) . ولكن جنكيزخان أخرجهم من مواطنهم في آسيا الوسطى حوالي سنة ١٢٢١ م ، فاتجهوا غرباً نحو بلاد فارس (٢) . وفيما بعد استولت الخوارزمية بقيادة جلال الدين على إيران والعراق . وفي سنة ١٢٣٧ م استمالهم الصالح نجم الدين بعد استئذان والده لاستخدامهم . وبعد مفارقة الصالح تقدمت الخوارزمية غرباً . فنازلت حمص مع صاحب حماه الملك المظفر الثاني . ثم ساروا سنة ١٢٤١ م إلى حلب ، فخرج إليهم طوران شاه . فقاتلهم ، ولكن حلت به هزيمة نكراء ، فقُتل خلق كثير من الحلبيين ومن بينهم الصالح بن الأفضل بن صلاح الدين . ثم تقدموا في أرجاء حلب ينهبون ويحرقون القرى ، فارتكبوا المنكر من الفواحش والقتل . ثم قصدوا سرمين ووافوا المعرّة ، ثم استمروا فيما هم عليه من النهب حتى نزلوا على شيزر سنة ١٢٤٢ م . ولكن في هذا الأثناء قدم المنصور صاحب حمص ومعه عسكر من عساكر الصالح اسماعيل المستولي على دمشق ، لنجدة الحلبيين ، فقصدوا الخوارزمية بالغرب

من شيزر . وعسكروا على تل السلطان . ولكن الخوارزمية رحلت إلى جهة حماه دون أن يتعرضوا إلى نهبها وذلك لإنتماء صاحبها المظفر الثاني إليهم . ومن حماه ساروا إلى سلمية ثم الرصافة طالبين الرقة ، فهاجمتهم الأعراب وسلبوا منهم مكاسبهم . ولكن عسكر حلب وحمص لحقت بهم شرقي الفرات ، وأنزلت بهم هزيمة مشتتة (٣٨ ، ٤٣) . ولكن الصالح نجم الدين اتصل بهم ثانية ، فدعاهم للإغارة على بلاد الشام وفلسطين . وفي سنة ١٢٤٤ أغاروا على القدس فأجهزوا على الإفرنج وبذلك خرجت من أيديهم نهائياً (٤٧) . وفي سنة ١٢٤٩ م توفي الصالح نجم الدين ،فاستلمت بعده زوجته شجرة الدر التي كانت جارية تركية للخليفة العباسي المستعصم . ثم أن الصالح أعتقها بعد أن رُزق منها صبياً . ولما تولت الحكم ، وجّه المستعصم رسالة جارحة إلى أمراء مصر يقول فيها : « إن كان مابقي عندكم رجل تولونه فقولوا لنا نرسل إليكم رجلاً » . فوقع الإختيار على أيبك ، وكان مملوكاً للصّالح نجم الدين . أعلن أيبك نفسه سلطاناً وأخذ بالقضاء على الأيوبيين في مصر وسوريا (٢) . وبهذا بدأت فترة المماليك التي كانت حقبة جديدة ، جلبت حكاماً جدداً لشيزر .

المماليك : كان إيبك (١٢٥٠ — ١٢٥٧ م) أول سلاطين المماليك. وسلسلة المماليك ، كما يستدل من اسمها ، سلالة عبيد من أجناس مختلفة وقوميات متباينة، كان يتولى الحكم من بعد الحاكم أحد عبيده أو بعض المرتزقة من أتباعه . وكان أول المماليك عبداً اشتري من سوق العبيد في بلاد القوقاس ، ليكون المرافق الخاص للصالح نجم الدين الأيوبي . وقد خلف نجم الدين سلسلة من المماليك جرى العرف

إلى تقسيمهم إلى سلالتين : المماليك البحرية (١٢٥٠ - ١٣٩٠ م) والمماليك البرجية (١٣٨٢ - ١٥١٧ م) . فالبحرية سموا بذلك نسبة إلى النيل ، إذ كانت ثكناتهم تقوم على جزيرة صغيرة في النيل ، وكانوا في أكثرهم من الترك والمغول . أما البرجية وقد سميت هكذا نسبة إلى برج القلعة في القاهرة . حيث أقاموا فيها أولاً بوصفهم عبيداً ، وكانوا من الجراكسه والأكراد إلا اثنين منهم كانا يونانيين (٢).

وبينما كان آخر ملوك الشام من بني أيوب يتنازعون مع المماليك البحرية بعد استيلائهم على مصر . جاء هولاكو التتري حفيد جنكيز خان غازياً من المشرق . فاستولى على بغداد سنة ١٢٥٨ م وقتل الخليفة المستعصم بالله ، وقضي على الخلافة العباسية ، كما خرّب وكر الحشاشين في قلعة ألموت (٢ ، ٤٣) . وبعدها تقدم في سوريا إذ أجرى فيها أشنع الجرائم التي عرفتها الإنسانية . فدخل حلب وقتل خمسين ألفاً من أهلها بحد السيف ، ومنها سار إلى حارم وحماه . وبعدها أرسل أحد قواده إلى دمشق ففتحها . ظل التتر ينتقلون في سورية يهدمون ويخربون حتى وصلوا غزة ، وكان قائدهم كتبغا . ولكن في سنة ١٢٦٠ م اشتبك التتر مع المماليك وبعض الملوك الأيوبيين الذين هربوا إلى مصر ، في معركة عين جالوت قرب الناصرة . وكان تولى قيادة الطليعة للجيوش الإسلامية ، بيبرس تحت أمره قطز المملوك الحاكم آنذاك . فانتهت المعركة بقتل كتبغا وهزيمة التتر وفرار من بقي منهم إلى خارج سوريا (٢) . وبعد هذه الهزيمة ، قال ابن أبي شامة ، وإنه من العجائب أن التتر كسروا وأهلكوا بأبناء جنسهم من الترك ، وقال في ذلك :

غلب التتار على البلاد فجاءهم
من مصر تركي يجود بنفسه

بالشـــام أهلكـــهم وبدد شملهم
ولكـــل شيء آفـــة من جنســـه (٤٣) .

وبعد المعركة اغتال بيبرس قطز لعدم مكافأته له ، وتسلطن ملقباً نفسه بالملك الظاهر بيبرس (١٢٦٠ – ١٢٧٧ م) . ولما سمع هولاكو بهزيمة جيشه في عين جالوت قتل الملك الناصر صاحب حلب ودمشق وأخاه الظاهر . وبقتلهم قلّ الرجال الذين يصلحون للملك من بني أيوب . وفي سنة ١٢٦١ م أمر بيبرس وكيله في دمشق للقضاء على أعوان قطز وكان منهم البرلي الذي غادر دمشق إلى حماه فطلب من صاحبها الملك المنصور سيف الدين ليوافقه على العصيان . ولما رفض المنصور الطلب نزل البرلي على حماه وأحرق زرع بيادر العشر ومنها سار إلى شيزر ثم إلى جهة حلب . ولعل مسيره إلى شيزر كان تسهيلاً لجيشه كي يعبر العاصي ليصل إلى حلب . واخيراً اجتمعت القوى على البرلي فطردوه عن حلب (٣٨) . مضى بيبرس لمعالجة أمر الأيوبيين في سورية ، فتخلص تدريجياً منهم واحد بعد الآخر ، ماعدا حماة . إذ تمكن أبناء نور الدين شاهنشاه ، ومنهم أبو الفداء ، أن يستمروا بالحكم حتى سنة ١٣٤١ م . بعد القضاء على الأيوبيين وسيطرته على مصر وسورية ، أراد بيبرس عن طريق الإحتيال أن يجعل لسلطنته سنداً دينياً فحدث أن جاء إلى القاهر جماعة من البدو وبصحبتهم رجل أسود البشرة اسمه أحمد ، ادّعوا أنه كان ابن عمّ الخليفة الراحل . فزعم بيبرس أنه تحقق من نسبه ، فناداه على أنه الخليفة وإمام المسلمين . غير أنه جرده من كل سلطة سياسية . وبعد مدّة جرى تسيير الخليفة إلى بغداد لاسترداده من أيدي المغول . فلقى مصرعه على أثر هذه المحاولة . بعد هذا وجه

بيبرس اهتمامه لمحاربة الإفرنج ، فحاصر مدنهم بفلسطين ، واستولى على عدد منها ، كما خرب الآخر حتى الأساس (٤٧) . وفي سنة ١٢٦٦ م هادن الاستبارية بقلعة الحصن والمرقب ، على أن يكون نصف غلات المملكة الحمصية والشيزرية والحموية له والنصف الآخر للاستبارية (٤٣) . وفي العام نفسه أجرى إتفاقية مع الداوية في طرطوس وصافيتا . كان هذا التهادن يأتي بمقتضى الحاجة ، حيث كان بيبرس مصمماً على الاستمرار في قتال الإفرنج . ففي منتصف عام ١٢٦٦ سار بجيش كبير إلى أنطاكية وكان أميرها بوهمند السادس آنذاك في طرابلس . ولكن في سنة ١٢٦٨ م سقطت أنطاكية ، فأمر بيبرس إغلاق أبوابها حتى لايهرب أحد من أهلها . ولما دخلت جيوشه المدينة قتلوا على الفور كل من كان في شوارعها . ومن نجا من القتل ، إما بقي في داره أو إلتجأ إلى القلعة في أعلى الجبل المشرف على أنطاكية . ولكن الجميع أخذوا أسرى وبيعوا في سوق الرقيق بأسعار رخيصة . فكان الغلام يباع باثني عشر درهماً ، بينما لم يتجاوز ثمن الجارية خمسة دراهم . وقد بلغ عدد الأسرى من الضخامة ، حيث لم يبق جندي بجيش السلطان مالم يحز على مملوك من السبايا ؛ هذا بالإضافة إلى المال الكثير والحلي الذهبية والفضية التي كانت تثير الدهشة . عاشت إمارة إنطاكية . التي كانت أول إمارة أقامها الصليبيون في الشرق ، ١٧١ سنة . ولم يمض زمن طويل على سقوط أنطاكية ، حتى استقر في دمشق مقر كل من الكنيستين الأرثوذكسية واليعقوبية بسوريا . تابع بيبرس حروبه مع الإفرنج وعند موته سنة ١٢٧٧ م كان قد جردهم من أكثر ممتلكاتهم التي لم يبق منها سوى عكا وصور وصيدا وطرابلس وجبيل وطرطوس ، فضلاً عن اللاذقية

وقلعتي عثليت والمرقب (٢ ، ٣٨ ، ٤٧) . ويصف المؤرخون أنه لم يتوفر لبيبرس إلا القليل من الصفات التي جعلت صلاح الدين يظفر بالاحترام حتى من خصومه . وكان بيبرس قد اشتهر بالقسوة والخيانة والتجرد من الإخلاص والولاء وخشونة الطبع وغلظ الحديث . ولكن على الرغم من أن رعاياه لم يكنّوا له شيئاً من المحبة إلا أنه كان راعياً للفنون والعمارة وتجديد بناء الحصون (٤٧) . دُفن الظاهر بيبرس بدمشق . ومدفنه اليوم بمثابة مكتبة تحمل لقبه وتعرف بالظاهرية (٢).

وبعد موت بيبرس خلفه ابنه بركة ثم سلامش اللذان خلفهما الأمراء بالتوالي وأجلسوا على تخت السلطنة الملك المنصور قلاوون الصالحي (١٢٧٩ — ١٢٩٠ م) . ولما اضطرب أمر المملكة استأثر بالشام سنقر الأشقر ، الذي تلقب بالملك الكامل شمس الدين سنقر ، فسار إليه بعساكر الديار المصرية المنصور قلاوون مع علم الدين سنجر . فاقتتلا بظاهر دمشق ، وكانت الهزيمة لسنقر ، الذي هرب من دمشق إلى الرحبة ، فانضم إليه عيسى بن مهنا أمير العرب ، إذ كاتبا أبغا بن هولاكو التتري . ومن الرحبة سار سنقر شمالاً فاحتل قلعة صهيون وبرزية وبلاطنُس والشغر وبكاس وعكار وشيزر وأفاميا ، وذلك سنة ١٢٨٠ م (٣٨ ، ٤٣) . وفي السنة نفسها هاجم التتر حلب فعاثوا فيها فساداً وقتلوا من كان بظاهرها ونهبوا وسبوا ضياعها ورحلوا عنها بعد أيام قلائل . وبسبب قوة التتر الضارية اضطر السلطان قلاوون لمصالحة سنقر الأشقر تفادياً من الإشتغال بمحاربة عدوين خارجي وداخلي . فبعد مراسلة وقع الصلح بينهما على أن يسلم سنقر قلعة شيزر إلى السلطان ، بينما يتسلم سنقر الشغر وبكاس ، وكانتا قد ارتجعتا منه بعد إحتلاله لهما (٣٨ ، ٤٣) . انشغل قلاوون بمحاربة

التتر والإفرنج ، ففتح طرابلس سنة ١٢٨٩ م فأباحها وقتل الكثير من أهلها ثم أحرقها وهدمها إلى الأرض . ولكنه توفي في سنة ١٢٩٠ م . فجلس على تخت السلطنة بعده ابنه الأشرف صلاح الدين خليل (١٢٩٠ — ١٢٩٣ م) ، الذي أنزل هزائم متكررة في الإفرنج . ففي سنة ١٢٩١ م فتح عكا وضرب بالسيف رقاب خلق عظيم من أهلها ودكها دكاً وهدمها إلى الأرض . وكانت عكا كما وصفها الذهبي من أحسن المدائن بالعمارة والبناء الفاخر (٤٣) . وبعد سقوط عكا أخلى الصليبيون صور وصيدا وبيروت خلال أيام قلائل . وكانت آخر معاقلهم في سوريا طرطوس وقلعة عثليت اللتان سقطتا في آب من العام نفسه . وكان الفرسان الهيكليون آخر الحاميات الصليبية التي غادرت سورية وبعد أن جلوا عن عثليت صمدوا إحدى عشر سنة أخرى في جزيرة أرواد المقابلة لشاطىء طرطوس . ولا يزال شعارهم ، الأسد والنخلة ظاهراً فوق باب القلعة الخربة لهذه الجزيرة . وبسقوط أرواد سنة ١٣٠٢ أسدل الستار على آخر مسرحيات الصليبيين في سورية (٢) .

كانت سوريا في عهد المماليك شأنها في العهد العباسي والفاطمي . فقد كانت مقسمة إلى ستّ نيابات تبعاً للتقسيم العام الذي اعتمده الأبوبيون . وكانت تتألف هذه النيابات من : حلب ، وحماه ، ودمشق ، وطرابلس ، وصفد ، والكرك (٢) . وكانت شيزر من نيابة أعمال حلب ، وكان نائبها أمير عشيرة (٤) . وبعد أن استرجعها قلاوون من سنقر الأشقر كان شأن شيزر شأن غيرها من حواضر سورية ، عرضة لتعسف المماليك وسفكهم وخصوماتهم والفتن المحيقة بهم . ففي سنة ١٣٤٧ م وذلك في سلطنة المظفر حاجي

سار نائب حلب ناصر الدين بن المحسني بعسكر لتسكين فتنة في شيزر جرت بين العرب والأكراد . قُتل فيها نحو ٥٠٠ نفس من الأكراد (٤٣) . وفي سنة ١٣٩٠ م قام منطاش نائب بعلبك وسار على السلطان برقوق وقد انضم إليه نعير بن جباز أمير آل فضل أجداد أمراء الموالي الحاليين . فقاموا بنهب ضياع دمشق وحلب وحماه (٤ . ٤٣) . ويذكر أحمد وصفي زكريا (٤) في كتابه جولة أثرية أن نعير نهب شيزر من جملة مانهب من البلاد الشامية . كان الناصر برقوق أول سلاطين المماليك البرجية ، وقد توفي سنة ١٣٩٨ م فتولى السلطنة بعده ابنه الناصر فرج وله من العمر اثنتا عشرة سنة ، وهذا مما شجع القريب والبعيد في اكتساح بلاد الشام . وكان تيمورلنك أكثر الغزاة إجراماً وتنكيلاً . ففي سنة ١٣٩٩ م جرد جيوشاً جرارة وسار إلى حلب للفتك بها ، فخرجت لملاقاته نوابها وعساكرها ونساؤها وفتيانها . فدارت بين الطرفين معركة تشيب لها النواصي . فانهزم الحلبيون مدبرين إلى المدينة ، فتتبعتهم عساكر تيمورلنك وداست حوافر خيلهم أجساد العامة من الناس . واحتماء من هذا الهول المخيف ، لجأت النساء والأطفال إلى المزارات والمساجد ، فدخل التتر إليهم وأسروهم وربطوهم بالحبال وأسرفوا في قتل النساء والرجال ، وصارت الأبكار تفتض في المساجد ، ولم يرعوا حرمة الجوامع واستمرت الحال هكذا أربعة أيام . ولما رأى دمرداش المملوك الشركسي نائب حلب عين الغلب خرج مع نوابه متوجهين الى تيمورلنك يطلبون منه الأمان . فخلع عليهم أقبية مخملية وتيجاناً مذهبة وجعلهم نوابة ، فسلموه القلعة . فنهبها وأحرقها وترك بعدها رجاله ينهبون قرى حلب ويهدمون بيوتها ويقطعون أشجارها ويهتكون

بنسائها ويقتلون أهلها . وقيل أنه بنى عشرة مآذن من رؤوس القتلى تاركاً أجسادهم تملأ الوهاد تنهشها الكلاب والوحوش . ومن حلب انكفأ تيمورلنك على حماه وسلمية وحمص . ففعل بحماه كما فعل بأهل حلب من القتل والنهب والحريق . ثم سار منها إلى دمشق . وكان السلطان قد فر منها إلى مصر . وعند بلوغها عسكر تيمورلنك في قطعنا بعساكر تجمعت من أقاصي البلاد وكلها من أعيار الخدم . وفواعل التراكمة والأوباش وكلاب النهاب من رعاع العرب وهمج العجم . وحثالة عباد الإنسان ، وأنجاس مجوس الأمم مما لايكتنفه ديوان . ولا يحيط به دفتر حسبان . وكانوا لشرهم وعددهم مادفع أحد الكتاب للقول فيهم :

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم
طاروا إليه زرافات ووحدانـــا

ولما فرض تيمورلنك الحصار على دمشق سنة ١٤٠٠ م ، كان فيها خلائق كثيرة من الحلبيين والحمويين والحمصيين وأهل القرى ممن خرج هارباً من أهوال التتر . أخذ الأعيان يتفاوضون مع تيمورلنك فكان يفرض عليهم الشروط وبعد تلبيتها يعود ثانية لفرض شروط أشد قساوة مما سبقتها . وبالتالي تم التسليم المدينة صلحاً . فدخلها التتر فحلّوا بأهلها مالا يوصف من البلاء والعذاب وهتك الأعراض . واستمر هذا البلاء تسعة عشر يوماً هلك خلالها بدمشق من العقوبة والجوع خلق عظيم . فاحتزوا الرقاب وسبوا النساء وساقوا الرجال والأطفال ولم يتركوا إلا من كان عمره خمس سنين ومادون . ثم أشعلوا النار في المنازل والمساجد ، فعم الحريق جميع البلد . قال

ابن تغري بردي أن المماليك وعساكرهم المصرية تركوا دمشق أكلة لتيمور ، وكانت يوم ذاك أحسن مدن الدنيا وأعمرها . وقد وصف ابن عربشاه تفاصيل هذا الهول العظيم فقال : وبينما كان رجال تيمورلنك يحاصرون قلعة دمشق أخذ هو يطلب الأفاضل وأصحاب الحرف والصنائع : واستمر نهب عسكره لدمشق ثلاثة أيام ، وارتحل وجماعته وقد أخذوا من نفائس الأموال فوق طاقتهم . فجعلوا يطرحون ذلك في الدروب والمنازل ، لكثرة الحمل وقلة الحمالين ؛ وأصبحت القفار والبراري ، والجبال والصحاري . لكثرة الأقمشة والأمتعة المبعثرة : كأنها سوق الدهشة ، وكأن الأرض فتحت خزائنها ؛ وأظهرت من المعادن والفلزات كامنها . وأخذ تيمور كل ماهر في فن من الفنون بارع في عمله من النساجين والخياطين والحجارين والنجارين والبياطرة والنقاشين والقواسين ،وبالجملة أهل أي فن كان : وأخذ جملة من العلماء والأعيان والنبلاء ، وأخذ من الفقهاء والعلماء وحفاظ القرآن والفضلاء . والنساء والفتيان والبنات والعبيد ، مالايسعه الضبط . ولما رحل عن دمشق ؛ تركها أطلالاً لامال ولا رجال ولامساكن ولا حيوان . ثم قامت العربان فأجهزت على المشردين من أهلها . وقد رثى بهاء الدين البهائي دمشق واصفاً ماحلّ بها من التتر وما أصاب حلب وحماه منهم ، بقوله :

لهفي على تلك البروج وحسنها
حفت بهن طوارق الحدثان

لهفي على وادي دمشق ولطفه
وتبدل الغزلان بالثيران

وشكا الحريق فؤادها لما رأت
نور المنازل أبدلت بدخان

جناتها في الماء منها أضرمت
فعجبت للجنات في النيران

كانت معاصم نهرها فضية
والآن صرن كذائب العقيان

ما ذاك إلا تُركهم ولجت بها
فتخضبت منها بأحمر قان

كرهت جداولها حوافر خيلهم
فتسابقت هرباً كخيل رهان

خافت خدود الأرض من أفعالهم
فتلثمت بعوارض الريحان

لو عاينت عيناك جامع تنكز
و البركتين بحسنها الفتان

وتعطش المرجين من أورادها
وتهدم المحراب والإيوان

لأتت جفونك بالدموع ملوناً
دمعاً حكى اللولو على المرجان

قطرات جفن ترجمت عن حرقتي
فكأنهن قلائد العقيان

أبني أمية أين يُسن وليدكم
والمغل تفتل في ذرى الأركان

شربوا الخمور بصحنه حتى انتشوا
ألقوا عرابدهم على النسوان

لهفي على كتب العلوم ودرسها
صارت معانيها بغير بيان

أعروسنا لك أسوة بحماتنا
في ذا المصاب فأنتما أختان

غابت بدور الحسن عن هالاتها
فاستبدلت من عزها بهوان

ناحت نواعير الرياض لفقدهم
فكأنها الأفلاك في الدوران

حزني على الشهباء قبل حماتنا
هو أول وهي المحل الثاني

لاتدّعي الأحزان يا شقراءنا
السبق للشهباء في الأحزان

رتعت كلاب المغل في غزلانها
وتحكمت في الحور والولدان

لهفي عليك منازلاً ومنازهاً
ومقام فردوس وباب جنان

لم أنز من أبكي وأندب حسرة
للقـــصر للشـــرفين للميـــدان

للجبهـــة الغـــراء أم خلخـــالها
للمـــزة الفيحـــا أم اللـــوّان

خرجت حلب ودمشق وحماه وقراها ، ولا شك أن شيزر كانت احداها ، بعد فتنة تيمورلنك كهيكل من العظام لا لحم ولا دم . وأصبن بنقص في النفوس وخراب في العمران ، يبكي لها كل من عرف ما كن عليه من السعادة قبل تلك الحقبة المشؤومة . ولم يأت من سلطان قوي يداوي جراحاتها . فكما كانت السلاطين تتغير باستمرار ، كذلك النواب ، وخاصة بحلب حوالي سنة ١٤٦٧ م ، كانت تتبدل بكثرة . وبهذا قال ابن الوردي :

هـــذي أمـــورٌ عظـــام
من بعضهـــا القلـــب ذائـــب

مـــا حال قطـــر يليـــه
في كـــل شهرين نـــائب (٤٣)

وفي هذا الإثناء ظهر للدولة المماليك الشركسية في مصر وسورية علوة للدودة وهي دولة الأتراك العثمانيين (٤٣) .

الأتراك العثمانيون : يعود أصل هؤلاء القوم كالسلاجقة إلى قبيلة الغز التركية . وقد قدم العثمانيون إلى آسيا الصغرى من آسيا الوسطى وأسسوا فيها دولة ، حوالي سنة ١٣٠٠ م ، نُسبت إلى مؤسسها عثمان . ومع الزمن أخذت تتوسع على حساب جاراتها من الدويلات

التركية والدولة البيزنطية . وفي عهد محمد الثاني الفاتح (١٤٥١ — ١٤٨١ م) دخلت دولة بني عثمان عهدها الإمبراطوري ، نتيجة استيلائه على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م . وبهذا أصبحت هذه الدولة التركية وريثة للامبراطورية البيزنطية (٢) . وفي سنة ١١٥٦ م سمت همة السلطان سليم الأول (١٥١٢ — ١٥٢٠ م) ، حفيد محمد الفاتح ، إلى فتح بلاد الشام ومصر . وكان عليها آنذاك قانصوه الغوري (١٥٠٠ — ١٥١٦ م) . وكان آخر من ملكوا الشام من مماليك الشراكسة . وفي العام نفسه جرت بين السلاطين معركة في مرج دابق بين أنطاكية ومنبج على نهر قويق ، انتهت بمقتل الغوري وانتصار سليم : فعلى أثر هذا النصر تمكن العثمانيون من بسط نفوذهم على سورية (٢ ، ٤٣) . فبعد دابق دخل السلطان العثماني حلب ، حيث توجه إليه أمير المؤمنين المتوكل على الله العباسي ، وكان قد جاء مع الغوري من مصر . وفي صلاة الجمعة أطلق الخطيب على على السلطان سليم لقب خادم الحرمين الشريفين . وبعد ذلك استسلمت مدن سورية الواحدة بعد الأخرى ، ففرضت عليها الضرائب وتغيرت فيها الأحكام . ولقد قال الإمام علي بن محمد المقدسي في هذا الجور ودخول السلطان سليم هذه الأبيات :

ليت شعري من على الشام دعا
بدعاء خالص قد سمعا

فكساه ظلمة مع وحشة
فهي تبكينا ونبكيها معا

قد دعا من مسه الضر من الـ
ـظلم والجور اللذين اجتمعا

فعـــلا الحجـــب دعـــا فانبعثـــت
غـــارة الله بمـــا قـــد وقعـــا

فـــأصاب الشام ماحل بهـــا
سنـــة الله التي قـــد أبدعا (٤٣)

ومن دمشق ذهب السلطان سليم إلى مصر حيث قتل آخر ملوك المماليك ، طومان باي (١٥١٦ – ١٥١٧ م) ، وكان قد بايع له المصريون بعد هلاك السلطان الغوري . وبعد ثمانية أشهر عاد الجيش العثماني إلى دمشق ؛ فطلبت العساكر النزول في البيوت فهجموا على النساء وتضرر الخلق بذلك ضرراً زائداً . وتابعوا تعدياتهم في أماكن متعددة من بلاد الشام ، فقطعوا الأشجار ، ورعوا الزروع ، وأخرجوا الأهالي من بيوتهم في كل بلد دخلوها كما تعدوا على أعراض الناس . عين السلطان سليم جان بردي الغزالي نائب حماه والياً على دمشق . وكانت ولاية دمشق تمتد من المعرة إلى عريش مصر ؛ وكانت شيزر جزءاً من أعمالها . ولما رحل السلطان إلى الأستانة وخلا الجو للغزالي حدثته نفسه بالخروج عن الطاعة وصعب على طبعه إلا أن يخون سيده الجديد كما خان سيده الأول قانصو الغوري . وعلى أمثاله ينطبق القول :

ومـــن يتعـــود عـــادة ينجذب لها
على الكره منه والعوائد أملك (٤٣)

فدعا لنفسه بالسلطنة . بعد أن فاوض أمراء لبنان والعربان والمماليك ولقب نفسه بالملك الأشرف . ولما بلغ قراجه باشا والي حلب موت السلطان سليم وذلك سنة ١٥١٩ م . حصن حلب وخرج إلى قرية

سرمين وقرية واديخ ونهبهما . فخرج إليه أمير شيزر وكان موالياً للغزالي . فهزمه وأخذ منه جميع المكسب . وتقدم الغزالي لحصار حلب . لكنه اضطر للتراجع عنها إذ أتتها الإمدادات بقيادة فرهاد باشا . فتوجه الغزالي نحو دمشق ماراً بحماه . ثم الرستن إذ خرب قناطرها على العاصي . ولكن عند قرية الدوير اشتبك الطرفان بمعركة حاسمة انتهت بهزيمة الغزالي . ولكن الجيش العثماني كغيره من الأشرار انتقموا من أهل دمشق وجوارها . فهجمت العساكر على الصالحية والأحياء والقرى فكسروا الأبواب ودخلوا البيوت والمتاجر وسلبوا أرزاقها . وآذوا النساء ، وكان جمع غفير منهن قد اجتمع بجامع الحنابلة ومدرسة أبي عمر وغيرهما ، فهجموا عليهن وعروهن وأخذوا بعضهن جوار وعبيد . كما احتز الباشا رأس الغزالي وأرسله مع ألف أذن من المقتولين إلى السلطان سليم القانوني (١٥٢٠ — ١٥٦٦ م) . ولئن كان هذا السلطان على جانب من العقل وحب القانون ، إلا أنه كان كأبيه السلطان سليم الأول بطاشاً ، إذ أن بلاد الشام لم ينلها منه شيء من العدل . وقد حدث مرة أن هاج أهل حلب في أوائل حكمه وقتلوا في الجامع القاضي والمفتي ، فصدرت إرادته السنية بقتل جميع أهل حلب . ولكن وجود رجل عاقل في الصدارة اسمه إبراهيم باشا ، أحال دون ذلك ، إذ أنه ألغى هذا الأمر البربري واكتفى بقتل زعماء الثورة (٤٣) .

أبقى العثمانيون الدوائر الإدارية في سورية على نحو ما كانت عليه في عهد المماليك . إلا أنهم بدلوا نظام التسمية ، فدُعيت النيابة ولاية . وعُرف النائب بالوالي . وعلى أثر حركة تمرد الغزالي ، قُسمت سورية إلى ثلاث ولايات وهي : دمشق ، واشتملت على

عشرة سناجق . وأهمها : القدس ونابلس وغزة وتدمر وصيدا وبيروت ؛ ثم ولاية حلب وفيها تسعة سناجق بينها شمالي سورية ؛ ثم ولاية طرابلس ، وفيها خمسة سناجق . ومنها حمص وحماه وسلمية وجبلة (٢) . وكانت شيزر من أعمال سنجق حماة . وكان وادي الجفار الحد الفاصل بين ولايتي حلب وسنجق وحماه (٤) . وفي تغييرات إدارية لاحقة ضُم سنجق حماه بما فيه شيزر إلى ولاية « سورية » التي كانت تحمل سابقاً اسم ولاية دمشق (٤٨) .

كانت حالة الأصقاع السورية بعد الفتح العثماني تنتقل من سيء إلى أسوأ ، والولاة كانوا على الأغلب من لاذمم لهم ولا قدرة إلا على جلب المغانم لأنفسهم ، وكان إزهاق الأرواح من الأمور الهينة والتي لاتستغرب . وفي القرن السادس عشر ، أصبحت الجنود الإنكشارية من أهم أدوات التخريب في بلاد الشام . فكثرت اعتداءاتهم على الرعية . إذ كانوا يستطيلون على أموالها وأعراضها ، ويثلمون عرفها ويذلون أعزتها . وفي عهد السلطان إبراهيم (١٦٤٠ — ١٦٤٨م) عمت الفواحش . فلقد استرسل هذا السلطان في الشهوات ، حتى أنه في كل أسبوع كان يُجري له عرس على بكر فتية ، كما أنه كلما سمع هو أو والدته أو أحد حاشيته أو وزرائه أو عماله بغانية حسناء كان يؤتى بها إلى قصره لتقدم إليه . ولم يكتف هذا السلطان بما كان يقدم له من النساء ، بل كان يطوف العاصمة وضواحيها . فإذا رأى من أعجبته وترددوليها في إرسالها كان يلقى جزاءه في الحال.وكان رجال القصر ونساؤه يسلبون من الأمة مايقدرون عليه (٤٣) . وخلال هذا كله إزداد البؤس في بلاد الشام . والظاهر أن روح الإنتفاض القديمة ، التي طالما ثارت على مساوىء الحكم العباسي والفاطمي ، كانت قد

تلاشت . ومن هنا يتضح أن العصور التي بدأت مظلمة في عهد الأتراك السلاجقة ، زادت ظلمتها في ظل الأتراك العثمانيين . وفيما كانت أوربا تلج عصر الاستنارة ، كانت سورية تتلمس طريقها في الظلام العثماني الدامس . وبالرغم من محاولة بعض السلاطين أمثال : سليم الثالث (١٧٨٩ – ١٨٠٧ م) ومحمود الثاني (١٨٠٨ – ١٨٣٩) وعبد المجيد الأول (١٨٣٩ – ١٨٦١ م) . لإدخال الإصلاحات إلا أن جميع المحاولات باءت بالفشل (٢) . وكان الشعب في بلاد الشام يعتصم بالإستكانة والخيبة والتنكر للسلطة والتشاؤم من نتائج الجهود . ولكن بوادر اليقظة للتحرر من الأتراك والتخلص من سيطرتهم بدأت في الظهور في سنة ١٨٦٨ م . وقد تجلت هذه البادرة في قصيدة ألقاها الشيخ إبراهيم اليازجي في اجتماع سري لنفر من أعضاء الجمعية السورية العلمية حث فيها العرب على النهوض في وجه الأتراك .
ومن هذه القصيدة :

تنبهـــوا واستفيقـــوا أيهـــا العرب
فقـــد طمى الخطب حتى غاصت الركب

الله أكبر ، ماهذا المنـــام فقد
شكاكم المهـــد واشتاقتكم الترب

فشمروا وانهضوا للأمر وابتدروا
من دهركم فرصة ضنت بها الحقب

أقداركم في عيون الترك نازلـــة
وحقكم بين أيدي الترك مغتصب

فيالقومي وما قومي سوى عرب
ولن يضيّع فيهم ذلك النسب

سنطلبن بحد السيف مأربنا
فلن يخيب لنا في جنبه الأرب

ونتركنّ علوج الترك تندب ما
قد قدمته أياديها وتنتحب

ومن يعش يرَ والأيام مقبلة
يلوح للمرء في أحداثها العجب (٤٨)

وفي الجمعية السورية نفسها ألقى الشيخ اليازجي قصيدته الميمية المشهورة عقب الحوادث المؤلمة بين السكان على اختلاف مذاهبهم . في لبنان ودمشق ، وكان الأتراك قد اشعلوا نيرانها . ومن هذه القصيدة الأبيات التالية :

سلامٌ أيها العرب الكرام
وجاد ربوع قطركم الغمام

وما العرب الكرام سوى نصال
لها في جفن العليا مقام

لعمرك نحن مصدر كل فضل
وعن آثارنا أخذ الأنام

ونحن أولوا المآثر من قديم
وإن جحدت مآثرنا اللئام (٤٨)

ماكانت بوادر هذه اليقظة لتجلب إلا المزيد من تعسف الأتراك ضد العرب الذين بدأوا يستفيقون قومياً من سبات عميق كاد أن يدفن قوميتهم ولغتهم وتراثهم في غياهب النسيان ، ففي عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ – ١٩٠٩ م) ازداد البطش بالأحرار للحيلولة دون تسرب الفكرة القومية إلى الأقطار العربية الواقعة تحت الحكم العثماني . وفي مطلع القرن العشرين اشتدت النقمة على الأتراك . وفي سنة ١٩٠٨ أعلن عبد الحميد الدستور بقصد الإصلاح ، مرغماً تحت ضغط جمعية الاتحاد والترقي التركية . ولكن عبد الحميد خُلع سنة ١٩٠٩ م لتآمره على الدستور ، وعُيِّنَ مكانه أخوه الأبله محمد رشاد الخامس (١٩٠٩ م) وقد كانت السلطة الفعلية بيد الإتحاديين الذين قاموا يمهدون لبرنامجهم الخطير الرامي إلى تتريك جميع الشعوب في البوتقة العثمانية . وهذا أدى إلى اشتداد الحركة العربية التي انصرفت إلى تأسيس الجمعيات السرية التي هبّت إلى مقارعة العثمانيين والاتحاديين علانية . وقد تألفت هذه الجمعيات بين سنة ١٩٠٨ – ١٩١٤ م . وكان أفرادها من العرب المسيحيين والمسلمين ، إذ كانوا يرون أن الدين لله والوطن للجميع (٤٨) . وفي نهاية تشرين الأول سنة ١٩١٤ اشتعلت نيران الحرب العالمية الأولى ، فانضمت تركيا إلى جانب ألمانيا ضد الحلفاء ، بينما ناصر العرب الحلفاء : روسيا وانكلترا وفرنسا ، أملاً بالتخلص من نير الحكم التركي والحصول على استقلالهم لتحقيق أمانيهم القومية .

الحرب العالمية الأولى : (١٩١٤ – ١٩١٨ م) : ازداد نشاط المنظمات القومية في سورية خلال هذه الحرب ، فقام جمال باشا باعدام الكثيرين من أفرادها على أعواد المشانق في دمشق وبيروت .

وكان جمال باشا قد أرسل إلى دمشق لقيادة الجيش الرابع التركي (٢٨) . كانت أنباء الشنق حافزاً أن يقوم العرب علانية بمناصرة الحلفاء . ولكن في نهاية تشرين الأول سنة ١٩١٨ م انتهت الحرب وانتصر بها الحلفاء ، فتحررت سورية من سيناء إلى طوروس . من الحكم التركي الذي دام ٤٠٢ سنة وذلك منذ سنة ١٥١٦ م على أثر احتلالها على يد السلطان سليم الأول إلى سنة ١٩١٨ م . بعد استيلاء العثمانيين على بلاد الشام كلها وسيطرة السلطان التامة على الولاة في جميع الولايات زالت الحاجة للدفاع ، فلم يعد هناك من مكانة حربية للقلاع والحصون أمثال شيزر . وبسبب ذلك لم يعد هنالك من حاجة لترميم الأسوار والتحصينات . فتلريجياً فقدت شيزر قيمتها الستراتيجية ، بينما انحصرت أهميتها على أهلها الذين بقوا يعتصمون بها من هجمات الأعراب إلى أن أتى الحكم الوطني .

بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى مُني العرب بفشل وخيبة أمل : إذ أن ما وعدهم به الحلفاء إبان الحرب ، وما أنجزوه من وعود ، انتهك حرمة كل الوعود الصريحة التي قُطعت لهم والمبادىء التي أعلن عنها أنها ستكون أسس السلم في المستقبل . فكان الحلفاء سراً ومسبقاً قد اتفقوا حسب اتفاقية سايكس بيكو سنة ١٩١٦ م أن تكون سورية ولبنان من حصة فرنسا ، بينما الأردن وفلسطين والعراق من نصيب انكلترا (٤٨) .

الاحتلال الفرنسي : كانت فترة الآمال بالإستقلال . بعد طرد الأتراك من سوريا قصيرة الأجل . فبعد أن أنشئت دولة عربية مستقلة عاصمتها دمشق ورُفع علم سورية الجديد في ٧ آذار سنة ١٩٢٠ م

وبُويع فيصل بن الشريف حسين ملكاً عليها عُقد مؤتمر ساز ريمون في نيسان سنة ١٩٢٠ ، الذي نالت فيه فرنسا الإنتداب على سورية ولبنان . وبريطانيا الإنتداب على فلسطين والعراق . ولم تكد الأصقاع السورية بما فيها شيزر تنعم بالإستقلال ، حتى وجه الجنرال غورو الإفرنسي في ١٤ تموز سنة ١٩٢٠ م إنذاراً إلى الأمير فيصل حجج فرنسا عليه وعلى الحكومة السورية وأعمالها العدائية ضد فرنسا . ولكن بالرغم من قبول الحكومة السورية مطالب فرنسا ، كان غورو قد قرر الاستيلاء على سورية ، ولذلك أمر جيوشه بالزحف على دمشق . فهبت الجموع العزلاء في دمشق لمقاومة العدو المدجج بالسلاح ، فكانت معركة ميسلون في ٢٤ تموز ، التي استشهد فيها وزير الدفاع يوسف العظمة . وفي اليوم التالي دخل الفرنسيون دمشق واحتلوا الثكنات ، وبذلك انتهى عهد الحكومة العربية السورية ، وبدأ عهد الإحتلال والإنتداب (٤٩) .

الجلاء والاستقلال :

أراد الإفرنسيون أن يفرضوا إنتدابهم على سورية . وبذلوا جهد طاقتهم لاستئصال النزعة العربية من نفوس السوريين وإماتتها في قلوبهم ، فلجأوا إلى الأساليب العنيفة ، وعززوها بالأحكام العرفية . واستعانوا بجميع الوسائل لمحاربة الفكر الحر ، وإثارة المنافسات المحلية بين الأهالي في الجنس والدين والمصلحة ، وتجزئة البلاد . ولكن سورية ظلت برغم ذلك شديدة الحرص على نزعتها القومية ، التي شبت ونمت في ربوعها ، كزرع أخرج شطأه واستوى

على سوقه . فأصبح الإستقلال والوحدة يجريان على كل لسان ويملآن كل جنان (٤٩) .

أما الاستقلال ، فقد تابعت البلاد السورية نضالها حتى أحرزته بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ — ١٩٤٥ م) . وقد جاء هذا الاستقلال بعد ثورة عارمة حمي وطيسها في أيار سنة ١٩٤٥ ، قذفت على أثرها دمشق وحمص وحماه وحلب بالطائرات والمدافع والدبابات الإفرنسية ، فعظم الدمار ، وذهبت على أثره مئات الضحايا . ولكن في ١٧ نيسان سنة ١٩٤٦ تم جلاء القوات الأجنبية عن سورية . وأقرّ هذا اليوم عيداً قومياً لسورية ، حيث طلّ فجر الإستقلال وبدء الحكم الوطني (٤٩) .

أما الوحدة ، فقد تطورت تطوراً محزناً لوقوف المطامع الدولية والأغراض المحلية في سبيلها ، حتى حرمت البلاد نيل ثمرات جهادها منها ، ففي القسم الجنوبي من سورية ، أقام الإنكليز والأمريكيون بمساعدة الأمم المتحدة وموافقة روسيا ، دولة يهودية ؛ كما أنشئت دولة شرقي الأردن . أما في الشمال ، فكان قد سبق السيف العزل ، إذ كان قد سُلخ لواء اسكندرون ، اللواء الخصيب في سنة ١٩٣٩ م ، إذ سلمته فرنسا إلى تركيا (٤٩) .

— انتهى

* * *

المراجع الاجنبية

BIBLIOGRAPHY

1 . Z. Oldenbourge , The Crusaders. 1966.

2 . J. Fingan , Light from the Ancient past. vol. 18 2, 1959 .

3 . D. D. Luckenbill, Ancient Records of Assyria and Babylonia. 1968 .

4 . Aramco world Magazine. April 1978 .

5 . Dec. National Geographic. 1978 .

6 . G. A. Larue. Babylon and the bible. 1969 .

7 . Western Asia in the 20th century B. C. the Archives of Maribulletin, American Schools of Oriental Research, 67 : 27 , W. F. Albright, 1937 .

8 . P. Berstein and R. W. Green History of civilization. vol. 18 2,

9 . O. R. Gurney, The Hittites. 1972 .

10 . H. W. F. Saggs, The Greatness that was babylon. 1968 .

11 . M. Chejlik, Ancient History. 1969 .

12 . C. Mcevedy, The Penquin Atlas of Ancient History. Vol. 18 2 , 1974 .

13 . Sir Alan Gardiner, Egypt of the pharoahs. 1974 .

14 . J. H. Breasted Ancient Records of Egypt.

15. The tell El Amarnd Letterse : Syria and Egypt.
16 . P. K. Hitti, History of the Arabs. 1967 .
17 . A. Weigall, The Life and Time of Akhnaton, pharoah of Egypt . 1923 .
18 . C. R. Conder, Tell Amarna Tablets. 1893 .
19 . J. Baikie, The Amarna Age. 1926 .
20 . E. F. Campbell, The Chronolgy of the Amarna Letters . Jr. , 1963 .
21 . C. W. Ceram, The secret of the Hittites. 1955
22 . P. K. Hitti, Syrisa :. A short History. 1959 .
23 . Y. Aharoni and M. Avi- Yonah, The Macmillan Bible Atas. 1968 .
24 . National Geographic society : Bible Times .
25 . The Geography of Strabo. Vol. I - VIII .
26 . H. T. Frank, Discovering the Biblical World 1975 .
27 . P. Johnson, A History of Christianity. 1976 .
28 . William yale, The Near East . 1968 .

المراجع العربية

١ ـ الشيخ ناصيف اليازجي . العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب.

٢ ـ الدكتور فيليب حتي . تاريخ سورية (١ ـ ٢) . ١٩٥٨ .

٣ ـ أبو الفداء . تقويم البلدان .

٤ ـ أحمد وصفي زكريا . جولة أثرية في بعض البلدان الشامية ـ ١٩٣٤

٥ ـ صبحي الصراف ، تاريخ حلب الجزء الأول (حلب قبل الإسلام) ١٩٧٢ .

٦ ـ أحمد حسين . موسوعة تاريخ مصر .

٧ ـ سفر صموئيل الثاني ، الإصحاح : ٨ .

٨ ـ سفر الملوك الأول ، الإصحاح : ٥ .

٩ ـ سفر الملوك الأول ، الإصحاح : ٢٠ .

١٠ ـ افاميا . . ـ مطبوعات المديرية العامة للآثار والمتاحف السورية .

١١ ـ سفر الملوك الثاني ، الإصحاح : ١٩ .

١٢ ـ اشعيا ، الإصحاح : ٤٤ .

١٣ ـ عزرا ، الإصحاح : ٦٤ .

١٤ ـ نحميا ، الإصحاح : ٧ .

١٥ ـ سورة الكهف : ٨٣ ـ ٨٨ .

١٦ ـ دانيال الإصحاح : ٨ .

١٧ – سفر أخبار الأيام الأول م الإصحاح : ١ ، ٣١ .
١٨ – تاريخ الكنيسة المسيحية . ترجمة المطران الكسندروس (جحا) مطران حمص .
١٩ – محمد صالح سمك . أمير الشعر في العصر القديم – امرؤ القيس .
٢٠ – ياقوت . معجم البلدان . مجلد : ٣ .
٢١ – عبد العزيز سالم . دراسات في تاريخ العرب (عصر ما قبل الإسلام) . ١٩٦٨ .
٢٢ – ابن الأثير . الكامل في التاريخ . مجلد ٢ .
٢٣ – القرآن الكريم .
٢٤ – البلاذري . فتوح البلدان .
٢٥ – أبو فرج الأصفهاني . كتاب الأغاني . مجلد : ٥ (ثقافة)
٢٦ – عبد الجبار الجومرد . أبو جعفر المنصور .
٢٧ – أبو فرج الأصفهاني – كتاب الأغاني . مجلد : ٧ (ثقافة)
٢٨ – عمر فروخ – تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية .
٢٩ – ابن الأثير . الكامل في التاريخ – مجلد : ٥
٣٠ – الطبري . تاريخ الأمم والملوك . مجلد : ٥ . (دار القلم) .
٣١ – يوسف العش – تاريخ عصر الخلافة العباسية .
٣٢ – محمد الخضري . تاريخ الأمم الإسلامية .
٣٣ – نبيه فارس . تاريخ الشعوب الإسلامية .
٣٤ – سورة الدخان . آية ٤٧ .
٣٥ – الطبري . تاريخ الأمم والملوك . مجلد : ٦ (دار القلم) .

٣٦ -- ستيفن رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية (جزء أول) ترجمة الباز العريني .

٣٧ -- ابن الأثير . الكامل في التاريخ -- مجلد : ٨ .

٣٨ -- أبو الفداء . المختصر في أخبار البشر . مجلد : ١ -- ٢ .

٣٩ -- اسامة بن منقذ . كتاب الاعتبار .

٤٠ -- أبو الفداء . المختصر في أخبار البشر -- مجلد ٣ -- ٤ .

٤١ -- سمير القطب -- انساب العرب .

٤٢ -- جون غلوب باشا -- أمبرطورية العرب .

٤٣ -- محمد كرد علي -- خطط الشام . جزء : ١ -- ٦ .

٤٤ -- ستيفن رنسيمان . تاريخ الحروب الصليبية -- (جزء : ٢) ترجمة الباز العريني .

٤٥ -- ابن الأثير -- الكامل في التاريخ . مجلد : ١١ .

٤٦ -- المقدسي . الروضتين في أخبار الدولتين ، جزء : ١ -- ٢

٤٧ -- ستيفن رنسيمان . تاريخ الحروب الصليبية -- (جزء : ٣) . ترجمة الباز العريني .

٤٨ -- جورج انطونيوس ، يقظة العرب . ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس .

٤٩ -- نجيب الأرمنازي ، سورية من الاحتلال حتى الجلاء ، ١٩٧٣ .

٥٠ -- أحمد سوسة . العرب واليهود في التاريخ . سلسلة المكتبة الحديثة -- دمشق .

الفهرس

١٩٨٢ / ١٢ / ٢٥٠٠

الطبع وفرز الالوان
مطابع وزارة الثقافة والارشاد القومي
دمشق - ١٩٨٢

سعر النسخة
١٠ ل.س.ل